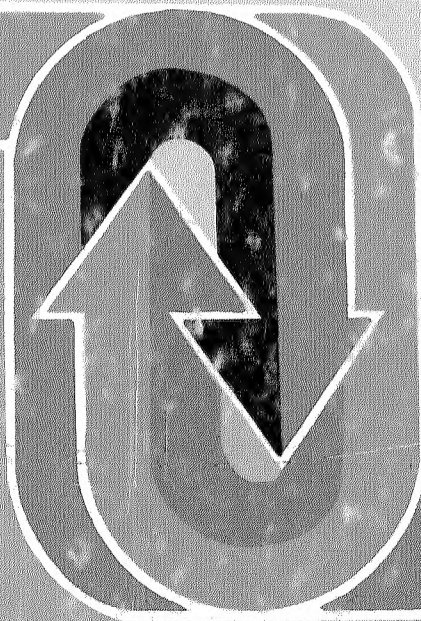


فِي الْمِيزَانِ

نخوة لوبون

شوقي أبو خليل



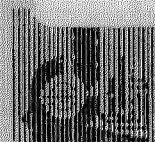
0156939



Bibliotheca Alexandrina

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي الْمِيَرَاتِ
غَوْسَتَانِ لُوبُونِ

فِي الْمِيزَانِ

غوستاف لوبون
بارعي

شوقي أبو خليل

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان



الكتاب ٨٢٥

الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل
والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق
إلا بإذن خطي من دار الفكر بدمشق

سورية - دمشق - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٣٩٧١٧، ٢١١١٦٦ - تليكس 411745 Sy FKR

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق
الطباعة (أوفست): المطبعة العلمية بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

☆ « لقد أثبت التاريخ ما للمعتقد القوي من القوة التي لا تقاوم ، فخضعت دولة الرومان المنيعه لجيوش من رعاة البدو ، الذين أضاع قلوبهم ما جاء به محمد ﷺ من الإيمان »^(١).

بسم الله القائل في محكم التنزيل : ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف ٨٥/٧] ، والصلاة والسلام على رسول الله ، محمد بن عبد الله ، القائل : « احذروا ذلة العالم ، وانتظروا فيأْتة »^(٢) . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، لا علم لنا إلا ما علمتنا ، وبعث ..

☆ تمهيد (بؤكاي واستيفنس) :

كنت في مؤتمر سنة ١٩٨٩ م ، وفي حفلة الافتتاح ، جلس إلى جانبي رجل أوربي الملامح ، مديد القامة فارعها ، ذولحية خفيفة شقراء ، ولباس خاص ، أقرب ما يكون إلى الزي المغربي ، وفي المساء ، مر هذا الرجل بنا ، يجر عباءته السوداء الأنيقة ، فقال بلسان عربي فصيح ، فيه لكنة الأعاجم : السلام على من

(١) روح الثورات ، غوستاف لوبون ، ص ٢٠

(٢) الحلواني عن ابن عمر ، والبيهقي .

أتبع الهدى ، فأجبناه : وعلى من أتبع الهدى السلام ، فقال : أعجبني ردّ سلامكم ، أتمحون لي أن أجلس معكم ؟ فقلنا : بكلّ طيب خاطر ، أهلاً وسهلاً ومرحباً ، وصادف جلوسه ، وللمرة الثانية ، إلى يميني مباشرة ، فقلت له : من سنة رسولنا الكريم ﷺ التعارف ، أنا فلان ، وهذه بطاقتي ، فمن أنت ؟

وقبل أن يجيب عن سؤالتي ، رحّب بي كثيراً ، وقدم لي بطاقته ، ثم قال : عرفتكَ منذ سنوات عن طريق كتبك ، أنا أبو فريد القبطاني ، مؤسس مجلة (صوت الإسلام) ومدير نشرها ، أصدرها في مدينة باريس مع عدد من المسلمين الدعاة .

قلت له : أمغربي الأصل أنت ؟

قال مجيباً : لا ، أنا فرنسيّ أباً عن جدّ ، كان للبروفيسور محمد حميد الله^(٣) ، الأثر الأكبر في اعتناقي الإسلام .

قلت له : أتعرف الدكتور موريس بوكاي^(٤) ؟

(٣) محمد حميد الله ، عمره قرابة تسعين عاماً ، باكستاني الأصل مقيم في باريس ، يتقن إحدى عشرة لغة ، ترجم القرآن الكريم إلى الفرنسيّة ، فطبع أكثر من أربع عشرة مرّة ، وفي كلّ مرّة كان حميد الله يعدّل في ترجمة المعاني ليستقيم المعنى أكثر في أذهان القارئ الفرنسي ، يدرّس في الأكاديميّات ، ويكتب ويحاضر بالعربيّة والفرنسيّة والانكليزيّة والتركيّة والألمانيّة والأردنيّة ... يعيش في غرفة واحدة متواضعة مليئة بالكتب والأوراق ، ينفق ٩٠٪ من دخله لمصالح المسلمين في فرنسا ، أسلم على يديه المئات ، والمئات عن طريق كتبه وترجماته .

(٤) الدكتور موريس بوكاي : طبيب فرنسي معاصر ، واحد من عنوا بالدراسات العلميّة ، ومقابلتها بالكتب المقدّسة ، ولكي يتسنى له الحصول على مزيد من التوضيحات ، تعلم الدكتور بوكاي اللّغة العربيّة ، ودرس القرآن الكريم فوجد فيه آيات مدهشة ، لا يمكن إدراك معناها إلّا في ضوء المعارف العلميّة الحديثة والمعاصرة ، فهي إعجاز خالد يشهد بأنّ القرآن الكريم من مصدر إلهي ، يثبت نبوّة محمد ﷺ .

ابتسم أبو فريد ابتسامة عريضة ، وتنهَّد تنهُّداً عيقاً ، وبعد لحظات صمت ، قال : إنَّه صديقي المنافق .

قلت له : ألمْ تظلم الرَّجل بهذه الصِّفة ؟

قال : إنَّه صديقي ، وأعتزُّ جداً بصداقته ، وهو مسلم فذٌّ ، أسلم منذ أواخر السَّبْعينات ، وهو يحاضر أسبوعياً أمام ألوف الفرنسيين عن الإعجاز العلميِّ في القرآن الكريم ، وقَدِّم منذ سنتين محاضرةً أبدع بها وأجاد ، وفي نهايتها سأل بوكَّاي الحضور - وكنت بينهم - : هل من سؤال ؟ فقلت له : لسان النَّاس يقول عنك إنَّك منافقٌ ، فقال : لِمَ هذا الحُكْم ؟ قلت : منذ سنواتٍ وأنت تحاضرنا عن القرآن ، وإعجازه العلمي في ثنايا آياته الكريمة ، وتؤكد أنَّه هو الكتاب المقدَّس الوحيد الَّذي جاء العلم الحديث - بكلِّ مجالاته - مؤيِّداً لما فيه ، ولم يجد فيه ما يناقضه مطلقاً ، وقَدِّمت كتابك : (دراسة الكتب المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة) ، الَّذي تُرجم إلى أكثر من عشر لغات ، فلماذا لا تعلن إسلامك ، مادامت هذه المحاضرات تمثل قناعاتك ؟ فأجابني الدكتور بوكَّاي ، وبكلِّ هدوء وثقة : أنت تعلم أنَّي مسلم منذ عشر سنوات ، ولا مانع أن أُجِدَّ إسلامي الآن أمام الجميع ، قلت له : ولكنَّك (موريس) ، لماذا لم تغيِّر اسمك ؟ فأجاب : هذا أمر شكلي لا يمسُّ الجوهر ، تأكَّد يا أخي ، أنَّي لو قدِّمت كتابي (دراسة الكتب المقدَّسة ..) باسم مُحمَّد بوكَّاي ، أو مصطفى بوكَّاي ، أو عبد الهادي بوكَّاي ... ما كان له ما كان من أثر ، ولما اهتمَّ به المسلمون والأوربيُّون على حدٍّ سواء ، كما اهتموا به عندما قدِّم باسم موريس بوكَّاي .

ثمَّ أضاف أبو فريد القبطاني في جلستنا تلك : إن عشرة فرنسيين في كلِّ أسبوع يعلنون إسلامهم في مسجد باريس وحده ، وكان مِّن أسلم على سبيل المثال : (كليون توريز) ، حفيد (موريس توريز) مؤسِّس الحزب الشيوعي

الفرنسي ، وأصبح اسمه رسمياً : (عبد الرحمن توريز) ، كما أسلمت أخته (كاترين) ، والتي أصبح اسمها (لطيفة) .

وقدّم لي أبو فريد مجلّة (صوت الإسلام) ، العدد التاسع لسنة ١٩٨٨ م ، لأقرأ فيها مقابلة تحت عنوان : (استجواب عبد الرحمن توريز ، مع بيان) ، ومما قاله عبد الرحمن توريز خلال المقابلة ، ردّاً على سؤال نصّه : « لماذا اعتناق الإسلام بالذات ؟ » ، قال : « ثلاث ميّزات في الإسلام لم أجدها في غيره من الأديان ، ولا في النظريّات البشريّة : البساطة ، والوضوح ، والتّوافق مع طبيعة الإنسان »^(٥) .

وعندما حدّثني أبو فريد القبطاني^(٦) عن الدّكتور موريس بوكاي ، تذكّرت فوراً البريطاني (كات استيفنس) مطرب القارّتين ، الأوربيّة والأمريكيّة ، الذي نال شهرة عالميّة بالغة ، من خلال الغناء والموسيقى ، التي فرّغ لها كلّ وقته وجهده ، وكسب بسببها أموالاً وثروة طائلة جدّاً ، ولكن لم تجلب له الملايين والشّهرة العالميّة الواسعة ، السّعادة والسّكينة والاستقرار ، كما قال ، فعاش ظروفاً تعيسة قاسية ، وصراعاً مؤلماً ، كدّر صفو أيّامه ، وصفاء ليلاليه ، وراح يتنقل من النّصرانيّة إلى البوذيّة فالشيوعيّة ، ثمّ النّصرانيّة مرّة أخرى ، إلى أن هداه الله تعالى إلى نور الإسلام ، فاعتنقه بعزيمة وإيمان كاملين ، دون أن يكون لمسلم يدّ في ذلك .

(٥) صوت الإسلام ، العدد ٩ ، تشرين الثّاني (نوفمبر) ص ٦٠

(٦) وصلتني منه برقيّة بتاريخ ١٩٨٦/٤/٤ م ، والبرقيّة أصلاً موجّه إلى السيّد رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة (فرانسوا ميتران) يعلمه بها أنّ جهات فرنسيّة وإسرائيليّة تحضّر لقتله ، لنشاطه المؤيّد للقضايا العربيّة والإسلاميّة ، وأنّ الخطّة قد بدأ تنفيذها ، كما هو مَعْدّها ، « وقد أرسلت برقياتٍ ماثلة لجهاتٍ عالميّة » أدباءً ومفكرين وكُتّاب ، ليكونوا شهوداً إن مسّته جهاتٌ معادية للعرب بسوء .

هجر كات استيفنس دنيا الفناء والمعجبين والمعجبات ، وأتجه إلى الإسلام بكلِّ حواسِّه وجوارحه ، لينهل من تعاليه السَّحَّة ، ويدعو غيره كذلك إليه ، بعد أن أطلق على نفسه اسماً جديداً هو : (يوسف إسلام) ، فهزَّ بإسلامه كلَّ لأوساط ، وأسلم بإسلامه وحاسه للإسلام كثير من معجبيه .

يقول يوسف إسلام اليوم ، كات استيفنس الأمس : في عام ١٩٧٥ م ، حدثت المعجزة ، بعد أن قدَّم لي شقيقي الأكبر نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم ، لقد لاحظت في القرآن شيئاً غريباً ، فهو لا يشبه باقي الكتب ، لا يتكون من مقاطع وأوصاف تتوقَّر في الكتب الدنيَّة التي قرأتها ، ولم يكن على غلاف القرآن الكريم اسم مؤلِّف ، ولهذا أيقنت مفهوم الوحي ، الذي أوحى لي هذا النَّبِيُّ المُرسَل بهذا القرآن من الله تعالى .

ومن أوَّل وهلة شعرت أنَّ القرآن يبدأ (باسم الله) ، وليس باسم غير الله ، عبارة ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، كانت مؤثِّرة في نفسي ، ثمَّ تستر فاتحة كتاب ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، كلُّ الحمد لله خالق العالمين ، وربُّ مخلوقات ، فالقرآن هو الذي دعاني للإسلام ، فأجبتُ دعوته .

وحاولت أن أبحث عن أخطاء في القرآن الكريم ، غير أنَّني لم أجِد ، كان كلُّه نسجاً مع فكرة الوحدة الخالصة ، بدأت أؤمن ما هو الإسلام ، كان الإسلام سالة من الله للبشر .

لقد أجابَ القرآن الكريم عن كلِّ تساؤلاتي ، وبذلك شعرت بالسَّعادة ، عادة العُشور على الحقيقة ، ووجدت في القرآن كيف أنَّ هذه السَّعادة هي نالدة .

وبعد أن درست القرآن الكريم ، نطقت بالشَّهادَتَيْن ، فولدت من جديد ،

ورحلت أدرس سيرة الرسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام ، وكيف أَنَّهُ بسلوكه وسُنَّته علَّم المسلمين الإسلام ، فأدركت الثروة الهائلة في حياة الرسول ﷺ وسُنَّته ^(٧) .

☆ ☆ ☆

☆ كتاب (حضارة العرب) :

تذكرت - وأنا أعد هذا الكتاب - الدكتور مورييس بوكاي ويوسف إسلام (كات استيفنس) ، اللذين أسلما ، لأنهما لم يجدا في القرآن الكريم ما ينافي العقل ، أو ينقضه العلم ، أو يرفضه على ضوء المكتشفات الحديثة : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، فهو دين الفطرة في كل شيء ، وليس في استطاعة أي عقل بشري نزيه ، أن يرتاب فيه : ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ، لتطابق أحكامه وهديه ، مع مقتضيات الفطرة البشرية ، ولما كان غير العرب لا يتذوقون بلاغته اللغوية ، في اللغة التي أنزل بها ، جاءت اللفظات العلمية القاطعة حجة في كل لغة : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ .

تذكرت الاثنين ، بوكاي واستيفنس ، واستغربت كيف خفي هذا الإعجاز عن الدكتور غوستاف لوبون ، الذي أجاد في كتابه (حضارة العرب) في وصف العمارة الإسلامية « التي لبست أطماراً بالية ، إلا أنها أطمار شريفة » :

« ويتلأ ذلك الميناء الجميل كالحجارة الكريمة حين تُلقي الشمس أشعتها على جامع عمر ، فيكتسب خارج هذا الجامع منظراً سحرياً خيالياً لا عهد لجوانب المباني الأوربية الدُكن بمثله ، والمرء قد يفكر في تلك القصور السحرية التي يبصرها بخياله أحياناً ، ولكن الخيال دون الحقيقة في أمر جامع عمر » ^(٨) .

(٧) الرُّابطة ، العدد ٢٥١ ، السنة ٢٤ ، جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ ، شباط (فبراير) ١٩٨٦ م ، ص ٥٢ و ٥٣

(٨) حضارة العرب ، ص ١٩٧

« وجامع قرطبة أقيم أيام كان الفنُّ العربيُّ في فجره ، ثمَّ تدرَّج الفنُّ العربيُّ إلى الكمال ، فأقيمت على الطراز العربيِّ الكامل مبانٍ عجيبةٌ كالخمراء تُخبرُ ، بما لها من الرُّوعة والجلال ، الأجيالُ القادمة بما كان للقوم الذين شاهدوها من الذوق الفنيِّ وحبِّ ما هو ساطع بديع عجيب »^(٩) .

(حضارة العرب) ، كتاب لاشكَّ فريد في نوعه ، وكتبه مُحبُّ للعرب وحضارتهم ، إلّا أنَّ الأخطاء والهفوات والمطاعن فيه كثيرة ، فع حسن نيّة (لوبون) ، نلمس أنّه لم يرهق نفسه ليحيط بدقائق العقيدة الإسلاميّة ، فجاءت معظم هفواته وأخطائه في هذا المجال ، فهو لم يتصوّر أو يدرك ظاهرة الوحي ، أو أدركها ، لكنه لم يقرّ بها لمحمد بن عبد الله ، ولم يستوعب بعض الأمور المتعلّقة بالنبوّة والقرآن والشريعة .

لقد وصف (لوبون) آثار حضارتنا فأجاد ، ودافع عن فتوحاتنا فأنصف ، كلُّ ذلك بروح علميّة عالية المستوى قويّة الحجّة ، ولكن يصدم الدّارس (لحضارة العرب) بعد هذا الإنصاف بأقواله في القرآن ، وفي الرّسول الكريم ﷺ ، وفي الإسلام عقيدة .

أليس من الظلم والجور القول : إنّ محمداً ﷺ كان من (المتّهوسين)^(١٠) ؟
أليس من التّحامل القول : إنّ القرآن من تأليف محمّد ، وشاهد من شواهد عبقريّته^(١١) ؟

أليس من الافتراء القول : إنّ الإسلام مقتبسٌ من عناصر يهوديّة ونصرانيّة^(١٢) ؟

(٩) المرجع السابق ، ص ٣٥٤

(١٠) المرجع السابق ، ص : ٣٩ و ٤٠ و ١٤٥ و ١٧٣

(١١) المرجع السابق ، ص : ١٤٨ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٤ و ١٥٥

(١٢) المرجع السابق ، ص : ١٣٦ ، و ١٣٧

ومن حقّ (لوبون) والاستشراق أن يقول ، وأن يتناول بالتحليل والنقد والدراسة والتعليق ، ومن حقنا الرد والتصويت وتنفيذ الخطأ ، لأن السكوت عما يُقال ، أو يقدم ، يعني تسليماً ضمنيّاً بآراء الاستشراق وطروحاته ، وإلا فآين النقد والرد ، مادام الرأي فاسداً ظالماً ؟!

والغريب العجيب ، أنّ الأستاذ المترجم ، وهو عربيّ مسلم ، لم يعلّق على هفوات (لوبون) ، ولا على أخطائه واقتراءاته ، سواء أ جاءت عن حسن نية ، أم جاءت عن سوء فهم ، واكتفى الأستاذ المترجم ، وهو رجل فاضل لاشك ، بتصويب خطأين اثنين فقط ، في مقدّمة الطبعة الأولى ، كما سنبين في فصل : كتاب حضارة العرب ، وصف وعرض .

والصعوبة الكبرى ، التي واجهتنا في دراسة هذا الكتاب ، كانت عدم توثيق (لوبون) لما كتب ، وعدم عزّوه ما اقتبس إلى مصادره ، كما أنّه لم يُقدّم الأمثلة على رأيه المطروح ، وعندما نقل بعض الآراء من مصادرها ، لم يذكر اسم المصادر التي اعتمدها ، أو اقتبس منها ، بل قال في أكثر من موضع بصيغة التمرّيز والارتياب : ويروي مؤرّخو العرب ، على زعم كتب السيرة ... دون أن يذكر من هم هؤلاء المؤرّخون ، أو يحدّد أي كتب السيرة التي تزعم ، واكتفى بسرد أسماء عشرات الكتب في نهاية الكتاب ، على أنها كانت مصادره .

☆ مؤلّف (حضارة العرب) :

مَنْ مِنَّا لم يحفظ ، أو يسمع على الأقل ، منذ طفولته بقول العلامة الفرنسي الشهير غوستاف لوبون :

« ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب »^(١٣) ، لقد حفظنا عبارته الرائعة

(١٣) يقول روبرتسون : « إنّ أتباع محمد - ﷺ - هم الأمة الوحيدة التي جمعت بين التّحمّس في الدّين والتّسامح فيه ، أي أنّها مع تمسّكها بدينها لم تعرف إكراه غيرها على قبوله » ، [حاضّر العالم الإسلامي ١٠٤/١] .

الْمُنْصِفَة ، إمّا بعد سماعها من معلّمينا ، معلّمي التاريخ خصوصاً ، وإمّا من صفحات كتبٍ اقتبست هذه العبارة من كتاب « حضارة العرب » .

وضع العلامة لوبون أثناء سياحاته الكثيرة في أقطار الأرض كُتُباً قيّمة في مدنيّات بعض الأمم ، ثم استخرج منها العِبَر ، فوضع ثلاثة كتب ، شرح فيها ماظهر له من سنن الاجتماع ، وهي : (سِرُّ تطوُّر الأمم) ، و (روح الجماعات)^(١٤) ، و (الآراء والمعتقدات) ، ثم طَبَّق ما جاء في هذه الكتب من الآراء في مؤلّفاتٍ أخرى ، أهمّها : (روح الثورات والثورة الفرنسيّة)^(١٥) ، و (روح الاشتراكيّة) ، و (حضارة العرب)^(١٦) ، و (حضارات الهند) ، و (الحضارة المصريّة)^(١٧) ، و (حضارة العرب في الأندلس)^(١٨) ..

إذن ، فالمؤلّف هو العلامة الدّكتور غوستاف لوبون : [١٨٤١ - ١٩٣١ م] ، من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيين ، ومن المستشرقين المُنْصِفِينَ إلى حدٍّ بعيد ، لم يدافع عن حضارتنا العربيّة فحسب ، بل دافع عن حقوق المسلمين ، وانتقد سياسة القهر والهضم الّتي عسفتم بها الدّول الأوربيّة المستعمرّة ، وقد كتب كتابات شافية في انتقاد قومه الفرنسيين بما يعاملون به مسلمي الجزائر من الظّلم ، والإرهاق ، ونزع الأراضي ، والتّشريد في الصّحراء ، وغير ذلك^(١٩) .

(١٤) ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ، تحت عنوان : (روح الاجتماع) مطبعة الشّعب ، سنة ١٩٠٩ م .

(١٥) (روح الثّورات والثّورة الفرنسيّة) ، ترجمة الأستاذ عادل زعير ، نشر مكتبة عبيد بدمشق ، سنة ١٩٢٤ م .

(١٦) (حضارة العرب) موضوع دراستنا في هذا الكتاب ، طبعة : دار إحياء التّراث العربي ، بيروت ، الطّبعة الثّالثة : ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، علماً أنّ طبعته الأولى كانت سنة ١٩٤٥ م ، وطبعته الثّانية ١٩٤٨ م .

(١٧) الحضارة المصريّة ، عرّبه الأستاذ صادق رستم .

(١٨) حضارة العرب في الأندلس ، عرّبه عبد الرّحمن البرقوقي .

(١٩) حاضر العالم الإسلامي ١٥٥/١

وهو لم يذكر العرب بخير في كتابه (حضارة العرب) فقط ، لقد ذكرهم أيضاً في كتابه : (روح الثورات والثورة الفرنسية) ، قال لوبون بعد ذكر انتصار جيوش الثورة الفرنسية : « ويزكرنا تاريخهم بتاريخ قبائل جزيرة العرب ، التي استولى عليها المثل الأعلى الذي جاء به محمد ﷺ ، فتحوّلت إلى جيوش خيفة فتحت جزءاً من العالم الروماني القديم بأسرع ما يمكن »^(٢٠) .

وقال في كتابه : (روح الاجتماع) : « لقد أثبت التاريخ ما للمعتقد القوي من القوة التي لا تقاوم ، فخضعت دولة الرومان المنيعة لجيوش من رعاة البدو ، الذين أضاء قلوبهم ماجاء به محمد ﷺ من الإيمان »^(٢١) .

☆ مترجم (حضارة العرب) :

عادل بن عمر بن حسن زعير : [١٣١٢ ١٣٧٧ هـ = ١٨٩٥ - ١٩٥٧ م] ، حقوقي ، من أكابر المترجمين عن الفرنسية ، من أعضاء المجمعين العلميّين بدمشق وبيغداد ، مولده ووفاته في مدينة نابلس (فلسطين) ، تعلّم بها وبيروت وبالأستانة ، وكان من ضباط الاحتياط بالجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى ، ولحق بجيش الثورة العربية الكبرى ، فحكم عليه الأتراك العثمانيون بالإعدام غيابياً سنة ١٩١٧ م ، وقصد باريس بعد الحرب ، فتلقّى فيها الحقوق ما بين سنتي ١٩٢١ - ١٩٢٧ م ، وعاد إلى فلسطين محامياً ومدرّساً في معهد الحقوق بالقدس ، ثمّ انقطع إلى الترجمة ، فنقل عن الفرنسية سبعة وثلاثين كتاباً في التشريح والتاريخ والاجتماع ، منها :

ابن الإنسان ، والبحر المتوسط ، ونابليون ، وكلّها لأميل لودفيغ ، ابن خلدون ، لبوتول ، ابن رشد والرشدية ، لرينان ، روح الشرائع لمونتسكيو ،

(٢٠) روح الثورات والثورة الفرنسية ، ص ٢٢٩

(٢١) روح الثورات والثورة الفرنسية ، ص ٢٠

العقد الاجتماعي ، لجان جاك روسو ، تاريخ العرب العام ، لسيديو ، حياة محمد ، لأميل درمنجهام ، الرسائل الفلسفية ، لفولتير ، مفكرو الإسلام ، لكرادوفو .

وحضارة العرب ، وحضارات الهند ، وروح الاشتراكية ، وروح الثورات والثورة الفرنسية ، وفلسفة التاريخ ، وروح السياسة ، والآراء والمعتقدات ، وكلها للدكتور غوستاف لوبون .

وللأستاذ عادل زعير مؤلفات حقوقية لم تُنشر ، وكان - تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه - مع إجادته الفرنسية ، يجيد التركية ، وله إلمام بالانكليزية جُمِعَ أكثر ما كُتِبَ عنه ، بعد وفاته ، في : (ذكرى عادل زعير)^(٢٢) .

☆ خطة هذه الدراسة :

في هذا الكتاب ، الرابع في سلسلة (في الميزان) ، سنعرض كتاب (حضارة العرب) في مجل أبوابه وفصوله ، ثم ما قدمه (لوبون) من روائع تحسب له على صفحات (حضارة العرب) ، وبعد ذلك ، الفصل الأهم : الأخطاء والهفوات ، ونختم بفكرتين :

الأولى : مفتاح شخصية الرجل من خلال كتابه (حضارة العرب) .
والثانية : أهم الأخطاء والهفوات والاقتراءات المشتركة بين جرجي زيدان ، وفيليب حيتي ، وكارل بروكلمان ، وغوستاف لوبون .

وسيلمس القارئ من خلال صفحات كتابنا هذا ، أن لوبون انتقل من أقصى المديح لحضارتنا ، إلى أقصى القدح لعقيدتنا ، ومن قمة الإيجابيات ، إلى حضيض السلبيات ، ومن ذروة التقدير والإعجاب والثناء ، إلى أدنى الخطأ والطعن

والافتراء ، ومع ذلك ، لن نقول كما قال نجيب عقيقي في كتابه (المستشرقون ٢٢٦/١) : « حضارة العرب صدر في باريس سنة ١٨٨٤ م ، ولا قيمة علمية له » ، فقد يكون في ذلك ظلم كبير ، وخطأ فادح ، لن نقول إلا ما للرجل ، ولن نذكر إلا ما عليه بالدليل والبرهان الموثق .

وقبل أن نبدأ مع صفحات الفصل الأول من هذا الكتاب ، أسجل شكري وامتناني إلى الأخ الزميل ، الأستاذ هاني المبارك ، الذي قدّم آراءه القيمة في فصل : (الأخطاء والهفوات) ، وإلى أسرة دار الفكر ، التي ألمس عنايتها بما نكتب ونقدّم ، وأنا إذ أسجل شكري وامتناني ، أنطلق من (مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ) ، فشكراً لكل مَنْ قدّم ملاحظاته ، أو قدّم إمكاناته :

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾
[الأحقاف ١٥/٤٦] .

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرأ

شوقي أبو خليل

٢ المحرم الحرام ١٤١٠ هـ
دمشق في : ٤ آب (أغسطس) ١٩٨٩ م



مِنْ رَوَائِعِ لُوبُون

☆ « وَإِذَا مَا قِيسَتْ قِيَمَةُ الرِّجَالِ بِجَلِيلِ
أَعْمَالِهِمْ ، كَانَ مُحَمَّدٌ مِنْ أَعْظَمِ مَنْ عَرَفَهُمْ
التَّارِيخُ » .

[غوستاف لوبون]

إنَّ نظرة مدقَّقة متفحَّصة لكتاب (حضارة العرب) ، تؤكِّد أنَّه كتاب
أنصف فيه مؤلِّفه الدكتور غوستاف لوبون ، حضارتنا العربيَّة الإسلاميَّة إلى حدٍّ
بعيد ، ونتيجة طبيعيَّة لهذه النظرة الشَّاملة ، يقرِّر الدَّارس أنَّ إنصاف المؤلِّف
واضح ملموس ، وحسُنُ النِّيَّة متوفَّر لاريب فيه ، وأنَّ الهفوات الَّتِي وقع فيها
تؤخذ على محمل حسن ، بعيد - كلَّ البعد - عن الحقد والدَّس والافتراء ، لانطلاق
(لوبون) من أرضيَّة الإعجاب بحضارة غير منتمٍ إليها ، لها دورها الكبير في النهضة
المعاصرة ، والتَّقدُّم الحضاري العلمي الحالي ، فأراد إنصافها ، وتقديم روائعها لبني
قومه ، ليبدِّد أوهامهم الموروثة حولها .

ونحن إذ ننتقي - فيما يلي - أهمَّ ما أورده (لوبون) في كتابه : (حضارة
العرب)^(١) ، فلا يعني ذلك أنَّه لم يورد غيرها ، إنَّنا نورد أبرز ما قاله ، وذلك
قبل أن نصوِّب بعض ما أخطأ به ، أو نوضِّح نقاطاً خفيت عليه ، أو نجلي أشياء
غابت عنه ، أو نفنِّد أموراً لم يدرك (لوبون) كنهها ، فعثر عندما عاجلها ،
وجانب الحقيقة عندما أوردها ، من خلال ما وصل إليه علمه .

(١) حسب تسلسل ورودها في الكتاب ، وهذا لا يعني أنَّنا لا نجد خلالها بعض العبارات أو الكلمات
الَّتِي لا نوافق عليها ، وسنشير إلى ذلك في حينه ، إن لم تتجاوز العبارة .

- ١ -

في نهاية الباب الأول : (مصادر قوة العرب) ، يتحدث (لوبون) عن :
(حياة محمد ﷺ وأخلاقه) ، وبعد عرض جوانب من سيرته ﷺ ، يقرر أنه
مما لا ريب فيه أنَّ محمدًا ﷺ أصاب في بلاد العرب ما لم تُصِب مثلها جميع
الديانات التي ظهرت قبل الإسلام ، ولذلك كان فضل محمد ﷺ على العرب
عظيماً ، ثم يقول :

« وإذا ما قيسَت قيمة الرجال بجليل أعمالهم ، كان محمدٌ من أعظم من عَرَفَهم
التاريخ ، وأخذ بعض علماء الغرب يُنصِفون محمدًا ، مع أنَّ التَّعَصُّب الدينيَّ أعمى
بصائر مؤرِّخيهم عن الاعتراف بفضله ، قال العلامة بارتلمي سنت هيلر : كان
محمد أكثر عرب زمانه ذكاءً ، وأشدَّهم تدبُّناً ، وأعظمهم رافةً ، ونالَ محمد سلطانَه
الكبير بفضل تَفَوُّقه عليهم ، ونَعُدُّ دينه الذي دعا النَّاسَ إلى اعتقاده جزيلَ النِّعم
على جميع الشعوب التي اعتنقته » ، [صفحة ١٤٦] .

- ٢ -

وقبل إيراد الآيات الكريمة ، التي تقرّر أن لا إكراه في الدين ^(٢) ، والحوار مع
أهل الكتاب بالتي هي أحسن ^(٣) ، يقول (لوبون) :

« وكان محمد كثير المسامحة لليهود والنصارى ، خلافاً لما يُظن » ، [صفحة

. [١٥٥]

(٢) ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ ، [البقرة ٢٥٦/٢] .

(٣) ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ
إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت ٤٦/٢٩] .

وفي الفصل الثاني : (القرآن) ، وتحت عنوان : (فلسفة القرآن - انتشاره في العالم) ، يذكر أن التوحيد المطلق هو أصل أساسي ، فالإله الواحد الذي دعا إليه الإسلام مهين على كل شيء ، ولا تحفُّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يُفرض تقديسهم ، ويتابع (لوبون) :

« وللإسلام وحده كلُّ الفخار بأنه أوَّلُ دين أدخل إلى العالم التوحيد المحض ... وتشتقُّ سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض ، وفي هذه السهولة سِرُّ قوة الإسلام ، والإسلام ، وإدراكه سهلاً ، خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض ، ولا شيء أكثر وضوحاً ، وأقلَّ غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد ، وبساواة جميع الناس أمام الله ، وببضعة فروض يدخل الجنة مَنْ يقوم بها ، ويدخل النار من يُعْرِض عنها ، وإنَّك إذا ما اجتمعَ بأيِّ مسلم من أيَّة طبقة ، رأيته يَعْرِفُ ماذا يجب عليه أن يعتقده ، وَيُسَرِّدُ لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة ، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما ماثلها من الغوامض ، من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل » ، [صفحة ١٥٨] .

« وساعد وضوح الإسلام ، وما أمر به من العدل والإحسان على انتشاره في العالم ، وبتلك المزايا نفَّس سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام ، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عَرَفُوا أصول الإسلام ، كما نفَّس به السبب في عدم تنصُّر أيَّة أمة بعد أن رَضِيَتْ بالإسلام ديناً ، سواء أكانت هذه الأمة غالبية أم مغلوبية » ، [صفحة ١٥٩] .

وفي معرض حديث (لوبون) عن مدى تأثير القرآن الكريم والإسلام في الناس ، وما يصبُّه في النفوس إيماناً ثابتاً لاتزعزعه الشُّبهات ، يتابع قائلاً :

« ولا ريب في أنَّ نفوذ الإسلام السياسي والمدني كان عظيماً إلى الغاية ، فقد كانت بلاد العرب قبل محمد مؤلفة من إمارات مستقلة ، وقبائل متقاتلة على الدوام ، فلما ظهر محمد ومضى على ظهوره قرن واحد كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانية ، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوهاج في جميع البلدان التي خفقت راية النبي فوقها .

والإسلام من أكثر^(٤) الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم ، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس ، وحملاً على العدل والإحسان والتسامح ، والبُدْهيَّة^(٥) ، وإن فاقت جميع الأديان السامية فلسفة ، تراها مضطرة إلى التحول لتستريحها الجموع ، وهي ، لاشك ، دون الإسلام في شكلها المعدل هذا » ، [صفحة ١٥٩] .

(٤) بل هو الدين الوحيد الملائم لاكتشافات العلم ، قديماً وحديثاً ومستقبلاً : ﴿ سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فَصَّلَتْ ٥٣/٤١] ، والقرآن الكريم ، هو الكتاب المقدس الوحيد ، إن لم نجد فيه ما يؤيد الاكتشافات العلمية ويثبتها ، لن نجد فيه ما يعارضها حقاً ، لذلك قال الدكتور أرنست بانيرث (المستشرق النمساوي المختص بالدراسات الإسلامية) : « التأثير الديني في الغرب يتعرض لهزات عنيفة ، كلما حقق العلم انتصاراته ، أما الإنسان المسلم فإنه يظل على إيمانه المؤكد برغم اطلاعه الدائب والمثابر على العلوم الحديثة » ، [مجلة (الفكر المعاصر) ، العدد ٦٨ ، أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٠ م ، صفحة ١٠٦] .

(٥) البُدْهيَّة : ديانة في الهند ، تدعو الناس إلى التحلي بأطيب الأخلاق ، وتقول بتعدد الآلهة ، (انظر هامش صفحة ١٥٩ ، حضارة العرب) .

وبعد أن يذكر (لوبون) قول الفيلسوف (بائيل) : « إنَّ من الضَّلَال أن يُعزَى انتشار الإسلام السَّريع في أنحاء الدُّنيا إلى أنَّه يُلقى عن كاهل الإنسان ماشقٌّ من التَّكاليف والأعمال الصَّالحة ، وأنَّه يُبيح له البقاء على سيء الأخلاق ، فقد دَوَّن (هوتنجر) قائمة طويلة بالأخلاق الكريمة ، والآداب الحميدة عند المسلمين ، فأرى ، مع القصد في مدح الإسلام ، أن تلك القائمة تحتوي على أقصى ما يمكن أن يؤمَّر به إنسانٌ من التَّحلي بمكارم الأخلاق والابتعاد عن العيوب والآثام » ، يقول :

« وسيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم ، أنَّ القوَّة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النَّصرانيَّة الإسلام وأتخذوا العربيَّة لغةً لهم ، فذلك لما رَأَوْه من عدلِّ العرب الغالبيين ، مما لم يَرَوْا مثله من سادتهم السَّابقين ، ولما كان عليه الإسلام من السُّهولة الَّتِي لم يعرفوها من قبل .

والتَّاريخ أثبت أنَّ الأديان لا تُفرض بالقوَّة ، فلما قهر النَّصارى عربَ الأندلس ، فَضَّل هؤلاء القتلَ والطَّرْدَ عن آخرهم على ترك الإسلام .

ولم ينتشر الإسلام بالسَّيف ، بل انتشر بالدَّعوة وحدها ، وبالدَّعوة وحدها اعتنقت الإسلام الشُّعوبُ الَّتِي قهرت العرب مؤخَّراً كالترك والمغول ، وبلغ من انتشار الإسلام في الهند الَّتِي لم يكن العرب فيها غيَر عابري سبيل ، أن زاد عدد المسلمين فيها على خمسين مليون نفس^(٦) ، ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً فيوماً ،

(٦) الهند آنذاك تضمُّ الباكستان وبنغلادش أيضاً ، وفي الهند وحدها اليوم أكثر من مئة وخمسين مليون مسلم ، ناهيك عن أكثر من ٢٥٠ مليون مسلم في باكستان وبنغلادش .

مع أن الانكليز ، الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر ، يجهّزون البعثات التبشيرية ، ويرسلونها تباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى ، [صفحة ١٦٢] .

- ٦ -

وتعقيباً وشرحاً لنص تجلّت فيه سماحة الإسلام تجاه الأديان الأخرى ، وعدل المسلمين الغالبين ، مما لم يرَ شيئاً له من قبل ، يقرّر (لوبون) في حاشية طويلة التّالي :

« ذكرنا آنفاً أن مساحمة محمد لليهود والنصارى ، كانت عظيمة إلى الغاية ، مما لم يقل بمثله مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على الخصوص ، وسرى كيف سار خلفاؤه على سنته ، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربة المنصفون القليلون ، الذين أنعموا النظر في تاريخ العرب ، والعبارات الآتية التي اقتطفها من كتب الكثيرين منهم ، تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصاً بنا ، قال (روبرتسون) في كتابه : (تاريخ شارلكن)^(٧) : إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم ، وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، فهم مع امتشاقهم الحسام نشرأ لدينهم ، تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينيّة .

وقال (ميشود) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبيّة) : إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، فقد أعفى البطارقة والرهبان ، وخدمهم من الضرائب ، وحرّم محمد قتل الرهبان على الخصوص ، لعكوفهم على العبادات ، ولم يسّر عمر بن الخطّاب النصارى بسوء حين فتح القدس ، فذبح الصليبيون المسلمين .. بلا رحمة وقتاً دخلوها .

(٧) شارلكن (كارل) Charles Quint ، ولد سنة ١٥٠٠ م ، وملك إسبانية : [١٥١٦ - ١٥٥٦ م] ، انزوى في دير يوست ، وتوفي فيه .

وقال الرَّاهِب (مِيشو) في كتابه : (رحلة دينيَّة في الشَّرق) : ومن المؤسِّف
ألا^(٨) تقتبس الشُّعوب النُّصرانيَّة من المسلمين التَّسامح الذي هو آية الإحسان بين
الأمم واحترام عقائد الآخرين ، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوَّة ،
[صفحة ١٦٢] .

- ٧ -

وبعد عرض رفق الفاتحين بالشُّعوب ، وإعطائهم الحرِّيَّة الدينيَّة التَّامة ،
وعدلاً مطلقاً ، واحتراماً للأموال ، وجزية سنويَّة ثابتة بسيطة جداً بدلاً من
ضرائب الرُّوم الباهظة ، أورد (لوبون) مبالغة العرب في الوقوف عند حدِّ تلك
الشُّروط والتَّقيد بها ، بعد أن ذاقَت الشُّعوب الأمرَّين من ظلم عمال قياصرة
القسطنطينيَّة ، فأقبلوا على اعتناق دين المسلمين ولغتهم أيَّما إقبال ، ونتائج مثل
تلك ، لا تنال بالقوَّة ، فلم يظفر بمثلها من مَلِكٍ مصر من الفاتحين قبل العرب ،
ثمَّ يقول :

« وللفتح العربيَّة طابع خاصٌّ لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاؤوا بعد
العرب ، فالبرابرة الذين استولوا على العالم الرُّوماني والتُّرك وغيرهم ، وإن
استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمة ، لم يؤسِّسوا حضارة ، وكانت غاية جهودهم أن
يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التي قهروها ، وعكس ذلك أمر العرب الذين
أنشؤوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ،
وتمكَّنوا من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم ، فضلاً عن حضارتهم
الجديدة .. » ، [صفحة ١٧١] .

(٨) في أصل النُّص : (أن تقتبس) ، وأثبتناها : (ألا تقتبس) ، وإن صحَّ الأصل ، فهو يعني :
أن التَّسامح لم ينبع من ذاتها وأهلها ، إنَّه اقتباس ، ويبقى الفضل للمسلمين في ذلك ، على كلا
الحالين .

- ٨ -

وفي الباب الثالث : (دولة العرب) ، وبعد إيراد رسالة الرّشيد إلى نقفور :
 « بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون الرّشيد أمير المؤمنين إلى نيقفور كلب
 الرّوم ، قد قرأتُ كتابك يا ابن الكافرة ، والجوابُ ماتراه لاماتسمعه » ، يقول
 (لوبون) : رأى (كلبُ الرّوم) الجوابَ ، فقد أرغمه الرّشيد على دفع جزية
 سنويّة ، وبقي سلطانه يثُلّ أقصى ما انتهى إليه سلطان العرب ، ثمّ يقول :
 « فالحقُّ أنّ العرب الشُّجعان الذين لبّوا دعوة محمّد فغدوا أُمّةً واحدة ، أقاموا
 في أقلّ من قرنين دولةً بلغت ما بلغت دولة الرّومان من الاتّساع ، فبدت هذه
 الدّولة أكثر دول الأرض هيبة وتمدّناً » ، [صفحة ٢٢٠] .

- ٩ -

لقد استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) فخرّبوها ، وخنقوا
 الخليفة العبّاسي الأخير المستعصم بالله بأمر رئيس الغالبين هولوكو ، ونهبوا
 بغداد ، وأحرقوا كتبها التي جمعها محبّو العلم ، وألقوها إلى نهر دجلة ، فتألّف منها
 جسر كان يميّن الناس أن يَمُرّوا عليه ، رجالاً وركباناً ، وأصبح ماءؤه أسود من
 مدادها ، كما روى قطب الدّين الحنفي^(٩) ، أولئك الوحوش الضّارية صهرتهم
 حضارة العرب في نهاية الأمر :

« في المدرسة العربيّة تمذّن المغول ، فاعتنقوا دين العرب وحضارتهم ، وشملوا
 متفنّني العرب وعلمائهم برعايتهم ، وأقاموا في بلاد الهند دولة قويّة عربيّة

(٩) قطب الدّين الحنفي : محمّد بن أحمد بن محمّد بن قاضي خان محمود النّهروالي : [ت ٩٨٨ هـ =
 ١٥٨٠ م] ، مؤرّخ من أهل مكّة ، تعلّم بمصر ، ونصّب مفتياً بمكّة ، من كتبه : الإعلام بأعلام
 بلد الله الحرام ، و : البرق الجاني في الفتح العثماني ، ومنتخب التّاريخ ... [الأعلام ٧/١] .

المناحي ، فأحلّوا بذلك حضارة العرب محلّ حضارة الهند القديمة ، فترى سلطان حضارة العرب بادياً في الهند حتّى اليوم » ، [صفحة ٢٢٣] .

- ١٠ -

وبعد فتح مصر تجلّت سماحة الفاتحين ورحمتهم ، وقام عمرو بن العاص بما يكسب به قلوبهم ، فأجابهم إلى مطالبهم ، فأصلح أسدأدهم وترعّهم ، وأنفق الأموال الطائلة على شؤونهم العامة ، ثمّ ينفي التهمة الّتي وجهها المستشرقون المتعصّبون إلى الفاتحين العرب المسلمين ، والّتي قالت : إن العرب أحرّقوا مكتبة الإسكندريّة بعد فتحها ، يقول (لوبون) نافياً مفنداً :

« وأما حرق مكتبة الإسكندريّة فن الأفعال الهمجيّة الّتي تابها عادات العرب ، فتجعل المرء يسأل : كيف جازت هذه القصّة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً ، وهذه القصّة دُحضت في زماننا . فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها ، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلّة الواضحة أنّ النصارى هم الّذين حرّقوا كتب المشركين في الإسكندريّة قبل الفتح العربي بعناية ، كالّتي هدموا بها التماثيل ، فلم يبق منها ما يحرّق » ، [صفحة ٢٦٤] .

ويقارن (لوبون) ، وتتجلّى حقائق التّاريخ قباله ناظريه ، دون تشويه أو ضبايئة ، فيقول : يشهد تاريخ الرّومان أنّهم هم الّذين أحرّقوا كتب مكتبة الإسكندريّة :

« فلما أصبحت النّصرانيّة دين الدّولة الرّسمي ، أمر القيصر النّصرواني ثيودوز^(١٠) ، لا الخليفة عمر بن الخطّاب ، بإبادة معابدها وتماثيلها وكتبها الوثنيّة كما ذكرنا ذلك آنفاً » ، [صفحة ٢٦٥] .

(١٠) ثيودوسيوس الثّاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م) ، مال إلى رأي نسطور الّذي ينكر ألوهيّة السيّد المسيح ، فدعا إلى عقد مجمع افسس الأوّل سنة ٤٣١ م ، يقول ابن البطريق : « تكاثرت النّسطوريّة في المشرق والعراق والموصل والفرات والجزيرة » ، [انظر : محاضرات في النّصرانيّة لمحمد أبو زهرة ، صفحة ١٢٥ ، الطّبعة الثّالثة ، ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م] .

ويتابع (لوبون) في رسمه الصورة الصحيحة بشأن رقي حضارة العرب ،
التي امتازت في الأندلس ، ببيل العرب الشديد إلى الفنون والآداب والعلوم ،
فأنشؤوا في كل ناحية المدارس والمكتبات والمختبرات ، في الوقت الذي تفتشت فيه
الأمية في أوربة ، حيث كانت الكتب نادرة ، حتى كتبهم المقدس لا يوجد
خارج الأديرة ، لقد اقتنى الحكم^(١١) في قرطبة مكتبة فيها أربع مئة ألف مجلد ، ثم
يتحسر (لوبون) على فعلة (أكزيمينيس) :

« ظنَّ رئيس الأساقفة الإسباني أكزيمينيس أنه بحرقه مؤخراً ما قدر على
جمعه من كتب أعداء دينه العرب (أي ثمانين ألف كتاب) محاً ذكرهم من
صفحات التاريخ إلى الأبد ، فما دَرَى أن مآثره العرب من الآثار التي تملأ بلاد
إسبانية يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد » ، [صفحة ٣٣٩] .

- ١١ -

وبعد أن يسخر (لوبون) من المؤرخين الذين يحسمون قيمة انتصار شارل
مارتل على المسلمين في بواتيه^(١٢) (بلاط الشهداء) ، حيث تقرّر مصير العالم في
تلك المعركة ، فلو غلب الفرنج ، لكانت الأرض قبضة محمد ، يقول :

« ولكن لنفرض جَدلاً أن النصارى عجزوا عن دحر العرب ، وأن العرب
وجدوا جَوْ شمال فرنسة غير بارد ، ولا ماطر كجَوْ إسبانية ، فطابت لهم الإقامة
الدائمة به ، فإذا كان يصيب أوربة ؟ كان يصيب أوربة النصرانية المتبربرة مثل

(١١) الحكم الثاني (المستنصر) : [٣٠٢ - ٣٦٦ = ١٩١٤ - ٩٧٦ م] ، ولد وتوفي في قرطبة ، شجع العلوم والآداب ، فعدت قرطبة في عهده مركزاً ثقافياً وحضارياً .

(١٢) بلاط الشهداء ، تور ، بواتيه : أصبح الأتوال أن موقعها على مقربة من طريق روماني يصل
شاتلرو ببواتيه ، على مسافة نحو عشرين كيلو متراً من بواتيه ، في الموضع الذي يسمى اليوم
Moussais-la Bataille ، وتاريخها تشرين الأول (أكتوبر) سنة ٧٣٢ م ، أوائل شهر رمضان
سنة ١١٤ هـ ، وقائدها : عبد الرحمن الغافقي .

ما أصاب إسبانية من التَّقدُّم والارتقاء ، والحضارة الزَّاهرة الرَّفِيعَة تحت راية النَّبيِّ العربيِّ ، وكان لا يحدث في أوربة ألَّتِي تكون قد هُذِّبَتْ ما حَدَّثَ فيها من الكبائر ، كالحرب الدِّينِيَّة ، وملحمة سان بارتلمي^(١٣) ومظالم محاكم التَّفتيش^(١٤) ، وكلِّ ما لم يَعْرِفْهُ المسلمون من الوقائع ألَّتِي ضَرَّجَتْ أوربة بالدماء عِدَّة قرون .

ويجب أن يكون المرء جاهلاً تاريخ حضارة العرب جهلاً مطبقاً ليوافق على مازعه ذلك المؤرِّخ العالم (هنري مارتن) في كتابه عن تاريخ فرنسة الشَّعبي من

(١٣) (سان بارتلمي) : ملحمة أمر بها سنة ١٥٧٢ م شارلُ التَّاسع وكاترينا دو ميديسيس ، عندما قتلت كاترينا خمسة من زعماء البروتستانت في باريس ظنَّت أنَّهم يأترون بها وبالمملك ، ولم يكد ينتشر الخبر في باريس حتَّى شاع أنَّه شُرِعَ في قتل الخوارج ، فانقضَّ أشرف الكاثوليك والحرس المملوكي والنُّبالَة والجمهور على البروتستانت ، وقتلوا منهم ألفي نسمة . وقد قُتِلَ سكان الولايات الفرنسيَّة بعامل العدوى أهل باريس ، فسفكوا دماء ستَّة إلى ثمانية آلاف نسمة ، ولم ينل حادثة السَّان بارتلمي أيَّام وقوعها شيء من الانتقاد في أوربة الكاثوليكيَّة ، وقد أوجبت حماساً يفوق الوصف ، فكاد فيليب الثَّاني يصبح مجنوناً لشِدَّة فرجه عندما بلغه وقوعها ، وانهالت التَّهاني على ملك فرنسة أكثر من انهبأها عليه لولنا نصراً عظيماً في ساحة الوغى . ومابدا السُّرور على أحد كما بدا على البابا غريغوار الثَّالث عشر ، فقد أمر بضرب أوسمة خاصَّة تخليداً لذكراها ، رسمت على هذه الأوسمة صورة غريغوار الثَّالث عشر ، وبجانبه ملك يضرب بالسَّيف أعناق الخوارج ، ثمَّ هذه الكلمة : « قُتِلَ الخوارج » ، كما أمر بإيقاد نيران الفرح ، وبضرب المدافع ، وبتكليف الرِّسَّام فازاري أن يصوِّر على جدران الفاتيكان مناظرها ، [انظر : روح الثُّورات ، غوستاف لوبون ، صفحة ٤٤] .

(١٤) انظر : (محاكم التَّفتيش) د . علي مظهر ، مطبعة أنصار السُّنة المحمَّديَّة ، ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م . ومظالم هذه المحاكم عَمَّت أوربة ، وإسبانية خاصَّة ، حيث شكَّلت بمرسوم بابوي في تشرين الثَّاني (نوفمبر) سنة ١٤٧٨ م ، ومن أنواع التَّعذيب الَّذِي اتَّبَعَتْهُ هذه المحاكم ، الدَّقْن على قيد الحياة ، وعندما احتل نابليون إسبانية ، أصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ م بإلغاء محاكم التَّفتيش فيها ، ولكن رهبان (الجرويت) أصحاب المحاكم المُلغاة استمروا في القتل والتَّعذيب ، فشمَل ذلك الجنود الفرنسيِّين .

وانظر أيضاً : (التَّعصُّب والتَّسامح بين المسيحيَّة والإسلام) ل محمد الغزالي ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م ، صفحة ٣١٦ وما بعدها .

أَنَّ النَّشَاطَ الَّذِي يَحْفَظُ النَّاسَ إِلَى التَّقَدُّمِ لَيْسَ مِمَّا تَجِدُهُ فِي عِبْقَرِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، فَمَزَاجُ
مِثْلِ تِلْكَ ، لَيْسَتْ مِمَّا يَقِفُ أَمَامَ سُلْطَانِ النِّقْدِ عِنْدَمَا يُعْلَمُ أَنَّ التَّمَدُّنَ اللَّامِعَ حُلًّا
بِالْبِلَادِ الَّتِي خَضَعَتْ لِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ مَحَلِّ الْهِمَجِيَّةِ ، وَأَنَّ النَّشَاطَ الَّذِي يَحْفَظُ
الْإِنْسَانَ إِلَى التَّقَدُّمِ ، لَمْ يَكُنْ قَوِيًّا فِي أُمَّةٍ مِثْلَ قُوَّتِهِ فِي الْعَرَبِ » ، [صَفْحَةُ ٣٨٩] .

وَيَقَرَّرُ (لُوبُون) وَيَجْزِمُ أَنَّ الْعَرَبَ ذُووُ أَثَرٍ بَالِغٍ فِي تَمْدِينِ الْأَقْطَارِ الَّتِي
خَضَعَتْ لِسُلْطَانِهِمْ :

« وَإِنْ كُلُّ بَلَدٍ خَفَقَتْ فَوْقَهُ رَايَةُ الرَّسُولِ تَحَوَّلَ بِسُرْعَةٍ ، فَازْدَهَرَتْ فِيهِ
الْعُلُومُ وَالْفُنُونُ وَالْآدَابُ وَالصَّنَاعَةُ وَالزَّرَاعَةُ أَيُّهَا ازْدَهَارُ » ، [صَفْحَةُ ٣٩١] .

- ١٢ -

وَيَصِفُ (لُوبُون) اسْتِيلَاءَ الصَّلِيبِيِّينَ عَلَى الْقُدْسِ سَنَةَ ١٠٩٩ م مَتَأَلِّمًا مِنْ
وَحْشِيَةِ مَاجِرَى ، وَمَتَحَسِّرًا عَلَى أَخْلَاقِ قَوْمِهِ وَسُلُوكِهِمْ ، فَالْهُوَّةُ عَمِيقَةٌ بَيْنَ تَفْكِيرِ
الرَّجُلِ الْمَتَدِّنِ وَسُلُوكِهِ وَعَوَاطِفِهِ ، وَتَفْكِيرِ الرَّجُلِ الْمُتَوَحَّشِ وَسُلُوكِهِ وَنِزَوَاتِهِ .

ثُمَّ يُورِدُ قَوْلَ الْمُؤَرِّخِ الرَّاهِبِ التَّقِيِّ (رُوبَرْت) : « كَانَ قَوْمُنَا يَجُوبُونَ ،
كَالْلِبَّوَاتِ الَّتِي خُطِفَتْ صَغَارُهَا ، الشُّوَارِعَ وَالْمِيَادِينَ ، وَسَطُوحَ الْبُيُوتِ لِيَتَرَوْا
غَلِيلَهُمْ مِنَ التَّقْتِيلِ ، فَكَانُوا يَذْبَحُونَ الْأَوْلَادَ وَالشَّبَّانَ وَالشُّيُوخَ ، وَيَقْطَعُونَهُمْ إِرْبًا
إِرْبًا ، وَكَانُوا لَا يَسْتَبْقُونَ إِنْسَانًا ، وَكَانُوا يَشْنَقُونَ أَنْاسًا كَثِيرِينَ بِحَبْلِ وَاحِدٍ بُغْيَةً
السَّرْعَةِ ، فَيَاللَّعَجَبِ ، وَيَا لِلْغَرَابَةِ أَنْ تُذْبِحَ تِلْكَ الْجَمَاعَةُ الْكَبِيرَةُ الْمُسَلَّحَةُ بِأَمْضَى
سِلَاحٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَقَاوِمَ !

وَكَانَ قَوْمُنَا يَقْبِضُونَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَجِدُونَهُ ، فَيَبْتِغُونَ بِطُونِ الْمَوْتِ لِيُخْرِجُوا
مِنْهَا قِطْعًا ذَهَبِيَّةً ، فَيَاللَّشَّرَ وَحُبَّ الذَّهَبِ ! وَكَانَتْ الدِّمَاءُ تَسِيلُ كَالْأَنْهَارِ فِي
طُرُقِ الْمَدِينَةِ الْمَغْطَاةِ بِالْجُنُثِ ، فَيَالْتِلْكَ الشُّعُوبَ الْعُمِّيَّةَ الْمُعَدَّةَ لِلْقَتْلِ ! وَلَمْ يَكُنْ

بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية ديناً ، ثم أحضر بوهيموند^(١٥) جميع الذين اعتقلهم في برج القصر ، فأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم ، وبسوق فتيانهم وكهولهم إلى أنطاكية لكي يباعوا فيها » ، [صفحة ٤٠٠] .

ويعقب (لوبون) : « وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى وقتما دخلها منذ بضعة قرون » ، ثم يورد قول كاهن لوبري (ريموند داجيل) : « حدث ما هو عجيب بين العرب (!) عندما استولى قومننا على أسوار القدس وبروجها ، فقد قُطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم (!) وبُقرت بطون بعضهم فكانوا يُضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار ، وحرق بعضهم في النار ، فكان ذلك بعد عذاب طويل ، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم ، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض مانالوه » ، [صفحة ٤٠١] .

ويتابع (لوبون) تعليقه على صورة جثث القتلى ، التي تعوم في الساحات هنا وهناك قائلاً : « لم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك ، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين .. الذين كان عددهم ستين ألفاً ، فأفنؤهم على بكرّة أبيهم في ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً .

وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذييح أهالي القدس قاطبة ، فانهمكوا في كل ما يستقذره الإنسان من ضروب السكر والعريضة ، فاغتاظ

(١٥) بوهيموند النورماني : Bohemond ، أكبر أبناء روبرت جويسكارد ، وأحد قواد الحملة الصليبية الأولى ، أقام للنورمان إمارة في أنطاكية .

مؤرّخو النصارى أنفسهم من سلوك حماة النصرانيّة الشّائن . مع اتّصاف أولئك المؤرّخين بروح الإغضاء والتّساهل ، فنعتهم برنارد الخازن بالسّعريّ المجانين ، وشبّههم بودان ، الّذي كان رئيس أساقفة دُول ، بالفُروس الّتي تتمرّغ في الأقدار»^(١٦) ، [صفحة ٤٠٣] .

- ١٣ -

وفي معرض حديثه عن المجتمع العربي ، يقول (لوبون) :
« وإليك مقالته الفيكونت فوغيه ، عندما تكلم عن تزاور أفقر طبقات العرب : لا يسعني سوى الإعجاب بما يسود اجتماعات أولئك القرويين الفقراء من الوَقَار والأدب ، فما أعظم الفرق بين اتّزان أقوالهم ، وتُبل أوضاعهم ، ولعَط بني قومنا ووقاحتهم » ، [صفحة ٤٣٩] .

- ١٤ -

وبعد حديث (لوبون) عن نظام القضاء والمرافعات عن المسلمين ، الّذي كان بسيطاً للغاية ، والّذي لا يضيع وقت المتقاضين الثّمين ، ولا تثقلهم بالنّفقات القضائيّة ، وتكون الأحكام عادلة على العموم ، فروح العدل والإنصاف نامية كثيراً في العرب ، فالعدل أساس الحياة في تلك المجتمعات الّتي لا تزال على الفطرة ، ويختم بقوله :

« نختم قولنا في نظم العرب الاجتماعيّة بأن نذكر أن العرب يتّصفون بروح المساواة المطلقة ، وفقاً لنظمهم السّياسيّة ، فبدأ المساواة الّذي أعلن في أوربة قولاً ، لأفعلاً ، راسخ في طبائع الشّرق رسوخاً تامّاً ، فلا عهد للمسلمين بتلك

(١٦) انظر : (الحركة الصّليبيّة : صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى) ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور .

الطبقات الاجتماعية التي أدّى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب ، ولا يزال يؤدّي ، وليس من الصعب أن ترى في الشرق خادماً زوجاً لابنة سيّده ، وأن ترى أجراً منهم ، قد أصبحوا من الأعيان » ، [صفحة ٤٧٦] .

- ١٥ -

وبعد أن يذكر (لوبون) أن مبدأ تعدّد الزوجات ليس خاصاً بالإسلام ، فقد عرفته أمم الشرق قبل الإسلام^(١٧) ، لذلك لم ترفيه هذه الأمم غنماً جديداً ، ويذكر (لوبون) أيضاً الغرب ، الذي لم يكن مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة في غير القوانين ، لافي الطبائع حيث يندّر ، ثم يقول :

« ولا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدّد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدّد الزوجات السري عند الأوربيين ، مع أنني أبصر بالعكس ما يجعله أسنى منه ، وهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة ، من احتجاجنا عليهم ، ونظرهم إلى هذا الاحتجاج شزراً^(١٨) ، [صفحة ٤٨٣] .

- ١٦ -

وفي صدد حديثه عن : (تأثير الإسلام في أحوال النساء في الشرق) ، حيث كان لهنّ من الشأن ما اتفق لأخواتهنّ حديثاً في أوربة ، وذلك حين انتشار فروسية عرب الأندلس وظرفهم ، يقول (لوبون) :

(١٧) إنّه مقرر في التوراة ، لقد كان عند داود مئة زوجة ، وعند سليمان ألف ؟! وعرف تعدّد الزوجات عند الفرس وعرب الجاهلية أيضاً .

(١٨) يقول لوبون ، صفحة ٤٩٦ : « إنّ الحيانة الزوجية في الأمم القائلة بالاقتصار على زوجة واحدة تزيد باطراد ، فقد دلت الإحصاءات الرسمية التي نُشِرت حديثاً على أن عدد قضايا الزنا في فرنسا في سنة ١٨٨٠ م ، أصبح تسعة أمثال ما كان عليه في سنة ١٨٣٦ م » ، فبالنا ونحن في العقد الأخير من القرن العشرين ؟!

« إِنَّ الأوربيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسيّة ، وما اقتضته من احترام المرأة ، فالإسلام ، إذن ، لا النصرانيّة ، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه ، وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع ، فإذا نظرتَ إلى أمراء النصارى الإقطاعيين في القرون الوسطى ، رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الحرمة للنساء ... » ، [صفحة ٤٨٨] .

« ومن الأدلّة على أهميّة النساء أيّام نضارة حضارة العرب ، كثرة من اشتهر منهن بمعارفهن العلميّة والأدبيّة ، فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن في العصر العبّاسي في الشّرق ، والعصر الأموي في إسبانية .. » ، [صفحة ٤٨٩] .

ويلاحظ (لوبون) أن الحضارة العربيّة السّاطعة خبت في عهد واثري العرب ، ولا سيما في عهد التّرك ، فنقص شأن النساء كثيراً :

« وما تقدّم يثبت أن نقصان شأنهنّ حدث خلافاً للقرآن ، لاسبب القرآن على كلّ حال ، لم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة ، بل نُضيف إلى هذا ، أنّه أوّل دين فعل ذلك ، ويسهل إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان ، والأُمم التي جاءت قبل العرب ، أساءت إلى المرأة ، وهذا ما أوضحناه في كتابنا الأخير ، فلا نرى غير تكرار ما ذكرناه فيه لإقناع القارئ »^(١٩) ، [صفحة ٤٩٠] .

(١٩) من الأمثلة : كان الإغريق على العموم يَعدّون النساء من المخلوقات المنحطّة التي لا تنفع لغير دوام النّسل وتبدير المنزل ، وكانت المرأة الولود تؤخذ من زوجها بطريق العارية لتلد للوطن أولاداً من رجل آخر ، ولم ينل في دور ازدهار الحضارة اليونانيّة الحظوة من نساء الإغريق سوى بنات الهوى .

وجاء في شرائع الهندوس : ليس المصير المقدّر والرّيح والموت والجحيم والسّم والأفاعي والنّار أسوأ من المرأة .

وفي التّوراة : « المرأة أمرٌ من الموت » وأن « الصالح أمام الله ينجو منها ... » ، [حضارة العرب] . [٤٩٣/٤٩٢] .

ويختتم فقرة (الحريم في الشرق) قائلاً : كلمة الحريم لفظ يدلُّ عند العرب على كلِّ ما هو مقدَّس ، وينسج الأوربيُّون على العموم ، أفسد الآراء حول دوائر الحريم في الشرق ، ثمَّ يقول (لوبون) :

« إنَّ الإسلام حسنُ حال المرأة كثيراً ، وأنَّه أوَّل دين رفع شأنها ، وأن المرأة في الشرق أكثر احتراماً وثقافة وسعادةً منها في أوربة على العموم »^(٢٠) ، [صفحة ٥٠٣] .

- ١٧ -

ومع بداية فصل (الدِّين والأخلاق) ، جعل (لوبون) الفقرة الأولى تحت عنوان : (تأثير الدِّين في المسلمين) :

« تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أيِّ دين آخر ، فلا تزال العروق^(٢١) المختلفة التي اتَّخذت القرآن مرشداً لها ، تعمل بأحكامه ، كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً .. » ، [صفحة ٥٠٤] .

- ١٨ -

لقد أخذ العرب المسلمون من معارف اليونان ، شأنهم في ذلك شأن الطلاب

(٢٠) وهذا ما أكَّدته القاضية السُّويديَّة (بريجيديا أولف هامر) التي كلَّفت من قبل الأمم المتحدة بدراسة أحوال المرأة العربيَّة ، مقارنةً بالمرأة الغربيَّة ، بمناسبة عام المرأة الدُّولي ١٩٧٥ م ، لقد درست (بريجيديا) المرأة في الشرق ، من أعماق المرأة الصَّعديَّة في (أي طشت) في صعيد مصر ، إلى أعماق المرأة التُّونسيَّة في (سيدي تراز) في تونس ، إلى عمق أعماق المرأة اللَّيبيَّة في مصراته ، إلى عمق أعماق المرأة العراقيَّة في السُّليانيَّة ، ثمَّ قدَّمت دراستها التي قالت فيها : المرأة الشرقيَّة في قطاعات كثيرة وبارزة من البلاد العربيَّة التي زارتها أكثر حرِّيَّة من المرأة السُّويديَّة ، المرأة المسلمة تمارس وضعا ينتمي إلى القداسة لا إلى العبوديَّة .

(٢١) يستخدم كلمة عِرْق بمعنى النُّوع ، جاء في صفحة ٧٨ : « ويمكن تعريف العِرْق ، أو النُّوع البشري ، بأنَّه يَدُلُّ على جماعات ذات أخلاق مشتركة تنتقل إليها بالوراثة المنتظمة » .

غوستاف لوبون (٣)

الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ فِي الْمَدْرَسَةِ مَا وَرَثَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ عُلُومِ الْأَوَّلِينَ ، وَلَكِنْ الْعَرَبُ الْمَفْطُورِينَ عَلَى قُوَّةِ الْإِبْدَاعِ وَالنَّشَاطِ ، لَمْ يَكْتَفُوا بِحَالِ الطَّلَبِ الَّذِي اكْتَفَتْ بِهِ أُورْبَةُ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى ، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ تَحَرَّرُوا مِنْ ذَلِكَ الدَّورِ الْأَوَّلِ ، وَيَقُولُ (لُوبُون) بَعْدَ هَذَا :

« وَالْإِنْسَانُ يَقْضِي الْعَجَبَ مِنَ الْهِمَّةِ الَّتِي أَقْدَمَ بِهَا الْعَرَبُ عَلَى الْبَحْثِ ، فَإِذَا كَانَتْ هُنَالِكَ أُمَمٌ قَدْ تَسَاوَتْ هِيَ وَالْعَرَبُ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ أُمَّةً فَاقَتْ الْعَرَبَ عَلَى مَا يَحْتَمِلُ .. » ، [صَفْحَةُ ٥٢٦] .

- ١٩ -

لَقَدْ كَانَ مِنْهَا الْعَرَبُ الْعِلْمِي قَائِمًا عَلَى التَّجَرُّبَةِ وَالتَّرْصُدِ وَالْمُرَاقَبَةِ ، وَمِنْهَا الْعَرَبُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ ، كَانَ دَرَسُ الْكُتُبِ ، وَالْاِقْتِصَارُ عَلَى تَكَرُّرِ رَأْيِ الْمُعَلِّمِ ، وَهَذَا مَا سَارَتْ عَلَيْهِ أُورْبَةُ طَوَالَ الْقُرُونِ الْوَسْطَى ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ النَّهْجَيْنِ أَسَاسِي ، وَلَا يُمْكِنُ تَقْدِيرُ قِيَمَةِ الْعَرَبِ الْعِلْمِيَّةِ إِلَّا بِتَحْقِيقِ هَذَا الْفَرْقِ :

« إِذَنْ ، اخْتَبَرَ الْعَرَبُ الْأُمُورَ وَجَرَّبُوهَا ، فَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ أَدْرَكَ أَهْمِيَّةَ هَذَا الْمَنْهَجِ فِي الْعَالَمِ ، فَظَلُّوا عَامِلِينَ وَحْدَهُمْ زَمَنًا طَوِيلًا ، قَالَ (دُولَانْبِر) فِي كِتَابِ : (تَارِيخِ عِلْمِ الْفَلَكَ) : إِذَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْدَّ بَيْنَ الْإِغْرِيْقِ رَاصِدَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةَ ، رَأَيْتَ بَيْنَ الْعَرَبِ عِدَدًا كَبِيرًا مِنَ الرُّصَادِ ، وَأَمَّا فِي الْكِيمْيَاءِ ، فَلَا تَجِدُ مَجْرِبًا يُونَانِيًّا ، مَعَ أَنَّ الْمَجْرِبِينَ مِنَ الْعَرَبِ فِيهَا يُعَدُّونَ بِأَلْفَاتٍ » ، [صَفْحَةُ ٥٢٩] .

« وَنَشَأَ عَنْ مِنْهَا الْعَرَبِ التَّجْرِبِيُّ وَصُولُهُمْ إِلَى اكْتِشَافَاتٍ مَهْمَّةٍ ، فَسَتَرَى مِنْ مَبَاحِثِنَا فِي أَعْمَالِ الْعَرَبِ الْعِلْمِيَّةِ ، أَنََّّهُمْ بِالْحَقِيقَةِ أَنْجَزُوا فِي ثَلَاثَةِ قُرُونٍ ، أَوْ أَرْبَعَةِ قُرُونٍ ، مِنْ الْاِكْتِشَافَاتِ مَا يَزِيدُ عَلَى مَا حَقَّقَهُ الْإِغْرِيْقُ فِي زَمَنِ أَطْوَلَ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرًا ، وَكَانَ تَرَاثُ الْإِغْرِيْقِ الْعِلْمِيُّ قَدْ انْتَقَلَ إِلَى الْبِيزَنْطِيِّينَ ، فَلَمْ

يستفيدوا منه منذ زمن طويل ، فلما آل إلى العرب حَوَلوه إلى غير ما كان عليه ،
فَتَلَقَّاهُ ورثتهم مخلوقاً خَلْقاً آخر .

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، فالعرب قد نشروها ،
كذلك ، بما أقاموه من الجامعات ، وما أَلَّفوه من الكتب ، فكان لهم الأثر البالغ
في أوربة من هذه الناحية ، وسترى في الفصل الذي ندرس فيه هذا التأثير أن
العرب وحدهم كانوا أساتذة الأمم النصرانية عدّة قرون ، وأننا لم نَطْلُع على علوم
قدماء اليونان والرومان إلا بفضل العرب ، وأنّ التعلّم في جامعاتنا لم يَسْتَعِنْ عَمَّا
نُقِلَ إلى لغاتنا من مؤلّفات العرب إلاّ في الأزمنة الحاضرة » ، [صفحة ٥٢٩] .

- ٢٠ -

وكان حُبُّ العرب للعلوم من القوّة بحيث لم تمنعهم الحروب والفتن الأهليّة ،
وغارات الأجنبي ، من الاهتمام بها ، فأثّر العرب بسعة معارفهم تأثيراً كبيراً في
قاهريهم ، الذين لم يلبثوا أن اتّخذوهم حماة لهم :

« ولا شيء يُورِث العجب أكثر من حضارة العرب على همجيّة جميع الغزاة ،
ومن تخرّج هؤلاء الغزاة ، من فورهم ، على مدرسة العرب المغلوبين ، فقد دام عمل
العرب في حقل الحضارة إلى ما بعد زوال سلطانهم السياسي .. » ، [٥٥٤] .

- ٢١ -

ولقد وصل العرب إلى اكتشافات مهمّة في علم الكيمياء ، على الرّغم أنّها بدأت
مشوبة بالسّيّاء^(٢٢) :

(٢٢) السّيّاء : « الصّنعَة » ، أي تحويل المعادن الخسيسة مثل النّحاس والحديد ، إلى معادن ثمينة هي
الذهب والفضّة ، وقال العالم الكبير عبد اللّطيف البغدادي : إنّها باطلّة ، وقال عن تجاربها :
إنّها تجارب الضّلال الفارغة .

« إِنَّ المعارف الَّتِي انتقلت من اليونان إلى العرب في الكيمياء ضعيفة ، فلم يكن لليونان علم بما اكتشفه العرب من المركبات المهمة ، كالكحول ، وزيت الزَّاج (الحامض الكبريتي) ، وماء الفضة (الحامض النتري) ، وماء الذهب وما إلى ذلك ، كما أن العرب اكتشفوا أهمُّ أسس الكيمياء ، كالتقطير .

قال بعض المؤلفين : إِنَّ لافوازيه هو واضع علم الكيمياء ، فنسوا أننا لاعهد لنا بعلم من العلوم ، ومنها علم الكيمياء ، صار ابتداءه دفعة واحدة ، وأنه كان عند العرب من المختبرات ما وصلوا به إلى اكتشافاتٍ لولاها ما استطاع لافوازيه أن ينتهي إلى اكتشافاته » ، [صفحة ٥٧٣] .

- ٢٢ -

ويشرح (لوبون) علم الصحة عند العرب ، الَّذِينَ لم يجهلوا في حياتهم أهْمِيَّة حفظ الصِّحة ، مع الوقاية من الأمراض قبل الوقوع فيها ، ثُمَّ يقول :
« وليس فيما نُسِبَ إلى النَّبِيِّ من الوصايا الصَّحِيَّة ^(٢٣) ما يُنْتَقَد » ، [صفحة ٥٩٢] .

- ٢٣ -

وفي فصل : (فنّ عمارة العرب) ، وهو فصل غنيٌّ بالصُّور ، تحدّث (لوبون) عن المتدليّات (المقرنصات) ^(٢٤) ، الَّتِي امتاز به الفنُّ العربي ، والنقوش العربيّة ، ودقائق الزُّخْرَف ، والخطُّ العربي الكوفي ومشتقاته ، وختم : (مباني بلاد الأندلس) : جامع قرطبة ، قصر إشبيلية ، قصر الحمراء في غرناطة ... ثُمَّ يقول :

(٢٣) جمعت وصاياه ﷺ في كتاب ابن قيم الجوزيّة : « الطّب النبوي » .

(٢٤) القرانيص خرز في أعلى الخف ، ويقال : قرَنْصَت البازي إذا ربطته ليسقط ريشه ، فهو مَقْرَنَص ، [اللسان : قرنص] .

« وبلغ خِصْبُ الفنِّ العربيِّ الأندلسيِّ غايته في قصر الحمراء الَّذي أنشئ في القرن الثالث عشر من الميلاد ، وعلى ما فيه من غُلُوٍّ في الزُّخرف ، ترى هذا الغُلُوَّ وليد ذوق رفيع ، لا يتجلَّى في آثار دور مُنحط . » [صفحة ٦٥٠] .

- ٢٤ -

وما عجز الإغريق والفُرس والرُّومان عنه في الشَّرق ، قدر عليه العرب بسرعة ، ومن غير إكراه ، لقد وُفِّق العرب في كلِّ بلد خفقت فوقه رايتهم ، كإفريقية ، وسورية ، والرَّافدين ، وفارس ... وبلغ نفوذهم بلاد الصِّين ، وجنوب شرقي آسية ، الَّتِي لم يزوروها إلَّا تَجَّاراً ، يقول (لوبون) :

« ولا نرى في التَّاريخ أُمَّة ذاتَ تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم الَّتِي اتَّصل العرب بهم ، اعتنقت حضارتهم ولو حيناً من الزَّمن ، فلما غاب العرب عن مسرح التَّاريخ ، انتحل قاهروهم ، كالتُّرك والمغول إلخ ، تقاليدهم ، وبَدَّوْا للعالم ناشرين لنفوذهم ، أجل ، لقد ماتت حضارة العرب منذ قرون^(٢٥) ، ولكن العالم لا يعرف اليوم في البلاد الممتدَّة من المحيط الأطلسي إلى السُّند ، ومن البحر المتوسط إلى الصَّحراء ، غير دين أتباع النَّبيِّ ولغتهم » ، [صفحة ٦٧٢] .

- ٢٥ -

ويقول (لوبون) منصفاً مَقَرّاً :

« إن أُرْبَة مدينة للعرب بحضارتها » ، [صفحة ٦٧٥] .

ولا يمكن إدراك أهميَّة شأن العرب في الغرب إلَّا بتصوُّر حال أُرْبَة ، حينما أدخل العرب الحضارة إليها :

(٢٥) الحضارات لا تموت ، بل تنتقل ، وهي متواصلة العطاء ، إنَّها بساط نسجته وتسجته أيدي أمم كثيرة ، يقول المرحوم مالك بن نبي : « الحضارة تسير كما تسير الشَّمس ، فكأنَّها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشَّعب ، ثمَّ متحوِّلة إلى أفق شعب آخر » .

- ٢٧ -

« فإذا رجعنا إلى القرن التاسع ، والقرن العاشر من الميلاد ، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانية ، ساطعة جداً ، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون ، يفخرون بأنهم لا يقرؤون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون ، الذين كانوا يقضون أوقاتهم في أديارهم ، ليكشطوا^(٢٦) بخشوع كتب الأقدمين النفيسة ، فيكون عندهم من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة » ، [صفحة ٦٧٥] .

« وظلّت همجية أوربة طويلاً زمنٍ عظيمة جداً من غير أن تشعر بها ، ولم يبدُ فيها بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر ، وفي القرن الثاني عشر من الميلاد على الخصوص ، فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم ، ولّوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم » ، [صفحة ٦٧٦] .

- ٢٦ -

وبعد ذكر القنوات التي عبرت من خلالها الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربة : (الأندلس ، صقلية ، إيطاليا) ، يقول (لوبون) : فالحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد ﷺ ، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها :

« فإذا كانت هنالك أمة تُقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم ، فالعرب هم تلك الأمة ، لارهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم

(٢٦) كشط الغطاء عن الشيء ، وألجلد عن الجزور ، وأجلّ عن ظهر الفرس يكشطه ، كشطاً : قلعه ونزعه وكشط عنه ، وإذا السماء كُشِطَتْ : نزعَت فطويت ، [اللسان : كشط] ، ولعلّ المعنى المراد هنا : النسخ .

اليونان ، فعلى العالم أن يعترف للعرب بمجمل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً ، قال مسيو ليبري : لولم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربة في الآداب^(٢٧) عدّة قرون » ، [صفحة ٦٧٧] .

فلم يكن في العالم ، في القرن العاشر من الميلاد ، بلاد يمكن الدّرس فيها غير الأندلس العربيّة ، وذلك خلا الشّرق الإسلاميّ طبعاً :

« إلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النّصارى القليلون ، لطلب العلوم في الحقيقة ، ونذكر منهم ، على حسب بعض الرّوايات التي هي موضوع جدال من غير أن يثبت عدم صحتها^(٢٨) ، جربت أنّي صار بابا في سنة ٩٩٩ م باسم سلفستر الثاني ، فلما أراد هذا البابا أن ينشر في أوربة ماتعلّمه عدّ النّاس ذلك من الخوارق ، فاتّهموه بأنّه باع روحه من الشّيطان .

ولم يظهر في أوربة قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالمٌ لم يقتصر على استنساخ ما في كتب العرب ، فعلى كتب العرب وحدها عوّل روجريكن ، وليونارد البيزي ، وأرنود الفيلنوفي ، وريمون لول ، وسان توما^(٢٩) ، وألبرت الكبير ، والأذفونش العاشر القشتالي إلخ ، قال مسيو رينان : إنّ ألبرت^(٢٧) والأخلاق والعلوم والفلسفة أيضاً ، وهذا ما اعترف به (لوبون) في الصّفحات الثّالثة من كتابه موضوع دراستنا هذه ، و صفحة ٦٧٨ خصوصاً .

(٢٨) انظر : (شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربيّة في أوربة) لزيغريد هونكه ، المستشرقّة الألمانيّة ، فصل : (البابا يحسب بالعربيّة) : « واستمع جربت في إسبانية إلى الأساتذة العرب ، وتعلّم أشياء لم يكن أحد في أوربة ليحلم أن يسمع بها ، وكان من أهمّ ماتعلّمه جربت نظام الأرقام والأعداد العربيّة » ، صفحة ٨١/٨٠ ، الطّبعة الأولى آذار ١٩٦٤ م ، المكتب التجاري - بيروت .

(٢٩) توما الإكويني : [١٢٢٥ - ١٢٧٤ م] ، ولد بإيطالية ، وتعلّم في جامعة باريس ، أطلع على آراء ابن سينا والغزالي وابن رشد عن طريق التّرجمات اللّاتينيّة ، واقتبس منها الكثير . فبرهانه على وجود الله مثلاً ، هو البرهان نفسه الذي عرضه الفارابي في كتابه : (آراء أهل المدينة الفاضلة) ، وعرضه ابن سينا في كتابيه : (النّجاة) ، و (الشّفاء) ، كذلك أخذ فكرة =

الكبير^(٣٠) مدين لابن سينا ، وسان توما مدين في فلسفته لابن رشد « ،
[صفحة ٦٧٨] .

ولم يكن نفوذ العرب في جامعات إيطالية ، ولا سيما جامعة بادوا^(٣١) ، أقلّ
منه في فرنسة ، فقد كان للعرب فيها شأن :

« ويمكن للقارئ أن يتتّـل سعة نفوذ العرب من الاحتجاج الصّاحب الآتي
الذي قاله الشّاعر الكبير بترارك^(٣٢) : ياعجباً ، استطاع سيسرون^(٣٣) أن يكون
خطيباً بعد ديموستين^(٣٤) ، واستطاع فيرجيل^(٣٥) أن يكون شاعراً بعد

= ضرورة الوحي الإلهي عن الفلاسفة المسلمين . وعن ابن رشد أخذ توما مذهبه في النّقل والعقل ،
أي بين العقل والوحي . [دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ، د . عبد الرّحمن بدوي ، الطبعة الثالثة
١٩٧٩ م ، ص ٣٤/٣٣ ، وكالة المطبوعات الكويت ، ودار القلم بيروت] .

(٣٠) ألبرتس الكبير : [١٢٠٧ - ١٢٨٠ م] راهب ألماني ، معلّم القديس توما الإكويني ، يقول
الدكتور بدوي في المرجع الوارد في الحاشية السابقة ، صفحة ٣٢ : « درس - ألبرتس - مترجم
إلى اللاتينية من مؤلفات الفلاسفة العرب دراسة عميقة ، وكاد أن ينقل عنهم كلّ نظرياته
الرئيسية في الفلسفة ، وإن لم يستطع أحياناً الجهر بذلك خوفاً من السلطات الدينية ...
وفضلاً عن ذلك فإنّه في إداركه وفهمه للفلسفة الأرسطية ، إنّما اعتمد كلّ الاعتماد على الفارابي
وابن سينا وابن رشد » .

(٣١) بادوا Padova : مدينة في شمالي إيطالية ، غربي مدينة البندقية (فينيسيا) .
(٣٢) بترارك Petrarca : [١٣٠٤ - ١٣٧٤ م] شاعر إيطالي من رواد النهضة الأوربية ، اشتهر
بديوانه : (الانتصارات) .

(٣٣) سيسرون Cicéron : [١٠٦ - ١٣ ق . م] ، أكبر خطيب وكاتب ومفكر عرفته
رومة .

(٣٤) ديموستين Demosthenés : [٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م] ، سياسي وخطيب ، يوناني قضى حياته
ينظّم المقاومة في أثينة والمدن الأخرى ضدّ فيليب المقدوني والاسكندر ، وكان يحرّض مواطنيه
على المقاومة بخطب شهيرة عرفت بالفيليبك .

(٣٥) فيرجيل : [٧٠ - ١٩ ق . م] أعظم شعراء الرومان ، أمّ ما يميّزه إيمانه بالأفكار التي تحول
بخطره ، وإتقانه صناعة الشّعر ، وتمكّنه من اللّغة ، وبراعته في استخدام الأوزان .

أوميرس^(٣٦) ، فهل قُدِّر علينا ألا نكتب بعد العرب ؟ لقد تساوينا ، في الغالب ، نحن والإغريق وجميع الشعوب وسبقناها في بعض الأحيان ، خلا العرب ، فيا للحماقة ! ويا للضلال ! ويا للعقرية إيطالية النَّاعسة أو الخامدة ! » ، [صفحة ٦٧٩] .

- ٢٧ -

وليس الإسلام مصدر عدم التسامح ، بل بعض الأشخاص ، فالعرق العربيُّ كان من التهذيب والسَّاحة ما لا يحيد معه عن ذلك التسامح الذي أقام الدليل عليه في كلِّ مكان حلَّ فيه منذ بدء فتوحه ، ثمَّ يقول (لوبون) :
« ويمكن القول إنَّ التسامح الدينيَّ كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة العرب » ، [صفحة ٦٨١] .

- ٢٨ -

وتحت عنوان : (تأثير العرب في الطبائع) ، وبعد أن يقرر (لوبون) أنَّ الدَّم الشرقيَّ يشاهد في إسبانية بسهولة ، فمن الممكن أن تباد أُمَّة ، وأن تحرق كتبها ، وأن تهدم آثارها ، ولكن ما لها من التأثير أقوى من القُلز في الغالب^(٣٧) ، فلا يستطيع إنسان محوه ، ولا تكاد العصور تقدر عليه ، يقول :

« لنعود إلى ما فصلناه في فصل سابق عن تأثير العرب الخُلقي في أوربة ، وإنَّا نذكر أنَّا أثبتنا فيه الفرق العظيم بين أمراء النصارى الإقطاعيين ، وأشياع النبي في ذلك الزمن ، وأنَّ النصارى تخلَّصوا من همجيتهم بفضل اتِّصالهم بالعرب ،

(٣٦) هوميروس Homeros : ولد في آسية الصغرى في القرن ٩ ق . م ، شاعر ملحمي يوناني ، نسبت إليه الإلياذة والأديسة ، والأغاني الهوميرية ، التي أثَّرت تأثيراً عميقاً على مستقبل الشعر اليوناني .

(٣٧) القُلز من النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد ، [اللسان : قلز] .

واقْتَباسهم منهم مبادئ فروسيّتهم ، وما تُؤدّي إليه هذه المبادئ من الالتزامات ، كمرعاة النّساء والشيوخ والأولاد واحترام العهود إلخ ، ونذكر أنّنا بيّنا في فصلنا عن الحروب الصليبيّة أنّ أُرْبعة النّصرانيّة كانت دون الشّرق الإسلامي أخلاقاً بمراحل ، فإذا كان للديانات ما يُسند إليها من التأثير في الطّبائع على العموم ، فنجدادٌ فيه ، أمكنت المقابلة بين الإسلام والأديان الأخرى ، التي تزعم أنّها أفضل منه على الخصوص » ، [صفحة ٦٨٧] .

« تكلمنا في ذلك الفصل بدرجة الكفاية عن تأثير العرب الخُلقيّ في أوربة ، فنحيل القارئ عليه ، وإنّا نذكّر القارئ بالنتيجة التي توصل إليها أيضاً العلامة المُتدبّن مسيو بارتلمي سنت هيلر^(٣٨) في كتابه عن القرآن ، حيث يقول :

أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع أمرائنا الإقطاعيين الغليظة في القرون الوسطى ، وتعلّم فرساننا أرقّ العواطف وأنبلها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم ، فأشكّ في أن تكون النّصرانيّة وحدها قد أوحّت إليهم بذلك ، مهما بولغ في كرمها .

وقد يسأل القارئ بعدما تقدّم : لماذا يُنكّر تأثير العرب علماء الوقت الحاضر ، الذين يضعون مبدأ حرّيّة الفكر فوق كلّ اعتبار ديني كما يلوح ؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأل نفسي به أيضاً ، وهو : أنّ استغلالنا الفكريّ لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة ، وأنّنا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد » ، [صفحة ٦٨٨] .

« لقد تراكت أوهامنا الموروثة ضدّ الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة ، فصارت جزءاً من مزاجنا ، فأضحت طبيعة متأصلة فينا ، تأصل حقد اليهود على النّصارى الخفي أحياناً ، والعميق دوماً .

(٣٨) لعلّه هيلر Hilar : [١٨٠٥ - ١٨٩٥ م] ، مستشرق فرنسي ، درس أديان الشّرق ، له : (بوذا الهندي) ، و (مُحمّد والقرآن) .

فإذا أضفنا إلى أوهامنا الموروثة ضدَّ المسلمين وَهْمًا الموروث الذي زاد مع القرون بفضل ثقافتنا المدرسيَّة البغيضة القائلة : إنَّ اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب في الزَّمن الماضي ، أدركنا بسهولة سرَّ جحودنا العامِّ لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوربة ، ويتراءى لبعض الفضلاء أنَّ من العار أن يُفكَّر في أنَّ أوربة النَّصرانيَّة مدينةٌ في خروجها من دور التَّوحُّش لأوَّلئك الكافرين ، فعارٌ ظاهر كهذا لا يُقبَل إلاَّ بصعوبة » ، [صفحة ٦٨٩] .

- ٢٩ -

وفي معرض حديث (لوبون) عن : (ورثة العرب في الأندلس) ، أي بعد أن غاب العرب المسلمون عن أرضها :

« لم يفكَّر النَّصارى ، بعد أن استردّوا غرناطة ، التي كانت معقل الإسلام الأخير في أوربة ، في السَّير على سُنَّة العرب في التَّسامح الذي رآوه منهم عدَّة قرون ، بل أخذوا يضطهدون العرب بقسوة عظيمة على الرغم من العهود » ، [صفحة ٦٩٤] .

- ٣٠ -

وماذا جرى في إسبانية بعد سقوط حكم العرب المسلمين ؟

لقد عاش فيها جيلان أحدهما من النَّصارى القابضين على زمام السُّلطة العسكريَّة ، والأخرى من العرب القابضين على ناحية الحضارة الماديَّة : « كان وجود ذَيْنك الجيلَيْن أمراً ضرورياً ، فإذا كانت السُّلطة العسكريَّة كافية لإقامة دولة ، فإنَّها تُعجز وحدها عن إدامتها ، فلن يكون ازدهارها إلاَّ بتوافر بعض عناصر الحضارة ، ولن تبقى طويلاً إلاَّ ببقاء هذه العناصر .

هذا هو عين ما أصاب إسبانية بعد طرد العرب ، فقد حلَّ الانحطاط فيها

محلّ العظمة ، وقد زاد انحطاطها سرعةً ما عَطِلَتْ من قادة عِظام حربيين ، كالَّذين ظهروا في قرن واحد ، وهي حين خَسِرَتْ سلطانها الحربيَّ وَحُرِمَتْ الحضارةُ ، أضعفت كلَّ شيء .

وكان من سرعة الانحطاط الَّذي عَقَبَ إجلَاء العرب وقتلهم ما يمكننا أن نقول معه إنَّ التاريخ لم يَرَوْ خبراً مُمة كالإسبان ، هبطت إلى دَرَكة عميقة في وقت قصير جداً ، فقد توارت العلوم والفنون والزراعة والصناعة ، وكلُّ ما هو ضروريٌّ لعظمة الأمم عند بلاد إسبانية على عَجَل ، فأغلقت أبواب مصانعها الكبرى ، وأهملت زراعة أراضيها ، وصارت أريافها بلاقع ، والمدن إذ كانت لا تزدهر بغير صناعة ولا زراعة ، خَلَّت المدن الإسبانية من السُّكان على شكل سريع خفيف ... » ، [صفحة ٦٩٥] .

- ٣١ -

وحاولت إسبانية النُّهوض بعد طرد العرب المسلمين ، ولكن من غير جدوى ، وحقاً أن العرب زالوا ، وقضت محاكم التفتيش على كلِّ من يزيد ذكاؤه قليلاً على المستوى المتوسط ، فَصُرَتْ ترى فيها سُكَّاناً ، لارجالاً ، ويتابع (لوبون) قائلاً :

« أجمع كُتَّاب العصر الَّذين زاروا بلاد إسبانية على الاعتراف بضعف مستوى الإسبان الثَّقافيّ ، فكان هذا الضَّعف عميقاً عامّاً في أواخر القرن السَّابع عشر من الميلاد ، فبدت تلك البلاد الَّتِي أضاءت العالم أيام سلطان العرب بخاليةً من أيَّة مدرسة لتعليم الفيزياء والرياضيات والطَّبيعيَّات ، فَصُرَتْ لا ترى فيها كُلِّها حتَّى سنة ١٧٧٦ م كيمياوياً قادراً على صنع أبسط التَّراكيب الكيماويَّة ، ولا شخصاً قادراً على إنشاء مركب أو سفينة شراعيَّة ، وذلك كما قال الكاتب الإسباني (كانبومانيس) مؤكِّداً .

ولا مِرَاءَ في نجاح محاكم التفتيش المرهوبة في أعمالها^(٣٩) ، فأضحت جميع بلاد إسبانية لا تعرف غير كتب العبادة ، ولا عملاً غير الأمور الدينيّة » ، [صفحة ٦٩٨/٦٩٧] .

- ٣٢ -

وتحت عنوان : (أسباب عظمة العرب) ، بدأ (لوبون) بقوله :
« ونذكر على رأس هذه العوامل التي ندرسها ، ذلك العامل الذي توحدت بفضلها جميع القبائل العربيّة المنقسمة ، وهو الدّين الذي جاء به محمد ، فقد منح هذا الدّين ما كانت تحتاج إليه أمم من المثل الأعلى الذي اكتسبوا به من الحيّة ما استعدّوا به للتّضحية بأنفسهم في سبيله » ، [صفحة ٧١٨] .

- ٣٣ -

ولقد أتمّ العرب نصرهم على الرّوم لاستعداد كلّ جنديّ عربيّ لبذل نفسه في سبيل دينه :

« كان يمكن أن تُعْمي فتوح العرب الأولى أبصارهم ، فيقتربوا من المظالم ما يقتربه الفاتحون عادةً ، ويسبّوا معاملة المغلوب ، ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذي كان يرغبون في نشره في العالم ، فلو فعلوا ذلك لتألّبت عليهم جميع الأمم التي كانت ، بعدد ، غير خاضعة لهم ، ولأصابتهم مثل ما أصاب الصّليبيين عندما دخلوا بلاد سوريّة مؤخّراً ، ولكن العرب اجتنبوا ذلك ، فقد أدرك الخلفاء السّابقون ، الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده في دُعاة الديانات الجديدة ، أن النّظم والأديان ليست مما يُفرض قسراً ، فعاملوا ، كما

(٣٩) بسبب المرسوم البابوي الصادر سنة ١٤٧٨ م ، وغياب روح التّسامح كلياً ، وسيطرة الحقّ والتّعصّب الأعمى .

رأينا ، أهل سورِيَّة ومصرَ وإسبانية ، وكلَّ قطر استولوا عليه بلطف عظيم ، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جِزْيَة زهيدة ، في الغالب ، إذا ماقيست بما كانوا يدفعونه فيما مضى ، في مقابل حفظ الأمن بينهم ، فالحقُّ أن الأمم لم تعرِف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم » ، [صفحة ٧١٩] .

« وما جهله المؤرِّخون من رحمة العرب الفاتحين وتسامحهم ، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم ، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رَسَخَتْ وقاومت جميع الغارات ، وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم ، ونَعَدُّ أمرَ مصرَ واضحاً على الخصوص ، فلم يستطع الفُرس والإغريق والرُّومان الذين استولوا عليها أن يقلبوا الحضارة الفرعونِيَّة القديمة فيها ، وأن يقيموا حضارتهم مقامها » ، [صفحة ٧٢٠] .

- ٣٤ -

وتحت فقرة : (حال الإسلام الحاضرة) ، يعتبر (لوبون) : ثَقُلَتْ قرونٌ على أَعْفار العرب^(٤٠) ، ودخلت حضارتهم في ذمَّة التاريخ منذ زمن طويل ، ولا تقول مع ذلك : إنَّهم ماتوا تماماً^(٤١) :

« نرى الآن ديانتهم ولغتهم اللتين أدخلوهما إلى العالم أكثر انتشاراً مما كانتا عليه في أنصر أدوارهم ، فالعربيَّة هي اللُّغة العامَّة من مَرَّاكش إلى الهند ، ولا يزال الإسلام جاداً في تقدُّمه .

(٤٠) العَفْرُ والعَفْرُ : ظاهر التراب ، والجمع أَعْفار ، [اللسان : عفر] .

(٤١) حضارة العرب بجانبها العقائدي قائمة باقية ، ولئن تقدَّم الجانب العلمي عند الغربيِّين ، فهم اليوم أحوَج ما يكون للجانب الروحي والخلقي في حضارتنا العربيَّة الإسلاميَّة ، وهذا ما قامت به السُّويد ، عندما جعلت عام ١٩٨٥ م (عام الإسلام) ، علَّها تسدَّ الفراغ الروحي الهائل في حياتها الاجتماعيَّة .

والسهولة العجيبة التي ينتشر بها القرآن في العالم شاملة للنظر تماماً ، فالمسلم أينما مرَّ ترك خلفه دينه ، فبلغ عدد أشياع النبيِّ ملايين كثيرة في البلاد التي دخلها العرب بقصد التجارة ، لافاتحين ، كبعض أجزاء الصين ، وإفريقية الوسطى وروسية ، وتمَّ اعتناق هذه الملايين الإسلام طوعاً ، لا كرهاً ، ولم يُسَمَّع أن الضرورة قضت بإرسال جيوش مع هؤلاء التجَّار المبشرين العرب لمساعدتهم ، ويتَّسع نطاق الإسلام بعد أن يقيمه هؤلاء في أيِّ مكان .

ولقد أصاب مسيودوفال حيث قال : من فضل الإسلام ، زوال الأصنام والأنصاب عن الدنيا ، وتحريم القرايين البشريَّة ، وأكل لحوم الإنسان ، وحفظ حقوق المرأة ، وتقييد مبدأ تعدد الزوجات وتنظيمه .. وتوطيد أواصر الأسرة ، وجعل الرقيق عضواً فيها ، وفتح أبواب كثيرة سهلة لتحريره ، وتهذيب الطبائع العامَّة ، ورفع مستواها بالصَّلاة والزَّكاة ، وإيواء الغرباء ، وثقيف المشاعر بالعدل والإحسان ، وتعليم أولياء الأمور أن عليهم من الواجبات ما على الرعيَّة ، وإقامة المجتمع على أسس منظمَّة ، فإذا حدث أن كان هنالك جور في الغالب ، كما في أيِّ مكان آخر ، وُجد في العدل الإلهي ما يخفف وطأته ، وذلك أن في رجاء الحياة الآخرة ، حيث السعادة وحسن الثواب ، سنداً لضحايا الدهر أو الظلم ، تلك هي بعض المحاسن التي تدلُّ في كلِّ مكان على انتشار الإسلام بين المجتمعات غير المتمدِّنة .

وفي الصين ، على الخصوص ، يتقدَّم الإسلام تقدُّماً يقضي بالعجب ، ففي الصين ، حيث اضطرَّ المبشرون الأوربيُّون إلى الاعتراف بفسلهم ، يُكْتَبُ للإسلام أسطع فوز ، وقد رأينا أن عدد أتباع محمد في الصين عشرون^(٤٢) مليوناً ، وأن في مدينة بكين وحدها مئة ألف مسلم » ، [صفحة ٧٣٤/٧٣٥] .

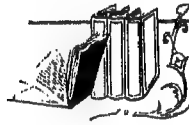
(٤٢) حالياً أكثر من أربعين مليون مسلم .

- ٣٥ -

ويختتم (لوبون) سفره القيم ، بالفقرة التالية :

« لقد تمّ الكتاب ، فنلخصه في بضعة كلمات ، فنقول : إنّ الأمم التي فاقت العرب تمدناً قليلة إلى الغاية ، وإننا لانذكر أمّة ، كالعرب ، حققت من الابتكرات العظيمة في وقت قصير مثل ما حققوه ، وإنّ العرب أقاموا ديناً من أقوى الأديان التي سادت العالم^(٤٣) ، أقاموا ديناً لا يزال تأثيره أشدّ حيوية مما لأيّ دين آخر^(٤٤) ، وإنهم أنشؤوا من الناحية السياسية دولة من أعظم الدول التي عرّفها التاريخ ، وإنهم مدّنوا أوربة ثقافة وأخلاقاً ، فالعروقي^(٤٥) التي سمت سموّ العرب وهبطت هبوطهم نادرة ، كالعرب ، عرق يصلح ليكون مثلاً بارزاً لتأثير العوامل التي تهيمّ على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها » ، [صفحة ٧٣٦] .

☆ ☆ ☆



(٤٣) لم يقدّم العرب ديناً من أقوى الأديان التي سادت العالم ، الله أنزله وحياً على قلب نبيه الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ، ونشره العرب دعوةً وجهاداً .

(٤٤) وهو ما يزال أكثر الأديان انتشاراً في العالم ، حسب إحصاءات مكتب انتشار الأديان والعقائد في سويسرا ، لذلك يستيه الأوروبيون : (الدّين الرّاحف) ، على الرّغم من الجهود الهائلة - مالا ورجالاً ودولاً - التي يبذلها التبشير في العالم للوقوف في وجه الإسلام وأهله .

(٤٥) أي : النوع ، انظر إلى الحاشية رقم : ٢١ في هذا الفصل .

- ٤٨ -

كِتَابُ حَضَارَةِ الْعَرَبِ وَصِفِّ وَعَرْضُ

☆ « ولم يقتصر فضل العرب في ميدان الحضارة على أنفسهم ، فقد كان لهم الأثر البالغ في الشرق والغرب ، والشرق والمغرب مدينان لهم في تمدنها ، ولم يتفق لأمة فيها ما للعرب من النُفوذ » .

[حضارة العرب ، ص ٢٩] .

ألف العلامة الدكتور غوستاف لوبون كتابه القيم سنة ١٨٨٤ م ، وترجمه عن الفرنسية الأستاذ الفاضل عادل زعيتر سنة ١٩٤٥ م .

والكتاب في طبعته العربية (الطبعة الثالثة^(١) : ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م) يقع في سبع مئة وأربع وثمانين صفحة من القطع العادي ، ويضمّ مئتين وخمس صور^(٢) ، وثلاث خرائط .

(١) الطبعة الأولى : ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .

الطبعة الثانية : ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

الطبعة الثالثة : ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، وهي من أجود الطباعات ، دار إحياء التراث العربي - بيروت .

(٢) يذكر لوبون في مقدّمته (الصفحة ٥١ من الطبعة الثالثة - العربية) أن في الكتاب ٣٦٠ صورة ، ولعل الأستاذ زعيتر اختار منها ٢٠٥ صور فقط وزيّنا هذا الكتاب ببعضها .

مقدمة المترجم للطبعة الثانية من الصفحة ٣ إلى الصفحة ١٠ ، ومما جاء فيها :

« يظهر هذا الكتاب للعالم بدءاً في درس حضارة العرب درساً شاملاً ، ويبدو خير كتاب عن هذه الحضارة ، وذلك في بابهِ وروحه ومناحيهِ ، وقوة التحليل فيه ، ووصول لوبون إلى مآشده فيه من الأهداف الاجتماعية والأدبية والسياسية » .

« جاء فيما نُشِرَ في مجلّة (الرسالة) المصرية : ظهر كتاب حضارة العرب ، والشّبيبة العربيّة حائرة لضعفٍ في إيمانها وعوجٍ في تربيتها ، ووهنٍ في ثقافتها ، وعُجْمَةٍ في لغتها ، ويأسٍ من أمّتها ، وخجلٍ من ماضيها ، وغموضٍ في حاضرها ، وخوفٍ من مستقبلها ، أجل ، ظهر هذا الكتاب النفيس ليقول بلسان الأجنبي ، لضعيف الإيمان : هذا هو الصّخر من عظمة الأجداد فأئنّ عليه إيمانك الوطنيّ الضّاوي الهزيل ، ويقول للياس : من كان لأُمّته مثلُ هذا الماضي المشرق اللّامع ، لا يمكن أن يتسرّب اليأس في قلبه ، إلّا إذا كانت قد حقّت عليه اللّعة ، ويقول للخجل من أمّته الذي لا يحدثك إلّا وهو يخلط العربيّة بألفاظ من لغات متعدّدة : إنك من شعب لم تعرّف البشريّة أنبل منه ولا أشرف ، وليقول للوجل من الحاضر والخائف من المستقبل : إنّ الخوف هو لعنة الحياة ، وإنّ الشكّ في الانتصار هو الهزيمة العابسة النكراء » .

« وجاء فيما نُشِرَ في مجلّة (اليقظة) الشّاميّة : إننا إذا قلنا إنّ لوبون قد أنصف العرب فلا نكون قد أنصفنا لوبون نفسه ، وأجدر بنا أن نقول : إنّه المبدّر^(٣) البليغ الذي رافع عنهم أمام محكمة التاريخ ، والفراس المجلّي في حلبة

(٣) المبدّر : المُقدّم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال ، المدافع الخطيب المتكلم ، (اللسان : مدر) .

إذاعة فضائلهم ، ففي كل فصل من فصول الكتاب ترى لوبون الذائد المَنَافِح الصَّوَال الجَوَال ... » .

أما (مقدمة المترجم) في الطبعة الأولى ، فتقع على الصَّفحات من ١١ إلى ٣٦ ، وهي عرض لمضمون الكتاب ومنهجه ، جاء في بدايتها :

« كان من نتائج اصطراع الشرق والغرب منذ قرون مضت ، وإلقاء العرب الرُّعب في قلوب الأوربيين ، أن صار الأوربيون يشعرون بمذلة الخضوع للحضارة العربيَّة الَّتِي لم يتحرَّروا من سلطانها إلا منذ زمن قريب ، فأخذوا يُنكِرون فضل العرب على أوربة وتمدينهم لها ، وأصبح هذا الإنكار من تقاليد مؤرَّخي أوربة وكتَّابها الذين لم يُقرُّوا لغير الإغريق والرومان بتدنيها ، وساعدهم على ذلك ما عليه العرب والمسلمون من التَّأخُّر في الزَّمن الأخير ، فلم يشأوا أن يَرَوْا للعرب رُقيّاً تاريخياً أعظم مما هم عليه الآن ، غير ناظرين إلى أن نجم حضارة العرب أقل منذ أجيال ، وأنه لا يصحُّ اتِّخاذ الحال دليلاً على الماضي .

ولم تخلُ أوربة ، مع ذلك ، من مؤرِّخين أبصروا ما للعرب من فضل في تمدن أوربة ، فألفوا كُتُباً اعترفوا فيها للعرب بما ليس فيه الكفاية .

رَاعَ ذلك الجُهودُ العلامة الفرنسيَّ الكبير غوستاف لوبون ، وهو الَّذِي هدته رحلاته في العالم الإسلاميَّ ، ومباحثه الاجتماعيَّة إلى أن العرب هم الذين مدَّنوا أوربة ، فرأى أن يبعث عصر العرب الذَّهبيَّ من مَرَقده ، وأن يُبْديه في صورته الحقيقيَّة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فأخرج في سنة ١٨٨٤ كتابه (حضارة العرب) ، الَّذِي نَعْرِضُ ترجمته على النَّاطقين بالضَّاد .

ثمَّ عرض الأستاذ عادل زعيترفصول الكتاب بإسهاب ، وأهمَّ النُّقاط الَّتِي أنصف لوبون بها العرب وحضارتهم ، ويختم قائلاً :

« فن درس كتاب (حضارة العرب) وإنعام النَّظر فيه يَتَبَيَّن للقارئ أن

العلامة غوستاف لوبون سلك في تأليفه طريقاً جديداً لم يسبقه إليه أحد ، وأنه حاول فيه بعث حضارة العرب ، من مرقدها وإظهارها للملا على وجهها الصحيح .

ولم يألُ العلامة لوبون جهداً في درس حضارة العرب مستنداً إلى أهم المؤلفات التاريخية ، وإلى مشاهداته الشخصية ، فجاء كتابه جامعاً للكثير مما في تاريخ حضارة العرب من العِظَات والعِبَر ، وقد أكثر بعض كتّابنا من الاستشهاد بجُمْل منه عند بحثهم في تاريخ الحضارة ، فصار من الضروري نقله بأسره إلى اللغة العربية .

وهذا الكتاب صحيح المناحي والغايات في مجموعه ، وهو ، كغيره من الكتب المهمة ، لا يخلو من هفوات لا تخفى على القارئ ، ولكن هذه الهفوات لا تحط من قيمته العظيمة ، وقد أشرت إلى أهمها في هذه المقدمة .

لقد أشار الأستاذ زعير إلى نقطتين اثنتين فقط ، وهما :

« لا نعتقد أن لوبون أصاب حين ظن أن من أصول الإسلام النظام الأساسي القائل بجمع جميع السلطات في يد سيّد مطلق ، وحين عزا المخطاط العرب إلى هذا النظام الذي حُمِل به الناس ، كما ادعى ، على التمسك بأحكام الماضي الإسلامية غير المطابقة لاحتياجاتهم المتحوّلة ، فبعد أن أوضح لوبون أن نظام العرب ديمقراطي ، وأن مبدأ المساواة التامة ساد الجميع بفضل ، وأن الفقهاء ساروا على المبدأ (لا يُنكر تغيّر الأحكام بتغيّر الأمكنة والأزمان) ، وأن المسلمين في عصر خلفاء بغداد وقرطبة الزّاهر كانوا يعلمون ، بما يأتونه من ضروب الاجتهاد ، كيف يوفّقون بين تلك الأحكام واحتياجات الأم التي انتحلتها ، كان من الخطأ ذهابه إلى أن نظام الحكم المطلق هو من أصول الإسلام ، [صفحة ١٩] .

والنقطة الثانية التي أشار إليها الأستاذ المترجم ، هي :

« واعترف لوبون للعرب بظهور رجال عظماء منهم كما تشهد بذلك اكتشافاتهم ، ولكنه أبدى ارتياحه في ظهور عباقرة منهم كنيوتن ولايبنتز ، فنَعَدَّ ذلك هَفْوَةً من العلامة لوبون الذي ذكر في غير موضع أن لافوازيه مدين لعلماء العرب في علم الكيمياء ، وأن كيبلر وكوبرنيك مدينان لعلماء العرب في علم الفلك مثلاً ... فإذا كانت الحضارة العامة سلسلة حلقات ، وكانت حضارة العرب من أهم تلك الحلقات ، كان من المتعذر ظهور نيوتن ولايبنتز وغيرهما من أركان حلقة الحضارة الحديثة بدونها ، والفضل للمتقدم » ، [صفحة ٣٤] .

لقد أحصينا أكثر من خمسين هَفْوَةً وخطأ في : (حضارة العرب) ، وهي ذات أهمية كبيرة ، خصوصاً فيما تعلّق منها بالقرآن الكريم والعقيدة ، كنّا نتمنى من الأستاذ زعيتير ، وهو عالم فاضل واسع الاطلاع ، ولا تفوته معرفة الهفوات والأخطاء ، أن ينبّه إليها ، ويحذّر منها ، فضلاً عن تفنيدها ورفضها في هوامش الكتاب .

أمّا مقدّمة المؤلّف ، فهي على الصّفحات من ٣٧ إلى ٥٢ : « وبالعرب بدأت ، وسبب ذلك أنّ حضارتهم من الحضارات التي اطلّعت عليها في رحلتي الكثيرة أحسن مما اطلّعت على غيرها ، وهي من الحضارات التي كَمُلَ دورها وتجلّى فيها مختلف العوامل التي أوضحنا سيرّها في ذلك الكتاب ، وهي من الحضارات التي نرى الاطلاع على تاريخها مفيداً إلى الغاية وقد جهّله الناس تقريباً ..

كلّما أمعنّا في درس حضارة العرب وكتبهم العلميّة واختراعاتهم وفنونهم ، ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة ، ولُسُرّعان ما رأينا أنّ العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين ، وأنّ جامعات الغرب لم تعرّف لها ، مدة خمسة قرون ، مورداً علمياً سوى مؤلّفاتهم ، وأنّهم الذين مدّونا أوربة

مادّة وعقلاً وأخلاقاً ، وأنَّ التَّاريخ لم يَعْرِفْ أُمَّةً أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير ، وأنَّه لم يَفْقَهُم قوم في الابتداع الفني .

وتأثير العرب عظيم في الغرب ، وهو في الشَّرق أشدَّ وأقوى ، ولم يَتَّفِقْ لَأُمَّةٍ ما اتَّفَقَ للعرب من النُّفوذ .. الغربُ وليد الشَّرق ، ولا يزال مفتاحَ ماضي الحوادث في الشَّرق ، فعلى العلماء أن يبحثوا عن هذا المفتاح فيه .

« ونحن إذ نختم هذه المقدمة نُلَخِّصُ بما يأتي المنهاجَ الَّذي اتَّبَعْنَاهُ في وضع هذا الكتاب ، والَّذي تَبِعْهُ فيما نُؤَلِّفه من تواريخ الحضارات ، فنقول :

من المبادئ العامّة : الوجوبُ في وقوع الحوادث التَّاريخيّة ، والصّلة الوثيقة بين الحوادث الحاضرة وحوادث الماضي .

ومن موادِّ التَّأليف : آثارُ الشُّعوب الَّتِي هي موضوع الدُّرس وتصويرُها تصويراً صادقاً ، ووصفُ العِرْقِ جسماً وعقلاً ، والبيئة الَّتِي نشأ فيها العِرْقُ ، والعواملُ الَّتِي خضع لها ، وتحليلُ لعناصر الحضارة ، أي للنُّظم والمعتقدات والعلوم والآداب والفنون والصِّناعات ، وتاريخُ لتكوين كلِّ واحد من هذه العناصر .

وإذا أصابنا التَّوفيق في عَرُض صورة واضحة عن العصر الَّذي نرغب في بعثه ، مستعينين بتلك الموادِّ والمبادئ ، فإنَّنا نكون قد نلنا ما نتمنى .

ثمَّ تبدأ مادّة الكتاب العلميّة ، وهي ضمن ستّة أبواب :

☆ الباب الأوَّل : (البيئة والعِرْق) ، من الصّفحة ٥٣ إلى ١٢٥ ، ويضمُّ هذا الباب ثلاثة فصول :

١ - بلاد العرب .

٢ - العرب .

٣ - العرب قبل ظهور محمد - ﷺ - .

☆ الباب الثَّاني : (مصادر قوَّة العرب) ، من الصَّفحة ١٢٧ إلى ١٨٢ ،
ويضمُّ هذا الباب ثلاثة فصول أيضاً :

١ - محمد - ﷺ - نشوء الدَّولة العربيَّة .

٢ - القرآن [الكريم] .

وفي هذين الفصلين أكثر الهفوات والأخطاء التي وقع فيها الدكتور
لوبون .

٣ - فتوح العرب .

☆ الباب الثَّالث : (دولة العرب) ، من الصَّفحة ١٨٣ إلى ٤١٧ ، ويضمُّ هذا
الباب ثمانية فصول :

١ - العرب في سورية .

٢ - العرب في بغداد .

٣ - العرب في بلاد فارس والهند .

٤ - حال مصر حين الفتح العربي .

٥ - إفريقية الشَّمالية قبل الفتح العربي .

٦ - العرب في إسبانية .

٧ - العرب في صقلية وإيطالية وفرنسة .

٨ - اضطراع النُّصرانيَّة والإسلام - الحروب الصَّليبيَّة .

☆ الباب الرَّابع : (طبائع العرب ونظمهم) ، من الصَّفحة ٤١٩ إلى ٥٢١ ،
ويضمُّ هذا الباب خمسة فصول :

١ - أهل البدو ، وأهل الأرياف من العرب .

٢ - عرب المدن ، طبائعهم وعاداتهم .

٣ - نظم العرب السِّياسيَّة والاجتماعيَّة .

٤ - المرأة في الشرق .

٥ - الدين والأخلاق .

☆ الباب الخامس : (حضارة العرب) ، من الصفحة ٥٢٣ إلى ٦٩٠ ، ويضمُّ هذا الباب عشرة فصول :

١ - مصادر معارف العرب وتعليمهم ومناهجهم .

٢ - اللغة والفلسفة والآداب والتاريخ .

٣ - الرياضيات وعلم الفلك .

٤ - العلوم الجغرافية .

٥ - الفيزياء وتطبيقاتها .

٦ - العلوم الطبيعية والطبية .

٧ - الفنون العربية ، الرسم والحفر والفنون الصناعية .

٨ - فنُّ عمارة العرب .

٩ - تجارة العرب ، صلاتهم بمختلف الأمم .

١٠ - تمدين العرب لأوربة ، تأثيرهم في الشرق والغرب .

وهذا الفصل العاشر من أجود ماكتب الدكتور لوبون في كتابه :
(حضارة العرب) .

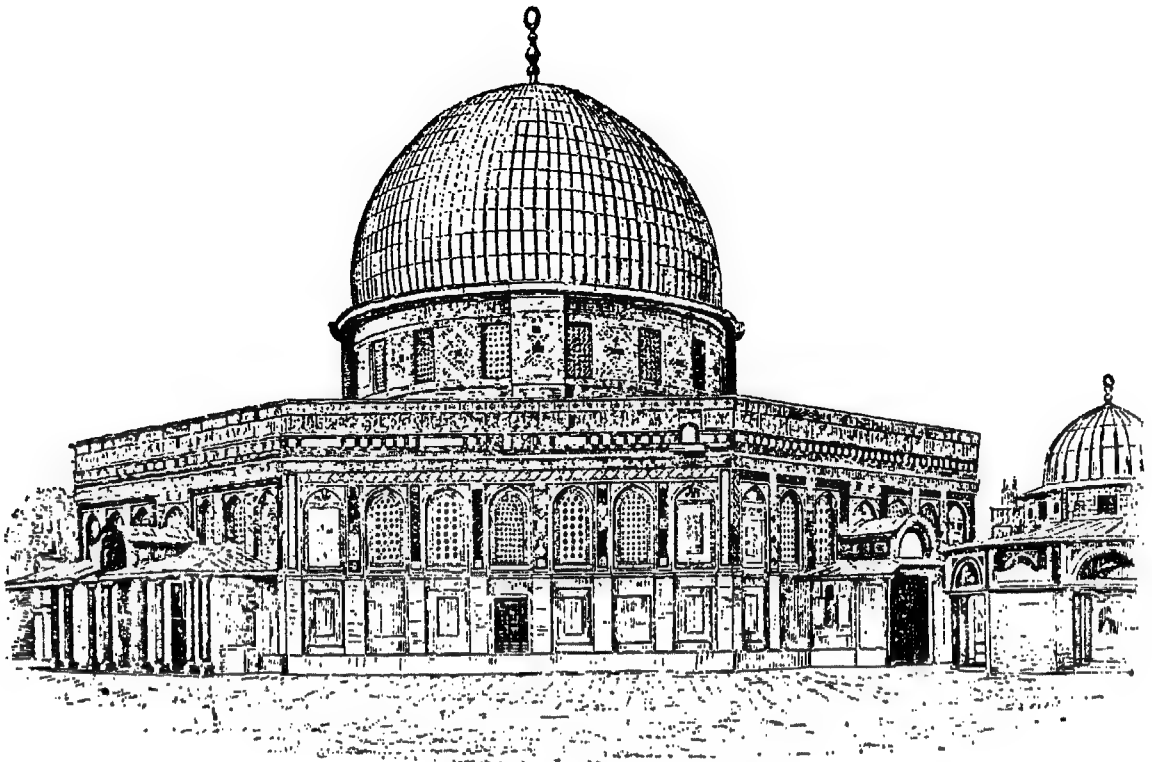
☆ الباب السادس : (المخطاط حضارة العرب) ، من الصفحة ٦٩١ إلى ٧٣٦ ، ويضمُّ هذا الباب فصلين فقط :

١ - وريثة العرب ، تأثير الأوربيين في الشرق .

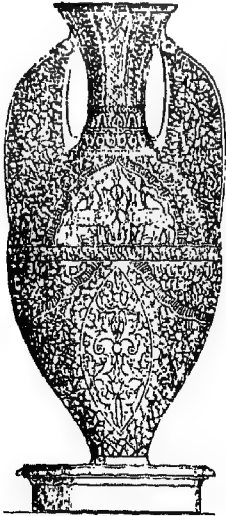
٢ - أسباب عظمة العرب والمخطاطهم (حال الإسلام الحاضرة) .

☆ ثمَّ المصادر والفهارس ، من الصفحة ٧٣٧ إلى ٧٨٤

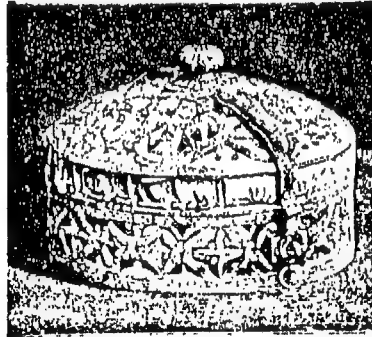
☆ ☆ ☆



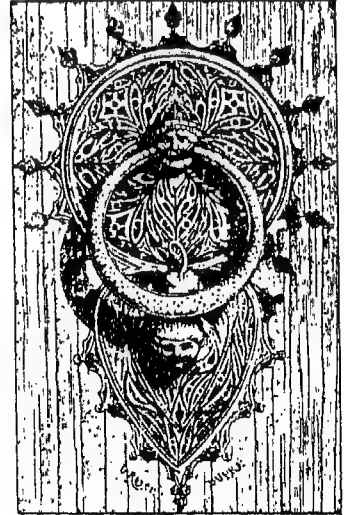
مسجد عمر في القدس (من صورة التقطها المؤلف)



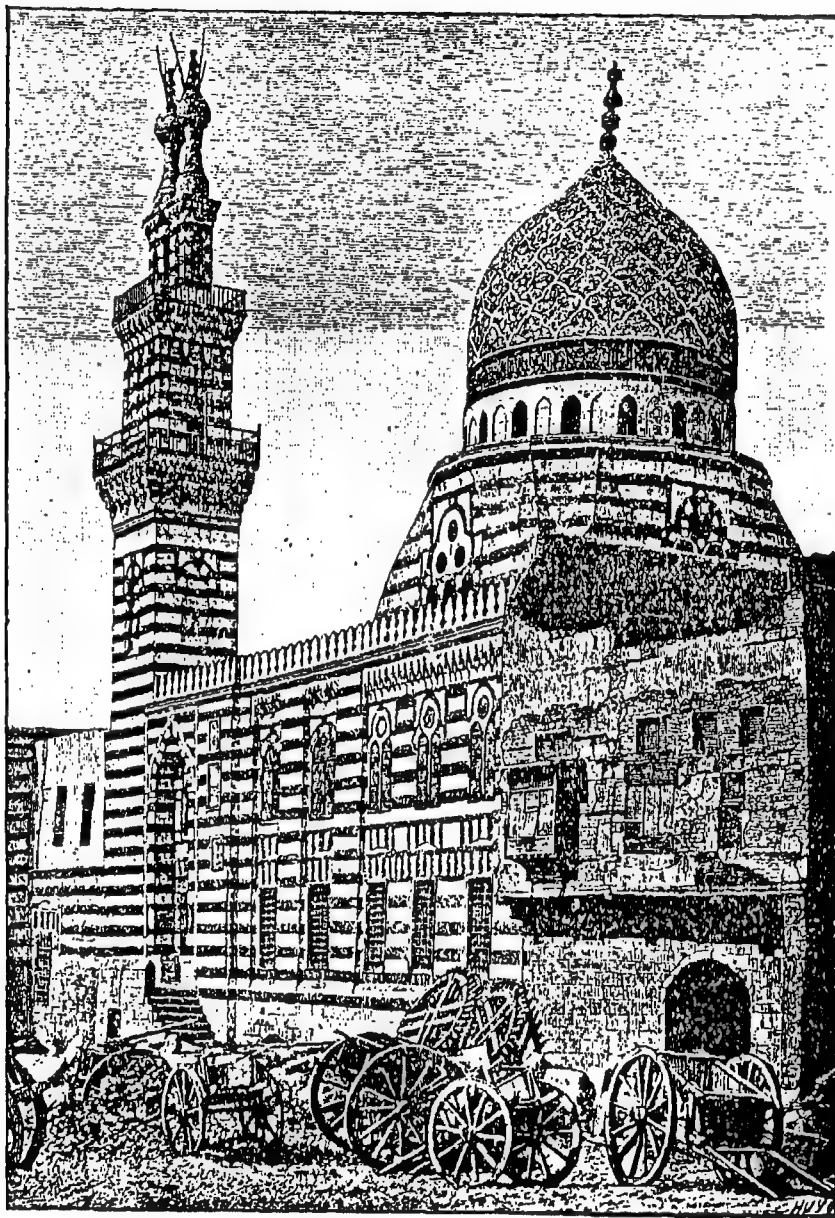
إناء عربي مأخوذ من قصر الحمراء
(كما جاء في صورة قديمة)



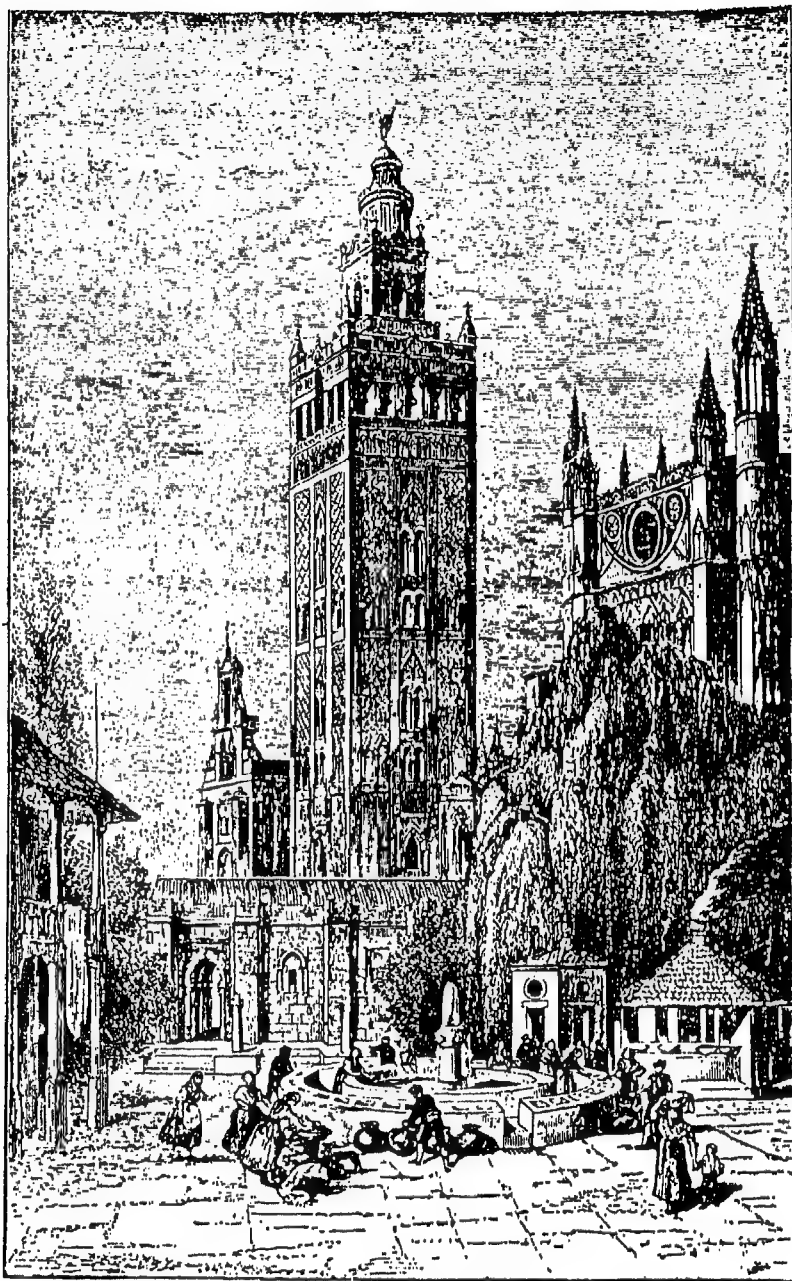
صندوق صغير مصنوع في قرطبة من العاج
المرصع ، وذلك في القرن العاشر من الميلاد
(متحف كنسينغتون)
(من صورة فوتوغرافية التقطها شارل رلفا)



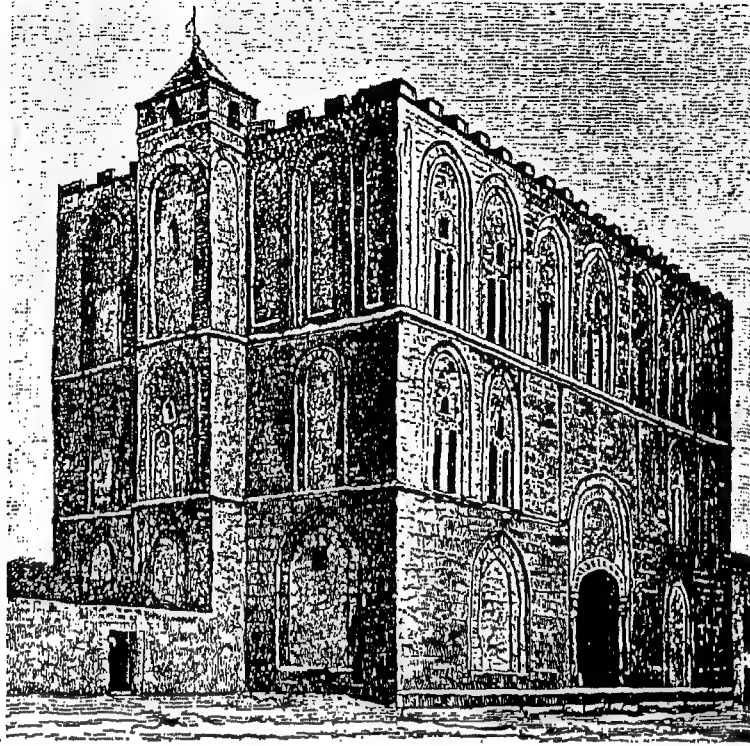
مدق باب كتدرائية طركونة
(طراز إسباني عربي)



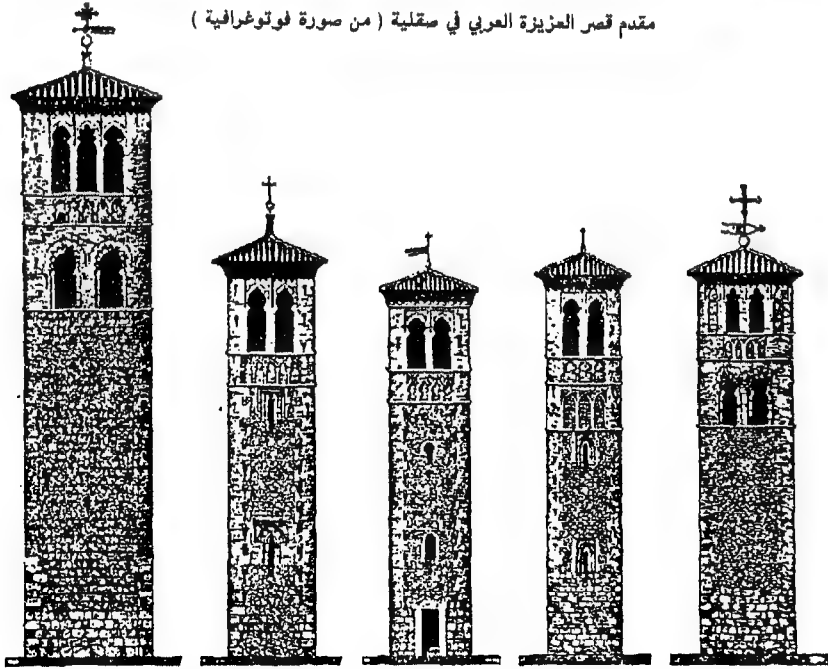
مسجد آخور في القاهرة (من صورة فوتوغرافية)



برج لاجيرالده (برج لعبة الهواء) في إشبيلية (من تصوير دوپراخيه)



مقدم قصر العزيزة العربي في صقلية (من صورة فوتوغرافية)



أبراج عدة كنائس في طليطلة أقيمت تقليداً لمآذن عربية قديمة

الأخطاء والهفوات

☆ إِنَّ حُبَّ غُوسْتاف لُوبُون للعرب
وحضارتهم مشهود معروف ، لذلك كانت
الأخطاء والهفوات الَّتِي وقع فيها في كتابه
(حضارة العرب) ناتجة عن حُسْنِ نِيَّةٍ ،
ويبقى كتابه كتاباً نفيساً رائعاً ، ذا قيمة
فريدة في موضوعه .

مواقف الدكتور غُوستاف لُوبُون في كتابه النَّفِيس : (حضارة العرب) ،
لاشكَّ بعيدة عن التَّعَصُّب والتَّشَنُّج ، وبعيدة عن الحقد والكراهية ، وبعيدة جداً
عن الشَّتائم والسُّباب .

وهو من حقّه أن يقول ما يعتقد ، ويقرّر ما أوصله إليه عِلْمُهُ ، ونحن من
حقّنا تناول أقواله وما قرّره بالتحليل والنَّقد والدراسة والتعليق والتصويب
والردّ ، لأنّ سكوتنا عن الأخطاء والهفوات والهفات يعني تسليماً ضمنيّاً بها ، وإلّا
أين تفنيدها إن كانت باطلة ، وأين تصويبها إن كانت خاطئة ؟ !

ونحن في هذا الفصل الأهم من هذا الكتاب : (غُوستاف لُوبُون في الميزان) ،
سنفصل أخطاء هفوات الدكتور لُوبُون ، مع تأكيدنا على أنّه ماقدّمها عن سوء
نِيَّةٍ ، وبالتالي لم تصدر عن خبث طويّة ، ولا عن انفعال أو ضغط كنسيّ ،
فحبُّ الرّجل لحضارتنا كبير عظيم ، ودفاعه عن العرب معروف معلوم ، فحسن
النِّيَّة وصفاؤها وراء عمله النَّفِيس : (حضارة العرب) .

ومعظم أخطاء الرّجل وهفواته مرّدها عدم استيعابه لظاهرة الوحي ، مع عدم إدراكه لبعض الأمور المتعلّقة بالعقيدة الإسلاميّة ، ومع ذلك يبقى كتابه : (حضارة العرب) كتاباً ممتازاً رائعاً في موضوعه .

وبعد ، هذه أخطاء (حضارة العرب) وهفواته ، لاحسب موضوعاتها ، بل حسب تسلسل ورودها على صفحات الكتاب^(١) :

- ١ -

يقول الدكتور لوبون عن نبينا الكريم ﷺ :

« حقّاً أنّ من أعاجيب التاريخ أن يُلبّي نداء ذلك المُتَهوِّس الشَّهير شعب جامع شديد الشّكّية لم يُقدّر على قهره فاتح ، وأن تنهار أمام اسمه أقوى الدُّول وألاً يزال يُمسِك ، وهو في جدّته ، ملايين من النّاس تحت لواء شرعه .

ويجب احترام أعظم مؤسّسي الأديان والدُّول ، وإن وصّفهم العلم الحديث بذوي الهوس ، وحقّ له ذلك ، ففيهم تتجلّى روح الزّمن وعبقرية القوم ، وبلسانهم تنطق أجيال من الأجداد راقدة في ثنايا العصور ، والخيالات ، وإن كانت كلّ ما يأتي به هؤلاء المبدعون ، هي التي أوجدت كياننا الحاضر ، ولا تقوم بغيرها حضارة ، ولم يكن التاريخ سوى قصص للحوادث التي أقام بها الإنسان خيالاً فعبده ثمّ هدمه » ، [صفحة ٣٩ و ٤٠] .

« ويجب عنده محمد من فصيلة المتهوِّسين من النّاحية العلميّة كأكثر مؤسّسي الدّيانات ، ولا كبير أهميّة لذلك ، فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين يُنشِئون الدّيانات ويقودون النّاس ، وإنّا أولو الهوس الذين مثّلوا هذا الدّور ، فتى يُبحث في عمل المفتونين في العالم يُعترف بأنه عظيم ، فهم الذين

(١) إلا إذا كانت مكرّرة متشابهة ، فإنّها ترد مع ورودها في المرّة الأولى .

أقاموا الأديان ، وهدموا الدُّول ، وأثاروا الجموع وقادوا البشر ، ولو كان العقل ،
لاهُوسُ ، هو الذي يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر » ، [صفحة ١٤٥] .

« وكانت هنالك أخطار أخرى أعظم من تلك تُهددُ بخنق عمل محمد في
مهده ، فقد ظهر متهوسون كثيرون هزَّهم ماناله محمد من التوفيق فرأوا أن يدعوا
النُّبوة أيضاً ، فاستطاع أحدهم أن يجعل سكان نصف الين من أتباعه^(٢) ،
ولولا قتلُ بعض المؤمنين^(٣) إياه لخسر الإسلام أحسنَ ولاياته ، واقتصر متهوسٌ
آخر على إضافة بعض السُّور إلى القرآن^(٤) ، وبلغ من النفوذ ما يقرب من نفوذ
الخلفاء الأولين لزمان معين ... » ، [صفحة ١٧٣] .

يستعمل الدكتور لوبون كلمات كنّا نتمنى ليبقى في مكانة العالم المنصف
بعيداً عن استعمالها ، من ذلك كلمة الهوس^(٥) ، وخصوصاً حين يتحدث عن
الرسول العظيم ﷺ ، وذلك أن محمداً ﷺ كان يجد في إيمانه وفي عقيدته وفي
رسالته ، ما يحفزُه على اقتحام كلِّ عائق ، ولم يكن يجد ذلك فيما سماه لوبون
(هوسه) ، ومثل هذه الكلمة تُقال لمن تدور في نفسه وأفكاره أمور غير واضحة ،
وتظهر بانفعالات مختلفة ، أمّا رسول الله ﷺ فما عرف في حياته قبل البعثة
وبعدها إلاً باتزان ، وحسن تفكير ، وبُعْدَ نظر ، ثمَّ جاءه الوحي السماوي ، فقام

(٢) يعني الأسود العنسي .

(٣) قتله فيروز الديلمي ، قال ﷺ : « إنَّ الله قد قتل الأسود العنسي ، قتله رجل مبارك من أهل
بيت مباركين ، قتله بيد رجل من إخوانكم ، وقوم أسلموا وصدقوا » ، قيل : ومن هو ؟
قال ﷺ : « فيروز ، فاز فيروز » ، [الطبري ٢٣٦/٣ ، الكامل في التاريخ ٢٣٠/٢ ، البداية والنهاية
٣١٠/٦] .

(٤) مسيلمة الكذاب في اليمامة ، لم يصف شيئاً إلى القرآن مطلقاً ، بل حاكاه ، فكانت مهزلة ، سخر
منها المسلم وغير المسلم ، [الكامل في التاريخ ٢٤٤/٢ ، البداية والنهاية ٣٢٦/٦ ، الطبري ٢٨٤/٣ ، الاكتفاء
١٦/٢] .

(٥) انظر هوس في اللسان : طرف من الجنون ، وكذلك القاموس المحيط ، ومختار الصحاح ، وأساس
البلاغة .

بتأدية رسالته كما أرادها الله تعالى أن تؤدَّى ، وامتلاً قلبه تصديقاً بها ، وإيماناً وإخلاصاً في تنفيذها حسب أمر الله له ، فهل يصحّ أو يليق لمؤرّخ منصف أن يكتب عن محمد ﷺ ، صاحب الأثر العميق في أمته والبشريّة جمعاء ، كما يكتب عن أناس دفعتهم أنانيّاتهم وعصبيّاتهم ومطامعهم إلى ادّعاء نبوّة كاذبة ، مثل الأسود العنسي ، أو طليحة بن خويلد الأسدي ، أو مسلمة الكذاب ؟!

إنّ بعض المستشرقين يتحدث عن محمد ﷺ وكأنّه يتحدث عن بطل مصلح ، أو قائد فاتح ، أو مبدع موهوب ، ويغفلون أو يتغافلون عن (الظاهرة القرآنيّة) أو عن (الوحي والنبوّة) ، وعندما يجدون أنفسهم قبّالها يقولون : القرآن تخيّلات في نوبات صرع^(٦) ، مع أن المصروعين حافظتهم معطّلة في نوبات صرعهم ، ومحمد ﷺ حافظته أجود ما تكون عند هبوط الوحي ، وهم لا ينكرون الوحي ظاهرة ، لقد اعترفوا به للأنبياء .

فلا هوس ، ولا صرّع .. ولو نزل القرآن العظيم اليوم ، بعد اكتشافات العلم المذهلة ، مع سبر أغوار الأرض والمحيطات ، والتحليق في أعماق الكون ، لما اختلفت نظراته إلى الكون ، أو الحياة ، أو الإنسان ، والمكابرة في هذه الحقيقة ، هي مكابرة في المحسوس الملموس ليس غير .

- ٢ -

ويقول الدكتور لوبون :

« ولا تفضّل مكّة على المدن العربيّة الأخرى بغير نظامها الكبير » ،

[صفحة ٦٩] .

« ويقع المبد الصّغير ، الكعبة ، في باحة الحرم المكي » ، [صفحة ٧٠] .

« ولا نعلم نصّباً كرّمه النّاس زمناً طويلاً كالحجر الأسود » ، [صفحة ٧١] .

(٦) وهذا ما ادّعاء : لامانس ، ونولدكه أيضاً .

- ٦٤ -

أولاً : عالم كبير ، نستغرب أن يقع بهذا الخطأ ، والتَّصوُّر الخاطئ لوضع مكة ، فلا يرى بأنها تفضل غيرها من المدن العربيَّة بغير نظامها الكبير ، وربَّما كان سبب ذلك أنه بعيد عن حياة مكة الدينيَّة ومكانتها بين العرب حتَّى قبل الإسلام ، فنسي أنها تفضل أئمة مدينة أخرى بما عرفته منذ نشأتها من قيام أول بيت وضع للنَّاس لعبادة الله ، وقد أقام إبراهيم وإسماعيل قواعد بيت الله الحرام - الكعبة المشرفة - فبقيت ، وما تزال ، عبر تاريخها الطويل مركزاً لعبادة الواحد ، أي مركزاً للتَّوحيد ، ثمَّ أصبحت قبلة للمسلمين ، ومحجاً لهم ، إحياءً لعقيدة التَّوحيد التي دعا إليها إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام ، وجاء محمد ﷺ ليؤكد هذا المعنى ، وهذا الدور العظيم لمكة المكرمة .

ثانياً : ليست الكعبة معبداً ، وإنَّما هي بناء حجري في وسط حَرَم ، هو بيت الله الحرام ، أو البيت العتيق ، ولم تكن الكعبة إلا مركزاً لذلك المعبد ، يرمز إلى وحدانيَّة الله ، يطوف بها المؤمنون لآعبادة لها ، ولا تقديساً لحجارتها ، وما نظنُّ عاقلاً يمكن أن يدور في خلدِه أن الله سبحانه وتعالى أراد تقديس البيت الحرام لحجارتِه وجدرانِه ، إنَّما القدسيَّة للأمر الإلهي وحده .

ثالثاً : الحجر الأسود ليس نُصباً كما تصوَّره لوبون .

النُّصب : كل ما عُبِدَ من دون الله تعالى ، والجمع أنصاب ، والنُّصب : الآلهة التي كانت تعبد من أحجار ، والأنصاب : حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيَهْلُ عليها ، ويذبح لغير الله تعالى ، [اللسان : نصب] .

ومن المعلوم المعروف أنَّ العرب اتَّخذوا آلهتهم في الجاهليَّة من أشياء لا تحصى ، ومع ذلك لم يروا مطلقاً أن الحجر الأسود كان ضمن آلهتهم ، بل كانت له مكانة خاصَّة محترمة ، لأنَّه من بقايا بناء إبراهيم للكعبة .

فالحجر الأسود ، حجر عادي ، يختلف بلونه عن بقيَّة حجارة الكعبة ، لأنَّه

من أسسها ، جُعِلَ بدايةً للطَّواف حولها ، ليستطيع الحاجُّ الطَّائف معرفة عدد مرَّات الطَّواف ، فتميَّز الحجر الأسود عن بقيَّة حجارة الكعبة ، واعتبر مركزاً لتنظيم الطَّواف ، وبقي الحجر الوحيد الَّذي لم يتغيَّر مكانه كلما أُعيد بناء الكعبة أو إصلاحها .

وقف عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يوماً أمام الحجر الأسود ، وقال : « إنِّي أعلم أنَّك حجر لا تضرُّ ولا تنفع ، ولولا أنَّني رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلُك ماقبَّلْتُك » .

فاستلام الحجر الأسود في الحجِّ لا يرجع إلى تقديس الحجر ذاته ، إنَّما يرجع إلى اعتبار رمزي تاريخي .

- ٣ -

« وكان من دواعي الفخر عند العرب تزيين الكعبة التي كان اليهود شديدي التعظيم لها أيضاً » ، [صفحة ١٢٤]^(٧) .

لاندرى من أيِّ المصادر اقتبس مؤرِّخنا (غوستاف لوبون) خبر تعظيم اليهود للكعبة ، وما عرفنا مطلقاً في تاريخ اليهود ، وفي تاريخ الكعبة ، أيَّة صلة ، أو علاقة بينهما ، ولم يكن لليهود عبر تاريخ ديانتهم أيَّة عبادة أو تقديس أو تعظيم للكعبة ، حتَّى توراتهم^(٨) عندما ذكرت إبراهيم وهاجر وإسماعيل ، لم تذكر أيَّ كلمة عن الكعبة أو تقديسها .

(٧) ويذكر في هذه الصَّفحة ذاتها [١٢٤] ، أنَّ إبراهيم ذبح ابنه إسحاق ، والصَّواب : إسماعيل ، كما جاء في القرآن الكريم ، الَّذي ثبت علمياً أنَّ كلَّ ما فيه ، أحداث وظواهر ، حقيقة لا يدنو منها شكٌّ أو ريب مطلقاً .

(٨) سفر التكوين . الفصل ١١ وما بعده .

لقد اقتصر تاريخ الكعبة على علاقة بينها وبين إبراهيم عليه السلام : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [البقرة 129 - 132/2] .

ثم جدّد هذه العلاقة القائمة على عبادة الله وتوحيده ، النبي محمد ﷺ ، وليس لليهود آية حيلة من قريب أو من بعيد بالكعبة .

أمّا إن كان لوبون يشير بقوله : « ألتي كان اليهود شديدي التعظيم لها أيضاً » ، إلى جمع من رجالهم ، منهم سيدهم حيي بن أخطب النضري ، وعظيمهم سلام بن مشكم ، ورئيسهم كنانة بن أبي الحقيق ، وهوذة بن قيس الوائلي .. حين قدموا مكة على قريش ، يدعونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فقال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، وأحبُّ الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد ، وقال : لكن لانأمنكم إلا إن سجدتم لأهتنا حتى نطمئن إليكم ، ففعلوا^(٩) .

إذا كان لوبون يشير إلى هذه الحادثة ، فقد أخطأ الدلالة ، فالحادثة تدلّ على سجود وفد اليهود - وهذا يخالف عقيدتهم كلياً - للأصنام ، لا اعتقاداً بها ، ولا تعظيماً للكعبة حيث هذه الأصنام ، بل حقداً على الإسلام وأهله ، ورجاء أن يحققوا ما جاؤوا من أجله ، ألا وهو تأليب قريش والقبائل العربيّة على النبي ﷺ ، والسّير إلى المدينة المنورة لاستئصاله كما زعموا .

(٩) كانت هذه الحادثة عندما جاء اليهود يحرضون قريشاً على قتال النبي ﷺ ، ونجحوا في جمع القبائل (الأحزاب) سنة ٥ هـ التي أطبقت على المدينة المنورة تريد استئصال الإسلام والمسلمين .

- ٤ -

« والحق أن وقت جمع العرب على دين واحد كان قد حان ، وهذا ما عرفه محمد ، وفي الوجه الذي عرفه فيه سرُّ قوّته ، وهو الذي لم يفكر قطّ في إقامة دين جديد خلافاً لما يقال أحياناً ، وهو الذي أنبأ الناس بأنّ الإله الواحد هو إله باني الكعبة ، أي إله إبراهيم ، الذي كان العرب يجلبونه ويعظمونه .

وعلاّم اتّجاه العرب أيام ظهور محمد إلى الوحدة السياسيّة والدينيّة كثيرة ، فحدث من الثّور بالأوثان في عهد قياصرة الرّومان ، حدث مثله في بلاد العرب ، حيث ضعفت المعتقدات القديمة ، وفقدت الأصنام نفوذها ، ودبّ الهرم في آلهتها ، والآلهة مما يجب أن يهرم » ، [صفحة ١٢٤] .

إنّ سرّ قوّة محمد ﷺ ليس في معرفته بأن وقت جمع العرب على دين واحد كان قد حان ، وإنما سرّ قوّته في إيمانه بصدق ما أوحى إليه مستمداً تلك القوّة من الله ، الذي امتلأ قلب محمد ﷺ إيماناً به ، وتسلياً لإرادته ، وتنفيذاً لتعاليله .

وإن الدّين الجديد لم يفكر محمد - ﷺ - بإقامته أو إقامة غيره ، بل ما فكر أثناء تحنّته في غار حراء إلّا بأن تلك الأوثان والأصنام ، ماهي إلّا حجارة لا تنفع ولا تنفع ، لا تنفع إن تركت ، ولا تنفع إن عبّدت ، في غار حراء « كان محمد - ﷺ - في حالة بحران ، فكان ينشد السّكون في تلك الجبال الّتي كان يذهب فيخلو فيها بنفسه متأمّلاً في السّماء ذات الكواكب ، مُنصتاً إلى ما كان يسمعه من أعماق قلبه ، وهو الرّجل الأمّي الفطري الصّادق ، وذلك الصّوت هو صوت الحقيقة الأبديّة ، الخارج من قلب الأشياء نفسها ، إنّه كان يرى تلك الأشياء في عصره على غير استقامة ، وقد كان هو لا يطيق غير الحقّ ، والحقّ الذي لا جدال فيه ، وكان لا يقدر أن يعيش إلّا في علم الحقيقة ، وكان يرى أن كلّ ما حوله من الأحوال لم يكن بحقّ ، فالحيّة الّتي عليها قريش لم تكن حياة صحيحة : متولّين

يبعثون بقوافل للتجارة ، ويربحون أرباحاً فاحشة ، وبوادٍ يشنون الغارات ، ولا يعرفون إلا الفوضى ، وأفاقون يفعلون كل ما يخطر ببالهم ، وكل هؤلاء لا يحيون حياة صحيحة ، وينسون أن الأصنام المصنوفة في الكعبة ، ليست إلا معبودات باطلة ، وإن الهبل ذا اللحية الكبيرة لم يكن إلا باطلاً^(١٠) ، ثم جاءه ﷺ الوحي يحمل إليه رسالة الله الواحد ، تلك العقيدة التي كان قد دعا إليها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

أمّا ما يذكره لوبون ، من أن العرب أتجهوا قبل ظهور محمد ﷺ إلى وحدة سياسية ودينية ، وثورة منهم على الأوثان ، وأن الأصنام فقدت نفوذها ، فربما كان العكس هو الأصح ، فقد كان العرب في حال من التجزئة السياسية والقبلية ينذر مثلها ، كما كانت الكثرة منهم على تمسك بأصنامهم وأوثانهم ، ومن كان على شيء من الوعي قال عنها : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر ٢٣٩] .

فأين لمس لوبون بوادر الوحدة السياسية والدينية ؟

وأين رأى أو قرأ بوادر الكفر بالأصنام والأوثان لدى عامة عرب الجزيرة ، وقد قامت قريش - والقبائل معها - تقاتل محمداً ﷺ بكل قواها ، وبكل ما يمكن من تعبئته وحشده ، لأنه سفه أحلامهم التي تعبد أصناماً ، وتركع أمام أنصاب ، وتذبح لأوثان ؟

لقد وصل الأمر ببعض قبائلهم إلى الإيمان بنبوة محمد ﷺ ، ودعوته الجديدة ، على أن يترك لهم صنماً يعبدونه ، أو وثناً يقدسونه .

(١٠) حاض العالم الإسلامي ٤٧/١

- ٥ -

« وتقول القصة إن محمداً سافر مرة مع عمه إلى سورية ، فتعرّف في بُصرى براهب نسطوري في دير نصراي ، فتلقّى منه علم التّوراة » ، [صفحة ١٣٠] .

« وتهياً له - ﷺ - بذلك السّفر إلى سورية والاجتماع مرة ثانية بالراهب الذي أطلعه سابقاً على علم التّوراة ... » ، [صفحة ١٣٠ أيضاً] .

ليت الكاتب الكبير غوستاف لوبون ، لم ينزلق إلى مهاوي المستشرقين الذين لم يحكموا المنطق والعقل والتّاريخ عندما ألفوا - أولفّقوا - هذه الشُّبهة ، ليته تحرّى الحقيقة قبل أن يسجّل تلك العبارات التي تقول بأنّ محمداً ﷺ تعرّف في بُصرى على راهب نصراي ، وتلقّى منه علم التّوراة .

ونحنُ نتمنّى له ذلك ليبقى في مستوى علمي رفيع ، ولكي لا يهبط إلى مستوى المستشرقين المبشرين الذين لم يتجرّدوا عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة ، ولم يتخلّوا عن الأفكار المسبقة ، والذين أصيبوا - عن قصد وتصميم - بداء الأحكام المسبقة ، هذا الدّاء الذي استعصى شفاؤه على كبار النّطاسيين الحكماء ، رغم جهودهم العلميّة المضنية .

فلو تحرّى (لوبون) الحقيقة ، لعرف أنّ محمداً ﷺ حين رافق عمه أبا طالب ، كان ولداً صغيراً لا تسمح سنّه بتلقّي كتاب ساوي كبير هو التّوراة ، ولم يكن هذا اللّقاء إلّا لقاءً عابراً ، والقصة كانت بين الرّاهب بحيري وأبي طالب ، وبوجود رجال القافلة القرشيين ، وما دام (لوبون) يتحدث عن القصة ويقرّها ، فعليه أن يؤمن بنبوّة محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب - ﷺ - ، لأنّ تلك الرّواية تقول إن الرّاهب بحيري عرف في ذلك الولد الصّغير - محمّد ﷺ - علامات النّبوة ، وحذّر عمه من كيد يهود ، فهل نأخذ جزءاً من الرّواية ، ونترك جزءاً آخر ؟

- ٧٠ -

وتقول القصة هنا : إنه - ﷺ - تلقى منه علم التّوراة ، فلماذا لم يتلقَ منه الإنجيل ، خصوصاً وأنّ الرّاهب نصراني نسطوري^(١١) ؟ فلماذا قصرت الرواية قولها على التّوراة ؟

والأمر الآخر ، لوأنه ﷺ تلقى علم التّوراة من بحيرى في بصرى ، لجاء في القرآن الكريم الكثير الكثير مما يخالف العلم الحديث ، كما هي الحال بالنسبة للتّوراة ، حسب الدّراسات الحديثة المستفيضة ، ومنها مانجده في كتاب الدكتور موريس بوكاي : (دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة) ، علماً بأنّ الكشف العلميّة الحديثة تكشف كلّ فترة وأخرى عن صحّة اللّفتات العلميّة الكونيّة والطّبيّة .. الّتي وردت في القرآن الكريم ، كلّ ذلك يدلّ على أنّ القرآن الكريم كتاب الله المُنزل على محمّد ﷺ ، وليس من عند بشر .

(فتلقّى منه علم التّوراة) ، تزيف يدلّ على ما كان لليهود من يدٍ في اختلاقه ، وصياغته ، بالشّكل الّذي يناسب مصالحهم ، ويحقّق أغراضهم ، ويظهر هذا التّزيف اليهودي أكثر في اللّعب بروايات التّاريخ في العبارة التّالية ، الّتي أوردها (لوبون) في الصّفحة ذاتها ، والّتي تقول : إنّ محمّداً ﷺ تيّاً له لقاء الرّاهب مرّة أخرى في سفره إلى سوريّة ، وهذه دسيّة أخرى ، حيث تجمع روايات التّاريخ الّتي جاءت على ذكر تفاصيل سيرة محمّد ﷺ ، على أنّه لم يقيم بزيارة إلى بلاد الشّام بعد زيارته الأولى وهو صغير مع عمّه ، إلّا بزيارة واحدة فقط ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، بتجارة للسّيّد خديجة بنت خويلد ، وكان يرافقه فيها (ميسرة) أحد غلمانها ، ولم يذكر في هذه الرّحلة الّتي

(١١) النّساطرة : ينسبون إلى نسطور Nestorius [نحو ٣٨٠ - ٤٥١ م] ، بطريرك القسطنطينيّة سنة ٤٢٨ م ، قال بأقنومين في السيّد المسيح ، وأنكر على مريم لقب أمّ الله ، حرّمه مجمع افسوس سنة ٤٣١ م ، يقيم النّساطرة في العراق ومنهم طائفة تقيم في الهند وإيران ، [محاضرات في النّصرانيّة ، ص ١٥٦] .

استغرقت أياماً ، أي شيء عن لقاء جديد مع هذا الرَّاهب ، لأنه لقي وجه ربّه منذ سنوات ، وأضحت عظامه في الثرى رمياً .

ولنفرض جدلاً - لا حقيقة - أنه لقيه لساعات ، فهل أعطاه خلالها رسالة أكثر مما عنده ؟ وهل بقيت تلك الرسالة ، أو العلوم ، كامنة خمسة عشر عاماً ، لتظهر بعد ذلك على شكل رسالة جديدة ، تختلف اختلافاً كبيراً بتشريعاتها الدنيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة ، عن تلك التي كان يدعو لها ذلك الرَّاهب النسطوري وأمثاله ؟

وأين نجد اللقاء بين ما كان عند بحيرى وأمثاله من خلافات حول طبيعة المسيح عليه السّلام ، وبين ما جاء في رسالة محمد ﷺ عن المسيح عليه السّلام ، وعن كونه عبد الله ورسوله ؟ وأين هي تعاليم الإسلام وتشريعاته في جوانب الحياة المختلفة مما كان عند أصحاب التّوراة والإنجيل ؟

يقول (كارادوفو)^(١٢) عن قصّة بحيرى الرَّاهب : خرافة ، وكيف لا تكون خرافة القصّة التي تجعل بحيرى الرَّاهب الأعجميّ ينطق بمثل القرآن - الكريم - الذي عجزت عنه مصاقع^(١٣) خطباء العرب ، وفحول شعرائهم أفصح وأبلغ ما كانوا .

وما يثبت خرافة : فتلقّى محمد ﷺ من بحيرى الرَّاهب علم التّوراة ، النقاط المختصرة التّالية^(١٤) :

(١٢) مفكّرو الإسلام ، [حاضر العالم الإسلامي ٤٠/١] .

(١٣) البصق : البليغ الماهر في خطبته ، والصق : البلاغة في الكلام والوقوع على المعاني ، [اللسان : صنع] .

(١٤) لأننا عاجلنا الأمر بشكل مفصل في كتاب : (الإسلام في قصص الأنبياء) .

- ١ - لماذا لم يجمع بحيرى قومه الرُّوم من حوله ، بعد أن يدَّعي هذه العلوم التي قدَّمها لمحمد ﷺ ، فيغلب من سواهم ؟
- ٢ - وهل بحيرى رئيس أكاديمية لتخريج أنبياء ، وكتب معجزة ؟
- ٣ - ولماذا لم يخرج عشرات الأنبياء ، واكتفى بواحد فقط ؟
- ٤ - زمن الزيارة قصير جداً ، وحجم القرآن الكريم كبير ، فلو اختار بحيرى شاباً قارئاً متعلماً لتسهل المهمة المزعومة !!
- ٥ - وما العلاقة بين محمد ﷺ وبحيرى ؟ مانوعها ؟ ومتى بدأت ؟ ولم اختار بحيرى غلاماً من مكّة ؟
- ٦ - لقد كان رجالات القافلة القرشيون خلال اللقاء ، فلو أعطاه (علم التّوراة) ، لقالوا ذلك لقريش خاصّة ، والعرب عامّة ، عندما أعلن ﷺ نبوّته !!
- ٧ - وأحداث ما بعد الهجرة ، هذا السّيل المزدحم من الأحداث ، أين بحيرى منها ؟
- ٨ - والإعجاز الغيبي والعلمي الذي نراه في القرآن الكريم ، فوق طاقة البشر وقدّرتهم .
- ٩ - ومن أين لأعجمي كبحيرى هذا الإعجاز اللّغوي ؟
- ١٠ - والتّحدي قائم لكلّ البشر ، وفي كلّ زمان ومكان ، والباحث عن (هويّة النصّ القرآني) ، علمياً وفكرياً ، وبتجرّد وموضوعيّة ، بعيداً عن : (داء الأحكام المسبقة) ، يجد نفسه أمام نصّ موحى ، إلهيّ سماويّ ، نزل على قلب المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ .

ويجد الباحث في هذه القصّة ، أن بحيرى هو المستفيد الأوّل والأخير من لقائه بمحمّد ﷺ ، فلولا هذا اللقاء ، لاندثر اسمه كما اندثرت أسماء ألوف الرهبان من قبله ، ومن بعده .

هذا ... وإرجاع القرآن الكريم إلى عناصر يهوديّة أو نصرانيّة أمر قديم جديد ، قاله كثيرون من المستشرقين ، وردّده كلُّ المبشّرين .

قاله جولدتسهر : « فتبشير النّبي العربي ليس إلّا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينيّة ، عرفها بفضل اتّصاله بالعناصر اليهوديّة والمسيحيّة الّتي تأثّر بها تأثراً عميقاً .. » (١٥) .

وتكلّم بلاشير عن التّشابه مع القصص اليهودي والمسيحي (١٦) .

وقرّره فيليب أرلنجي : كان محمّد في المدينة تلميذاً لليهود ، وهم الّذين كوّنوه (١٧) ..

وقاله يوليوس فلهاوزن ، والأب لامانس ، والدكتور بروز أستاذ الفقه الإنجيلي في جامعة بيل ، وسيديو : « ألهم محمّد المبادئ اليهوديّة والنّصرانيّة فأقام ديناً بعيداً عن الخوارق .. » (١٨) .

أمّا شاخت في كتابه : (أصول الشّريعة المحمديّة) The Origins of Muhammdom Jurisprudence فقد صاغ نظريّة عن أصول الشّريعة (المحمديّة) ، حاول خلاله أن يقتلع جذور الشّريعة الإسلاميّة ، ويقضي على تاريخ التّشريع الإسلامي قضاء تاماً ، وظنّ المستشرقون أنّ شاخت جاء

(١٥) مناهج المستشرقين ٣١/١

(١٦) المرجع السابق ٣١/١ أيضاً .

(١٧) المرجع السابق ٣٢/١

(١٨) تاريخ العرب ٥٨ ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٩ م .

بما لا يأتيه الباطل ، وأنه قدّم نظريّة غير قابلة للدّحض في إطارها الواسع^(١٩) ، حتّى إنهم لم يسمحوا لطالب في جامعة لندن ، ولا في جامعة كمبرج ، اللّتين ترفعان لواء الحرّيّة والتّجرّد في البحث العلمي ، أن يجعل موضوع أطروحته دراسة نقدية لكتاب شاخت : (أصول الشريعة المحمّديّة)^(٢٠) !!

ومن المضحكات في هذا الصّدّد :

اكتشاف كليمان هوار^(٢١) مصدراً جديداً للقرآن الكريم ، إنّه شعراً أميّة بن أبي الصّلت^(٢٢) ؟! الّذي عاش في صدر الإسلام ، وتوفي بعد الهجرة متأثراً بما سمع من القرآن الكريم .

وصدور كتاب عن جامعة كمبرج ، تحت عنوان : (المهاجرة ، وتكوين العالم الإسلامي) : [Hagariem , The Making of the Islamic World] ، بقلم باتريشياكرون ، وميكل كول ، وما جاء فيه :

(١٩) وصف (جوزيف شاخت) علماء المسلمين كافة في كتابه المذكور ، وخلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، بأنهم كانوا كذّابين ملفّقين غير أمناء .

(٢٠) مناهج المستشرقين ٦٨/١

(٢١) المرجع السّابق ٣٣/١

(٢٢) أميّة بن عبد الله أبي الصّلت بن أبي ربيعة بن عوف الثّقفي [ت ٥ هـ = ٦٢٦ م] شاعر جاهلي حكيم ، من أهل الطّائف ، كان مطّلعاً على الكتب القديمة ، يلبس المسوح تعبّداً ، وهو من حرّموا على أنفسهم الخمر ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهليّة ، ورحل إلى البحرين فأقام ثمانين سنين ظهر في أثنائها الإسلام ، وعاد إلى الطّائف ، فسأل عن خبر محمّد بن عبد الله ﷺ فقيل له : يزعم أنّه نبّي ، فخرج حتّى قدم عليه بمكّة وسمع منه آيات من القرآن الكريم ، وانصرف عنه ، فتبعته قريش تسأله عن رأيه فيه ، فقال : أشهد أنّه على الحقّ ، قالوا : فهل تتّبعه ؟ فقال : حتّى أنظر في أمره ، وخرج إلى الثّام ، وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة . وحدث وقعة بدر الكبرى ، وعاد أميّة من الثّام يريد الإسلام ، فعلم بمقتل أهل بدر وفيهم ابن خال له ، فامتنع ، وأقام في الطّائف إلى أن مات .

وهو أوّل من جعل في أوّل الكتب : بآسّمك اللّهم ، فكتبتها قريش ، [الأعلام ٢٣/٢] .

الإسلام دين وضعي ، أُسِّت قواعده في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان^(٢٣) ، أمّا ما كان قبل ذلك ، فقد كان شيئاً اسمه (الهاجرية) ، الهاجرية هي عبارة عن كلام كتبه ذيبوس (!) يقول فيه إنّ النبيّ محمد بشر بدين يُعدّ استكمالاً للديانة الهاجرية ، وأنّ هذا الاسم ينسب إلى السيّد هاجر زوجة إبراهيم ، وأمّ إسماعيل .

ويصل التّضليل والافتراء ، بل والكذب والدّجل ، بالكاتبتين إلى حدّ التشكيك بلاسندٍ أو دليل ، في حدوث الهجرة النبويّة ، ويقولان : إنّ اسم هاجر هذا تمّ تحريره بعد ذلك ، في القرن الثّامن الميلادي ، ليعطي معنى الهجرة من مكّة إلى المدينة ، وهي واقعة يُشكّك فيها الباحثان (العظيان) ، ويحاولان الادّعاء بأنّ الهجرة النبويّة إلى يثرب لم تحدث قط .

ويقولان : إنّ مصادرنا ليست مصادر يهوديّة ، وهذا النّفي وحده يكفي ، يكاد المريب أن يقول خذوني ، ويقولان : مصادرنا قبطيّة وأرمنيّة وسُرّانيّة مجهولة ، أهملها المؤرّخون .

وليس أدلّ على ضلال هذه الوجهة وكذبها ، من أنّ هذه المصادر لو كانت موجودة فعلاً ، لنشروها ، وقد نشروا ما هو أتفه منها ، ألم نقل إنّها من المضحكات !!

إنّ حديث المستشرقين عن إسلام مسيحي أو يهودي ، أمر ينقضه البحث المجرّد ، ويردّه الّذين أسلموا من الطّرفين ، فلو لم يَرَهؤلاء أنّ الإسلام دين

(٢٣) عبد الملك بن مروان [٢٦ - ٨٦ هـ = ٦٤٦ - ٧٠٥ م] ، انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ هـ ، فكان شديداً على معانديه ، قويّ الهيبة ، تُقلّت في أيّامه الدّواوين من الفارسيّة والرّوميّة إلى العربيّة ، وضبطت الحروف بالنّقاط والحركات ، وهو أوّل من صكّ الدّنانير في الإسلام ، [الأعلام ١٦٥/٤] .

جديد ، نظرتة إلى الكون والحياة والإنسان تختلف عن نظرة المسيحية واليهودية لما اعتنقوه^(٢٤) ، وهم من الذين شهد لهم الناس برجاحة عقلمهم ، وعمق فلسفتهم .

فلئن كان هدف موسى عليه السّلام حرّية قوم ، دون الالتفات إلى البشريّة^(٢٥) .

وهدف عيسى عليه السّلام إلقاء المواعظ في الحبّة .

فإنّ هدف محمد ﷺ شيء آخر ، لا تستقيم الحرّية بدونه ، ولا تتمّ الحبّة ، ولا أي خلق كريم آخر من غيره ، لقد كان هدف المصطفى ﷺ إطلاق العقل من عقالة ، وتنمية سلطانه ، حتّى يبلغ حدّ الكمال في حبّه للحقيقة ، وفي بحثه عنها ، وفي اتّباعه لها ، وفي نشره إيّاها ، بما يحقّق السّعادة والطّمانينة للإنسانيّة جمعاء ، وإن فتّش الإسلام عن قاضٍ ليحكم بمصدره الإلهي ، فإلى العقل مرجعه ، وإذا حاجّ فبحكم العقل ، وإذا سخط فعلى معطلي العقل ، وإذا رضي فعن أولي العقل .

- ٦ -

« ولم يخبرنا التاريخ عن مسيرة محمّد في السّنّوات الخمس عشرة ، التي انقضت بعد زواجه بخديجة ، ويفترض ، وإن لم يقيم دليل على ذلك أنّه كان يفكر في أثنائها في مبادئ دينه الذي سيكون زعيمه ، ولم يبيّد منه في تلك السّنّوات أيّ نفور من عبادات العرب مع ذلك ، كما أنّه لم يقع فيها ما يدلّ على تفكيره في قلب تلك العبادات رأساً على عقّب » ، [صفحة ١٢١] .

(٢٤) الحوادث التاريخيّة يجب أن تكون خطوطها الرئيّسة متشابهة ، كخلق آدم ، وخروج بني إسرائيل ..

(٢٥) حتّى إلههم (يهوه) إله محليّ خاص باليهود فقط ، وهم الصّفوة ، والعالم كلّ مسخر لهم .

إنّ تناقضاً واضحاً وقع به (لوبون) في المقطع السابق ، حيث يقول : إنّ محمداً ﷺ كان يفكر في أثنائها ، أثناء السنوات الخمس عشرة التي انقضت بعد زواجه من خديجة ، في مبادئ دينه الذي سيكون زعيمه ، ثمّ يقول : إنّهُ لم يقيم فيها ما يدلّ على تفكير في قلب تلك العبادات رأساً على عقب .

فإن افترضنا قبول ما يقول ، فكيف يفكر محمداً ﷺ في إقامة دين على أسس الوحدانيّة ، وعدم الشّرك بالله تعالى ، ثمّ نقبل أنّ هذا التّفكير لا يقلب عبادات مجتمعة رأساً على عقب ، فالوحدانيّة لله الخالق العظيم ، لا تتفق أبداً مع عبادة الأصنام والأوثان ، التي كان عليها عرب ما قبل الإسلام .

وليس صحيحاً أنّ الأخبار عن سيرة محمداً ﷺ في السنوات الخمس عشرة التي انقضت بعد زواجه من خديجة غير متوفرة ، فلو عاد (لوبون) إلى المصادر التي أخذ منها أخبار محمداً ﷺ قبل هذه الفترة وبعدها ، لوجد فيها أخباره ﷺ دون انقطاع ، وكان على (لوبون) ألا ينسى أنّ النّبيّ ﷺ بعد زواجه من خديجة ، تهيأ من مالها ما جعله أكثر تفرّغاً للتّحنّث في غار حراء ، بعيداً عن صخب مكة ، هذه المدينة الصّاخبة دينياً وتجاريّاً ، وفي غار حراء كانت العناية الإلهيّة تهيم بمحمداً ﷺ لحمله رسالة السّماء إلى النّاس كافّة ، كما حمل قبله موسى عليه السّلام رسالة السّماء إلى قومه ، وكما حمل عيسى عليه السّلام أيضاً رسالة السّماء إلى قومه ، فهل تقول إنّ العناية والقدرة الإلهيّة تجلّت لموسى وعيسى عليهما السّلام ، ونؤمن بذلك ، ثمّ نرفض ما يشبه ذلك لمحمداً ﷺ ؟!

ألا يكفي دليلاً على تفكير محمداً ﷺ بخطأ عبادات قومه ، وإنكاره لها ، أنّه ما سجد قبل بعثته لصمٍ أو وثن ؟

لقد اتّفقت الأخبار على أنّ محمداً ﷺ كان في الدّرجة العُلّيا من شرف النّفس ، وكان يلقّب (بالأمين) ، أي الرّجل الثّقة المعتمد عليه إلى أقصى درجات الثّقة ، أي إنّهُ المثل الأعلى في الاستقامة .

وفي مكة استمرّ الأمين ﷺ بتجارته مع شركاء منهم السائب بن أبي السائب (٢٦) .

ولم ينقطع ﷺ عن قومه في أعمالهم الجماعية ، وكان يحضر دار الندوة ، جاء وفد من اليمن ، ورأى فيه كبارهم - بدار الندوة - نظرات قويّة أحياناً ، وهادئة مستبشرة أحياناً أخرى ، فقال أحدهم : مالي أرى هذا الغلام تارة ينظر إليكم بعيني لبؤة ، وأخرى بعيني عذراء خفرة^(٢٧) ، والله لو أنّ نظرتي الأولى كانت سهاماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً ، ولو أنّ نظرتي الثانية كانت نسيماً لأنشرت أمواتكم .

لقد عاش ﷺ أحداث قومه وبيئته كلّها ، ولم يكن (الأمين) نكرة في مجتمعه الذي وُلد وشبّ فيه ، وأخبره في كتب السيرة متوفّرة للباحث عنها ، وما درست سيرة رجل في العالم كما درست سيرته ﷺ ، حتّى في دقائق الأمور وتفصيلها ، من الولادة إلى الوفاة .

- ٧ -

« كان محمد يقابل ضروب الأذى والتّعذيب بالصّبر وسعة الصّدر ، وكان يجتذب ببلاغته في كلّ يوم أصحاباً آخرين » ، [صفحة ١٣٣] .

لم يكن محمد ﷺ يجتذب ببلاغته النّاس ، بل كان يجتذب ببلاغة القرآن الكريم ، وسحر بيان القرآن الكريم ، وفصاحة آيات القرآن الكريم ، وروعها .

(٢٦) السائب بن أبي السائب ، شريك النّبي ﷺ قبل المبعث بمكة ، قال عنه ﷺ : « نعم الشّريك ، كان لا يُشاري ولا يُماري » ، أسلم وحسن إسلامه ، [أسد الغابة ٣١٥/٢] ، والمشارة : اللّجاج والمجادلة بالباطل .

(٢٧) الخفر : شدّة الحياء ، [اللسان : خفر] .

ولو كان الأمر « اجتذاب ببلاغة بَشَر » لقدر عليه الكثير من فصحاء العرب وخطبائهم ، لكن التَّحْدِيَّ جاء من قبل من لا يستطيع أحد من مخلوقاته أن يقف أمام تحدّيه ، إنَّه الله قَيُّومُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، الَّذِي بعثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ ، وأنطقه بآيات القرآن الكريم ، فكان وما يزال ، المعجزة الخالدة لنبوّة محمد بن عبد الله ﷺ :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا - وَلَنْ تَفْعَلُوا - فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿ [البقرة ٢٣/٢ - ٢٤] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فَلْيَأْتُوا بِخَبَرٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿ [الطُّور ٣٣/٥٢ - ٣٤] .

وَأين بلاغته ﷺ قبل البعثة ؟ ولماذا لم يجتذب بها أهل مكّة ؟

إنَّه اجتذب العربَ بالقرآن الكريم ، ولو كان القرآن من كلام محمد ﷺ لكان أسلوبه وأسلوب الأحاديث سواء ، ومن المُسَلَّم به لدى أهل البصر الأدبي ، والباع الطويل في اللُّغة ، أنَّه من المتعذّر على الشَّخص الواحد أن يكون له في بيانه أسلوبان يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً جذرياً .

وكان كبراء قريش يجذبهم القرآن الكريم لاستماعه ، وإن لم يؤمنوا ، لقد سمعه الوليد بن المغيرة^(٢٨) ، فقال لقريش في وصفه : إِنَّ له حلاوة ، وإنَّ عليه

(٢٨) الوليد بن المغيرة [٩٥ ق . هـ - ١ هـ = ٥٣٠ - ٦٢٢ م] : من قضاة العرب في الجاهليّة ، ومن زعماء قريش . يُقال له (العدل) لأنّه كان عدل قريش كلّها ، كانت قريش تكسو البيت جميعها ، والوليد يكسوه وحده ، وكان من حرّم الخمر في الجاهليّة ، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم ، فعاداه وقاوم دعوته ، قال ابن الأثير : وهو الَّذِي جمع قريشاً وقال : إِنَّ النَّاسَ يَأْتُونَكُمْ أَيَّامَ الْحِجِّ ، فَيَسْأَلُونَكُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ ، فَتَخْتَلِفُ أَقْوَالُكُمْ فِيهِ ، فيقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : =

لطلاوة ، وإنّ أعلاه لمثمر ، وإنّ أسفله لمغدق^(٢٩) ، وإنّهُ ليعلو ولا يعلى عليه ، ما يقول هذا بشر ، وهو الذي جمع قريشاً وقال : إنّ الناس يأتونكم أيّام الحج ، فيسألونكم عن محمّد ، فتختلف أقوالكم فيه ، فيقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : شاعر ، ويقول هذا : مجنون ، وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ما قيل فيه : « ساحر » ، لأنّه يفرّق بين المرء وأخيه ، والزّوج وزوجته^(٣٠) .

لقد نفى الوليد بن المغيرة أن يكون القرآن شعراً ، ودفعته ل حاجته في الإنكار إلى أن يقول إنه سحر ، وإن لم يرضَ بذلك الوصف للقرآن ابتداءً .

وضماد بن ثعلبة الأزديّ . كان رجلاً يتطبّب ويُرقي ، سمع سفهاء من أهل مكّة يقولون : إنّ محمّداً مجنون ، فقال : لورأيتُ هذا الرّجل لعلّ الله أن يشفيه على يديّ ، فلقبه فقال : يا محمّد ، إنّي أرقّي من هذه الرّيح ، وإن الله يشفي على يدي من شاء ، فهل لك ؟

فقال النّبيّ ﷺ : إنّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ومن يهْدِ الله فلا مضلّ له ، ومن يضلّل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأنّ محمّداً عبده ورسوله ، أما بعد .. فقال : أعيدُ عليّ كلماتك هؤلاء ، فأعادهنّ النّبيّ ﷺ ثلاثاً ، فقال ضماد : والله لقد سمعت قول الكهنة ، وسمعت قول السّحرة ، وسمعت قول الشعراء ، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، والله لقد بلغت

= شاعر ، ويقول هذا : مجنون ، وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ما قيل فيه : « ساحر » ، لأنّه يفرّق بين المرء وأخيه ، والزّوج وزوجته ، مات بعد الهجرة بثلاثة أشهر ، ودفن بالحجون ، وهو والد سيف الله خالد بن الوليد .

(٢٩) بغدق : الغدق : المطر الكثير العام ، وغدقت الأرض غدقاً وأغدقت : أخصبت ، [اللسان : غدق] .

(٣٠) ابن الأثير ٢/٢٦ ، اليعقوبي ١/٢١٥

غوستاف لوبون (٦)

فَاعُوسَ^(٣١) البحر ، فَمَدَّ يَدَكَ أَبَايَعَكَ عَلَى الْإِسْلَام ، فَمَدَّ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فَبَايَعَهُ ، فقال النَّبِيُّ ﷺ : وعلى قومك ؟ فقال : وعلى قومي^(٣٢) .

لقد كان ضِمَاد بن ثعلبة الأزدي يعرف مُحَمَّدًا ﷺ ، وسمع منه الكثير قبل النبوة ، ولكنه لم يقل : « فَمَدَّ يَدَكَ أَبَايَعَكَ » ، ولكنه عندما ضَمَّنَ ﷺ في حديثه لَضِمَاد جزءاً من آية من كتاب الله : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ... ﴾ [الإسراء ١٧/١٧] ، قال لمحمد ﷺ : « فَمَدَّ يَدَكَ أَبَايَعَكَ عَلَى الْإِسْلَام » ، وهو الذي سمع قول الكهنة ، وسمع قول السحرة ، وسمع قول الشعراء .

لقد سمع ضِمَاد بلاغة القرآن الكريم وإعجازه اللغوي الفريد .

- ٨ -

« اغتَمَّ مُحَمَّدٌ مَوْسِمَ الْحَجِّ فَدَعَا إِلَى دِينِهِ أَنْاسًا مِنَ الْيَمَنِ ، كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى مَكَّةَ بَعِينَ الْغَيْرَةِ ، فَيَنْتَظِرُونَ ، كَمَا كَانَ شَائِعًا بَيْنَهُمْ ، ظُهُورُ نَبِيٍّ ، فَاسْتَهْوَاهُمْ حَدِيثُ النَّبِيِّ فَاغْتَدَوْا هُوَ النَّبِيُّ الْمُنْتَظَرُ ، فَحَدَّثُوا بِذَلِكَ أَهْلَ يَثْرِبَ الَّتِي كَانَتْ تَأْكُلُهَا الْغَيْرَةُ مِنْ مَكَّةَ أَيْضًا ... » ، [صفحة ١٣٤] .

نعم كان مُحَمَّدٌ ﷺ يَغْتَمُّ مَوَاسِمَ الْحَجِّ ، لدعوة النَّاسِ إِلَى دِينِهِ ، وَالْإِيمَانِ بِنَبِيِّتِهِ ، وَالتَّسْلِيمِ بِوُجُودِ إِلَهٍ وَاحِدٍ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَكَانَ يَدْعُو إِلَى ذَلِكَ كُلِّ مَنْ يَصَادِفُهُ مِنْ حُجَّاجِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، الَّذِينَ يَقْضُونَ مَكَّةَ ، مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، لَكِنْ الَّذِينَ لَقِيَهُمْ فَاسْتَهْوَاهُمْ حَدِيثُهُ لَمْ يَكُونُوا أَنْاسًا مِنَ الْيَمَنِ ، إِنَّمَا هُمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ ، الَّذِينَ تَعُودُ أَصُولُهُمُ الْبَعِيدَةُ إِلَى الْيَمَنِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ مِنْ قِبَائِلِ يَثْرِبَ ، أَيْ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ .

(٣١) فاعوس البحر : وسطه .

(٣٢) أَسَدُ الْغَابَةِ ٥٦/٣

نعم لقد وقف ﷺ على منازل العرب في موسم الحج ، ودعاهم إلى الإسلام ، وعرض نفسه لكل قادم إلى مكة ، يتصدى له ، ويدعو إلى الله تعالى .

وتساءل : لماذا لم يجد (لوبون) سبباً لإقبال أهل يثرب على اعتناق الإسلام ، إلا غيرتهم من مكة ؟! ألا يمكن أن يردّ عليه : بأنّ هذا السبب وحده كان يومئذ كافياً لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ . لما كان للعصبية القبلية من آثار عميقة في نفوسهم ، فكيف يقبلون أن يزعموا ويملكوا عليهم رجلاً من قبيلة يحقدون عليها ، ويغارون منها ؟

ولو بحثنا عن الأسباب الحقيقية ، والتي دعت أهل يثرب إلى بيعة العقبة الأولى والثانية ، وإلى الإيمان بنبوة محمد ﷺ وصدق دعوته ، لوجدنا أنّهم أبناء مدينة سمعوا فيها الكثير عن ديانات سماوية ، وعن الله الذي يبعث أنبياءً ورسلاً لهداية الناس ، بل وسمعوا من أصحاب تلك الديانات وكتبها عن قرب ظهور نبي آخر الزمان .

لقد كان أهل يثرب أهل شرك ، وكان اليهود معهم في بلادهم أهل كتاب ، وكان اليهود يقولون لأهل المدينة إذا كان بينهم شيء : إنّ نبياً مبعوث الآن ، قد أظلم زمانه ، فتنبه فنفقتكم معه قتل عاد وإرم^(٣٣) ، فلما كلم ﷺ أهل يثرب ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمون والله إنّ النبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدّقوا ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام .

كما وجد أهل يثرب ، فيما دعاهم إليه محمد ﷺ ، ما يوحد صفوفهم ، وينهي خلافاً طويلاً بينهم ، وغير ذلك من عوامل الهداية والإيمان .

(٣٣) عيون الأثر ١٥٥/٢ ، ابن هشام ٥٤/٢ ، الكامل في التاريخ ٦٧/٢ ، الطبري ٣٥٥/٢

وبالمناسبة : أرسل ﷺ مصعب بن عمير إلى يثرب ، نتيجة لبيعة العقبة الأولى^(٣٤) ، فجمع الأوس والخزرج بنفسه ، فكانت العقبة الثانية^(٣٥) في الموسم التالي لبيعة العقبة الأولى ، وهي أخطر بيعة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، لقد فاجأت قريشاً ، فعلمت أن الأمر أفلت من يدها ، بعد أن بايع الأنصار النبي ﷺ : « أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » .

فَلِمَ كانت هذه الاستجابة الرائعة والسريعة من أهل يثرب ؟
ولِمَ أسلم في يثرب خلال عامين أكثر مما أسلم في مكة خلال ثلاث عشرة سنة ؟

١ - اختلاف البيئة والمناخ بين مكة ويثرب ، تركا أثراً كبيراً واضحاً - آنذاك - على طبائع السكان في كلتا المدينتين ، فعُرف أهل مكة بالشدة والصلابة في طبائعهم ، وبالقسوة والجفاف في معاملاتهم ، في حين عُرف أهل يثرب بلين الجانب ؛ وحسن المعاملة .

كما أن قريشاً جنت فوائد مالية ومعنوية عظيمة ، بسبب وجود أصنام العرب حول الكعبة ، فظننت أن مكانتها ستزول إن زالت الأصنام وحل التوحيد في ربوع مكة وما حولها .

٢ - وعقلية الأوس والخزرج كانت مهينة لظهور نبي آخر الزمان .

٣ - ووجد الأوس والخزرج في شخص محمد ﷺ بغيتهم المنشودة في القضاء على التنازع فيما بينهم ، خصوصاً وأمه ﷺ من بني النجار أحد بطون الخزرج .

(٣٤) وهي بيعة النساء ، كان فيها ١٢ رجلاً ، نُميت ببيعة النساء لوجود عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وهي أول امرأة بايعت .

(٣٥) وهي بيعة الحرب ، كان فيها ٧٣ رجلاً وامرأتان : نسيبة بنت كعب ، وأسما بنت عمرو بن عدي .

- ٩ -

« توالى الوقائع بين محمد وجيرانه ، وكانت كل مصيبة تصيبه يعقبها انتصار له في الغالب ، وكان يبدو رابط الجأش إذا ما هُزِمَ ، ومعتدلاً إذا ما نُصِرَ ، وهو لم يَقسُ على أعدائه إلا مرة واحدة ، حين أمر بأن تُضرب رقاب سبع مئة يهودي خانوه » ، [صفحة ١٣٥] .

من أين أتى (لوبون) بهذا الحكم : « وكانت كل مصيبة تصيبه يعقبها انتصار له في الغالب » ؟ فهل كانت الأمور مرتبة إلى هذا الحد ؟

لقد عدت بذاكرتي إلى أحداث السيرة الشريفة ، فلم أجد أثراً لهذا الحكم الذي يشوه الحقائق ، ولا يسيء ، إن صحَّ ، إلى الرسول الكريم ﷺ .

ولا نجد غير هزيمة المسلمين في غزوة أُحُد ، إذا اعتبرناها هزيمة^(٣٦) ، مصيبة أو هزيمة ، وكل ما عداها نجاح وانتصار ، نتيجة لسياسة كان محمد ﷺ يشرف على وضع خطوطها ، وتنفيذ مراحلها ، ترافقه عناية إلهية تؤكد صدق نبوته ، وقوة إيمانه .

ولو استعرضنا غزوات الرسول ﷺ ، ومواقفه المهمة ابتداءً من غزوة بدر الكبرى ، حتى غزوة تبوك ، لما وجدنا إلا سلسلة من الانتصارات تتلاحق ، لم يرافقها لدى صاحبها ﷺ أي غرور .

أمّا قول (لوبون) بأنَّ محمدًا ﷺ لم يَقسُ على أعدائه إلا مرة واحدة حين أمر بقتل سبع مئة من اليهود خانوه ، ويقصد بهم يهود بني قريظة ، فهو قول مرفوض ، فرسول الله ﷺ لم يكن قاسياً حتى في موقفه هذا .

(٣٦) لم تحقّق قريش ما أرادت في أُحُد ، لم تفتح طريق تجارتها إلى الشام ، ولم تنه دعوة الإسلام ، إلا أنها تأثرت لقتلها في بدر .

غزوة بني قريظة قصاص عادل لخيانة عليّة ، مع نقض معاهدة موقعة تعهّدوا بموجبها دعم المسلمين ، إذا داهمهم عدو : « وإنّ بينهم النّصر على من حارب أهل هذه الصّحيفة ، وإنّ بينهم النّصح والنّصيحة ، والبرّ دون الإثم .. » (٣٧) ، فأنحازوا إلى جانب العدو ، عندما رأوا عشرة آلاف مقاتل حول المدينة المنورة ، فظنّوا أنّ الأمر قد انتهى ، واستؤصل المسلمون عن آخرهم .

فقصاص بني قريظة ، يتناسب مع ضخامة الجرم ، وعندما حاصروهم ﷺ في صياصيههم (٣٨) ، وحكّم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه لم يسأل بنو قريظة رسول الله والمسلمين : لماذا هذا الحصار ؟ ولماذا هذه الحرب ؟ وبالتالي : لماذا هذا القصاص ، وهذا العقاب ؟

والجواب على هذا التّساؤل في عبارة واحدة موجزة قصيرة : إنهم أدري بما صنعوا (٣٩) ؟! فأَيُّ قسوة يتحدّث عنها (لوبون) ؟!

- ١٠ -

« عَظُمَ شأنُ مُحَمَّدٍ في عدّة سنوات ، وأصبح لا بدّ له من فتح مكّة حتّى يعمّ نفوذه ، فرأى أنّ يفاوض قبل امتشاق الحسام وصولاً إلى هذا الغرض ، فجاء إلى البلد المقدّس ومعه ألف وأربع مئة من أصحابه ، فلم يُكْتَب له دخوله » ، [صفحة ١٣٥] .

(٣٧) ابن هشام ١٠٧/٢

(٣٨) الحصون وكلّ شيء امتنع به ، وتحصّن به فهو صيغة ، [اللسان : صاص] .

(٣٩) ونحن هنا لن نعود إلى حكم التّوراة (العجيب) عندما يمتلك اليهود مدينة أو قوماً ، ولكن على سبيل المثال ، جاء في سفر التّثنية ١٥/١٣ و ١٦ : « .. فضرّباً تضرب سكّان تلك المدينة بحدّ السّيف ، وتحرّقها بكلّ ما فيها مع بهائمها بحدّ السّيف ، تجمع كلّ أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرّق بالنّار المدينة وكلّ أمتعتها كاملة للرّبّ إلهك فتكون تلاً إلى الأبد لا تُبْنى بعدُ .. » .

النبي الكريم ﷺ لا يسعى إلى مدّ نفوذه ، وليس غرضه أن يكون له نفوذ شخصي .

ولو عدنا إلى الحوادث التاريخية التي سبقت فتح مكة ، لتأكد لنا ذلك بوضوح ، فالفتح بالقوة ، واستعمال السلاح ، كان آخر ما يلجأ إليه رسول الله ﷺ ، وعودة بنا إلى صلح الحديبية ، ودراسة بنوده ، توضّح لنا ذلك ، كما تثبت لنا حكمة محمد ﷺ ، ونجاح سياسته القائمة على فتح القلوب ، قبل فتح الحصون والأسوار والمدن .

في جَوّ الحروب ، وسقوط الضحايا ، لانتشر المبادئ ، لتنافر القلوب ، وتعصّب النفوس ، وتشنّجها ، أمام هذا الواقع ، سعى ﷺ إلى تهينة الجوّ المناسب لنشر الإسلام ، فدّ يده ﷺ إلى قريش مظهراً منتهى الحنكة السياسية ، مع منتهى المرونة والتسامح ، وكسب ﷺ الرّأي العام ، عندما خرج باتجاه مكة ، وقد ساق الهدّي ، ليثبت للعرب كافّة تعظيمه للبيت الحرام ، مؤكداً لهم أنّ مكة ستبقى على مكانتها التي نالتها من وجود الكعبة المشرفة فيها .

لقد سار ﷺ ومن معه يريد مكة للعمرة ، وقريش هنا أمام خيارين لاثالث لهما : إمّا أن تمنعهم ، وإمّا أن تسمح لهم بدخول مكة ، فإن منعت قريش رسول الله ﷺ من دخول مكة ، كشف النبي ﷺ موقفها العدائي ، مثبتاً أنّ جَوّ الحرب ليس من صنع ﷺ ، بل هو من صنع قريش ومن معها .

وإن دخلها ﷺ ، فإنّه سيلتقي بأهل مكة ، وسيحادثهم المسلمون المعتمرون ، مما سيبدّد جَوّ التوتّر ويزيله بين الفريقين ، ودخول مكة يعني أيضاً تحقيق انتصار سياسي كبير ، فدخوله ﷺ مكة يعني عودته إلى حيث أُخرج على الرّغم من قريش .

وفي كلا الحالين ، سيكسب ﷺ الجولة على قريش ، فلا بُدّ من الحيلولة

بينه وبين دخول مكة بأيّ ثمن ، ولو كانت الحرب في الأشهر الحُرُم^(٤٠) ،
ولو تخرّج موقفها أمام القبائل بصدّها عن البيت العتيق منّ جاءه معظماً محترماً .

أرسلت قريش سهيل بن عمرو رئيساً لوفدها المفاوض ، وكانت تعليماتها إليه
واضحة : ائتِ محمّداً وصالحه ، يرجع عنا عامه هذا ، وإنّه إذا كان عام قابل ،
خرجنا منها ، ودخلها بأصحابه ثلاثة أيّام مع سلاح الرّاکب .

واتّفق الطرفان على وضع الحرب عن النّاس عشرين يّاماً فيها النّاس ،
ويكف بعضهم عن بعض ، وشرطوا أنّه من أحبّ أن يدخل في عقد محمّد وعهده
دخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

ولما انتهى تحرير الصّلح ، دخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ ، ودخلت
بنو بكر في عقد قريش وعهدهم .

« إنّ وضوح الرؤيا في الابتداء ، حقّق الهدف في الانتهاء » ، فصلح
الحديبية اعتراف رسمي موقّع من قريش ، بأنّ رسول الله ﷺ ومن معه ، قوّة
مستقلّة متميّزة ، ونظير قريش زعيمة القبائل ، وهذا يعني أيضاً ، أمام كلّ قوى
جزيرة العرب ، أنّ قريشاً قد اعترفت رسمياً بمن كانت تريد استئصاله ،
مما جعل القبائل العربيّة تعيد حساباتها .

وأثمر صلح الحديبية بأسرع مما كان متوقّعاً ، وبأعجب مما كان يتصوّره
إنسان^(٤١) ، لذلك خرقت قريش بنود الصّلح عندما حرّضت بكرّاً على خزاعة ،

(٤٠) الحذّيبية في ذي القعدة ٦ هـ .

(٤١) قال أبو بكر رضي الله عنه : « ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية » ، وقال محمد بن
سعد الزّهري في صلح الحديبية : « فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنّما كان القتال
حيث التقى النّاس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب ، وأمن النّاس بعضهم بعضاً ، والتّقوا
فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلّم أحدٌ بالإسلام يفعل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل
تبنك السّنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر » ، [ابن هشام ٢٠٦/٣ ، البداية
والنهاية ١٧٠/٤ ، الطّبري ٧٩/٣] .

فأصبح لا بُدَّ من فتح مكة لينهي أكبر معقل من معاقل ، الوثنيَّة ، وليعيد البيت الحرام كما كان عند تأسيسه ، رمزاً للتَّوحيد كما بناه إبراهيم وإسماعيل ، وكما أرادَه الله الواحد الأحد .

- ١١ -

« رأى محمد بعد ذلك الإخفاق^(٤٢) أن يُرَوِّح أصحابه ، فخفَّ بهم إلى مدينة خيبر المحصَّنة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي ، والبعيدة منها مسيرة خمسة أيَّام ، والتي كان يقطن فيها قبائل يهوديَّة ، والتي كانت مقرَّ تجارة اليهود ، ففتحها عُنُوَّةً » ، [صفحة ١٣٦] .

ما كنَّا نظنَّ أن الدكتور غوستاف لوبون يعالج دراسة الحوادث التاريخيَّة بمثل هذه البساطة ، ومُجانبه الحق .

أولاً : نريد أن نسأل (لوبون) : ماذا تعني بجملة « ورأى محمد بعد ذلك الإخفاق .. » ، أيُّ إخفاق تقصد ؟ أهو عودته من الحديبية مع أصحابه دون تأدية العمرة ؟

لقد عقد ﷺ صلحاً مع مشركي مكة ، وهو صلح الحديبية ، وهناك إجماع من كلِّ مؤرِّخ ودارس وباحث في هذا الصُّلح ، على أنَّه كان انتصاراً لمحمد ﷺ ، أثبت فيه بُعْدَ نظره ، وصواب سياسته ، ورجاحة عقله ، حتَّى أعتبر لدى أصحابه المؤمنين نصراً وفتحاً مبيناً ، لما تحقَّقت من ورائه وبسببه نتائج عظيمة ، كانت أعظم من انتصارات المعارك ، فهل يعتبر ذلك إخفاقاً ؟

ولست قريش نتائج الصُّلح الإيجابيَّة التي جاءت إلى جانب المسلمين ،

(٤٢) يعني عدم دخول مكة بعد توقيع صلح الحديبية .

فسمعت إلى تقضه بعد عامين اثنين فقط ، فلو كان صلح الحديبية إخفاقاً
لمحمد ﷺ ، ونجاحاً لقريش والمشركين ، فلماذا نقضته ؟

ويعتبر لوبون غزو اليهود في خيبر نزهة أراد بها محمد ﷺ أن يروّج بها عن
أصحابه ، فأين غاب الإنصاف عنه في هذه المسألة ، وهل كان الرسول
العظيم ﷺ يتسلّى مع أصحابه في جزيرة العرب ، ويغزو ليروّج عن أصحابه ؟
هل تناسى (لوبون) مواقف اليهود في الحجاز من النبي ﷺ ودعوته ؟

وهل غاب عنه مواقفهم بعد بدر الكبرى وأُخذ والخندق ؟ أما جعل وفد
اليهود برئاسة حَيٍّ بن أخطب لغطفان ، تحريضاً على الخروج ، نصفاً تمر خيبر
كلّ عام ؟ فجمع اليهود الأحزاب حول المدينة لاستئصال الإسلام وأهله ؟ وبعد
الخندق ، أقاموا تحالفاً يهودياً برئاسة خيبر ضمّ يهود تيماء وفدك ووادي القرى ،
مع غطفان ، تحت زعامة سلام بن مشكم ، هدفه غزو المدينة ، فهل غاب هذا كلّ
عن الدكتور لوبون ، وخفي عليه خطرهم الذي تتلّ بمواقفهم الكثيرة في الدسّ
والتآمر والكيد ، وتآليب القبائل ضدّ الدولة العربيّة الإسلاميّة الفتية ، وهل
نسّمى حربهم ، وردّ خطرهم ، وإنهاء تأمرهم ، ترويحاً عن النفس ؟

- ١٢ -

« ولما أحسّ محمد غزو سلطانه ، عزم على فتح مكّة ، فألّف جيشاً من
عشرة آلاف محارب ، مما لم يسبق له أن جمع مثله ، فبلغ أسوارها ، ففتح به مكّة
من غير قتال بقوة ماتمّ له من النفوذ » ، [صفحة ١٣٧] .

عاد (لوبون) إلى استعمال عبارة : « ولما أحسّ محمد غزو سلطانه ، عزم على
فتح مكّة » ، ولم يذكر سبب فتح مكّة الحقيقي ، لقد خرقت قريش بنود
الحديبية ، وانتهكت أهمّ بند فيه : « وضع الحرب عن الناس عشرين يوماً يأمّن فيها
الناس ، ويكفّ بعضهم عن بعض » ، لما سبق ، سار زعيم قريش أبو سفيان بن

- ٩٠ -

حرب ، وملكها غير المتوّج ، إلى المدينة المنورة ، علّه يصلح ماأفسده هو وقومه ، فعاد فاشلاً خائباً .

واستطاع رسول الله ﷺ أن يحشد أعظم جيش عرفته جزيرة العرب ، ليتحرّك وهو في أرقى مستوى من التّعبئة والسّلاح والطّاعة ، وقد جعل نصب عينيه فتح مكّة المكرّمة ، بأقلّ دماء وخسائر ممكنة .

وهل يتصوّر مؤرّخ منصف - مهما كانت عقيدته - أن تنتهك قریش بنود صلح الحديبية ، ويتركها ﷺ على تطاولها وغرورها ؟

ونعود إلى ماقاله (لوبون) لنقول : ما كان لنبيّ أرسله الله بالهدى ودين الحقّ أن يمدّ نفوذه أو سلطانه ، أو مايشبه ذلك من السّطوة الشّخصيّة ، أو الزّعامة الدّنيويّة ، إنّ محمّداً ﷺ يريد ولا شكّ أن يقضي على الوثنيّة أينما وُجِدَت ، فكيف وهي في بيت الله الحرام ، فمن الطّبيعي أن يفكر محمّد ﷺ بفتح قلوب القرشيين بالإسلام ، لالمدّ نفوذه وسلطانه الشّخصي ، بل لتحطيم أكبر معقل من معاقل الوثنيّة في جزيرة العرب ، وليعيد إلى البيت العتيق كلمة التّوحيد عالية لا تشوّها عبادة الأصنام والأوثان .

وصورة فتح مكّة لا تسمح بكلمتي : « سلطانه » و « نفوذه » ، قد « اذهبوا فأنتم الطّلقاء » الّتي قالها ﷺ لمن صادر أملاك المسلمين وباعها ، ولمن جمع قواته وسار إلى أحد ، ولمن جاء إلى الخندق مع اليهود وغطفان ليستأصل المسلمين وينهي وجودهم ، فأبى خُلِقَ تحلّى به محمّد ﷺ ، وأبى درس في العفو والأخوة والمحبة لقنه لقریش ؟! لقد فتح القلوب وامتلكها ، فهي الّتي جُبِلَت على حبّ من أحسن إليها .

وهذا موقف فريد على مرّ التّاريخ ، فيه سموّ لا يضاهيه سمو ، ورفعة لا يدانيها رفعة ، وعظمة لا تُشَبّه بها عظمة .

إنَّه موقف لا يقفه مَلِك ، أو زعيم ، أو قائد .. لا يقفه إلا نبيُّ مرسل ، رحمته من رحمة الله ، وحكمته من حكمة الله ، وعفوه من عفو الله .

ولو أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أراد النُّفوذ والسُّلطان ، لتحقَّق له ما أراد قبل الهجرة بسنوات ، عندما قَدَّم إليه ﷺ من قبل زعماء قريش ، فرفضه ، ورفض الجاه والمال ، لأنَّه يصدع بأمر الله ، ويحمل رسالته إلى الناس .

أمَّا عبارة : « فبلغ أسوارها » ، فنعتقد أن جميع المؤرِّخين يعلمون بأنَّ مكَّة لأسوارها .

- ١٣ -

بعد فتح مكَّة ، جعل مُحَمَّد - ﷺ - : « الكعبةَ معبداً إسلامياً » ، [صفحة ١٣٧] .

كان الصَّواب أن يقول (لوبون) : أعاد مُحَمَّد ﷺ الكعبة بعد فتح مكَّة إلى ما كانت عليه حين أقام بنيانها إبراهيم وإسماعيل عليها السَّلام ، أي رمزاً لعبادة الله الواحد ، يطوف النَّاسُ بها ، لاعبادتها لها ، بل عبادة الله تعالى ، فالكعبة ليست معبداً ، وإنَّما هي بناء أُقيم في البيت الحرام ، قبله يتوجَّه إليها النَّاسُ .

لقد دعا إبراهيم عليه السَّلام ربَّه : ﴿ فَأَجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ ، [إبراهيم ٣٧/١٤] ، فاستجاب له ربُّه ، وجعل من البيت الحرام محجَّة ومكان التَّقاء تهوي إليه أفئدة البشر في مشارق الأرض ومغاربها .

والتَّوجُّه إلى الكعبة ، في الصَّلَاة أو في الحجِّ ، رمز لتوحيد العقيدة ، فكراً وقلباً ، ودليل ذلك أن القرآن الكريم قد بيَّن لنا بأنَّ القبلة هي وجه الله وحده : ﴿ فَأَيُّمَّا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ ، [البقرة ١١٥/٢] .

فالقديسيَّة للأمر الإلهي وحده : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ،

فَلَنُؤَلِّينَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴿١٤٤﴾ ، [البقرة ١٤٤/٢] ، والاتّجاه إلى الكعبة إنّما يتمّ بالجسد وحده ، وأمّا القلب والروح ، فيألى الله اتّجاهها ، وبه تعلقها : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، [الأنعام ٧١/٦] .

لذلك ، يلهج لسان الحاجّ وقلبه خلال الطّواف بالبيت ، بقوله : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .. » ، فالتّلبية استجابة لأمر الله ، وليست للكعبة ، وما سمعنا طائفاً يقول : لبيك يا كعبة لبيك .

فبعد فتح مكّة ، حطّم ﷺ الأصنام ، وهو يقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ ، [الإسراء ٨١/١٧] ، ونادى مناديه ﷺ بِمَكَّةَ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنماً إلاّ كسره » ^(٤٣)

لقد طهر ﷺ البيت الحرام ، وأعادّه رمزاً للتّوحيد الخالص ، ولم يجعل الكعبة معبداً إسلامياً .

- ١٤ -

« ولم يكتفِ كسرى بتزيق كتاب محمد ، بل بعث إلى عامله في الين : (أن ابعث إليّ هذا الرّجل الذي يزعم في الحجاز أنّه نبيّ) ، ولكن كسرى قتله ابنه قبل أن يقوم عامل الين بتنفيذ ذلك الأمر الصّعب » ، [صفحة ١٣٨] .

صحيح ، لقد مزّق كسرى (أبرويز) كتاب رسول الله ﷺ ، والذي حمله عبد الله بن حذافة السّهمي ^(٤٤) ، وصحيح أنّه بعث إلى عامله في الين أن يبعث

(٤٣) طبقات ابن سعد ١٣٧/٢ ، السّيرة الحلبية ١١٨/٣

(٤٤) عبد الله بن حذافة بن قيس السّهمي القرشي [ت نحو ٣٣ هـ = نحو ٦٥٣ م] ، صحابي أسلم قديماً ، وبعثه النّبيّ ﷺ إلى كسرى ، أسره الرّوم في أيّام عمر ثمّ أطلقوه ، وشهد فتح مصر ، وتوفي بها في أيّام عثمان ، [الأعلام ٧٨/٤] .

إليه بالنبي ﷺ ، وصحيح أن شيرويه قتل أباه أبرويز ، ولكن ليس صحيحاً : « قبل أن يقوم عامل الين بتنفيذ ذلك الأمر الصَّعب » ، وصوابه : وقد فشل (باذان) في إحضار النبي ﷺ ، لقد نفذ أمر كسرى أبرويز ، ولكنه فشل ، وهذه هي الحقيقة التاريخية :

بعد صلح الحديبية ، كتب ﷺ إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ، وكان من بينهم كسرى أبرويز^(٤٥) ، الذي مزق الكتاب قبل أن يقرأه ، لأنَّ النبي ﷺ بدأ باسمه قبل اسم كسرى ، وغضب غضباً شديداً ، وكتب إلى باذان عامله على الين : أما بعد ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فابعث من قبلك أميرين إلى هذا الرجل الذي بجزيرة العرب ، الذي يزعم أنه نبي ، فابعثه إليَّ في جامعة^(٤٦) .

وبعث باذان رسولين جليدين^(٤٧) ، هما : بابويه وخرخره ، يحملان كتاباً إلى رسول الله ﷺ ، يأمره فيه أن ينصرف معها إليه ، فخرجا حتَّى قدما الطائف ، فوجدا رجلاً من قريش ، فسألاه عن الرسول ، فقالوا : هو بالمدينة ، واستبشر القرشيون المشركون بذلك ، وقال بعضهم : أبشروا ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، كُفِّتُم الرجل .

فخرج الرجلان حتَّى قدما على رسول الله ﷺ ، فقالا : إن كسرى قد

(٤٥) وكان مقرُّ ملكه طيسفون (المدائن) ، قرب موقع بغداد حالياً ، جاء في معجم البلدان ٥٥/٤ : « هي مدينة كسرى التي فيها الإيوان ، بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ [الفرسخ = ٥٥٤٤ م] ، دخلها سعد بن أبي وقاص بعد القادسية فاتحاً سنة ١٦ هـ وهو يقرأ قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانكِهَيْهِمْ كَذَلِكَ وَأَوْزِنْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ ، [الدُّخَان ٢٥/٤٤ - ٢٨] .

(٤٦) الجامعة : الغُلُّ ، لأنها تجمع اليدين إلى العنق ، [اللسان : جمع] .

(٤٧) جليدان : قويان ، ذوا عزيمة ، وبما قاله لها : اذهبا إلى هذا الرجل ، فانظرا ماهو ، فإن كان كاذباً فخذاه في جامعة حتَّى تذهبا به إلى كسرى ، وإن كان غير ذلك فارجعا إليَّ فأخبراني ماهو حتَّى أنظر في أمره .

بعثنا إليك لتنتقل معنا ، فصرفها الرسول ﷺ على أن يعودا إليه في الغد ، وخلال إقامتهما في المدينة المنورة رأيا رسول الله ﷺ على أرشد الأحوال وخيرها عقلاً وحكمة ونبوة صادقة . ثم قال لهم ﷺ بعد أن جاءه الخبر من الله تعالى : « إنَّ الله قد سلَّط على كسرى ابنه شيويه فقتله ، إن ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى ، وقولا لبازان : أسلم ، فإن أسلم أقره على ماتحت يده ، وأملكه على قومه » ، فقالا للنبي ﷺ : إنَّا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ، قال ﷺ : أخبراه ذلك عنِّي ، وقولا له : إنَّ ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ مُلك كسرى ... » ، فأرخا ذلك عندهما ، ثم رجعا سريعاً إلى الين ، فقصَّأ على باذان ماتنباً به النبي ﷺ ، فقال باذان : والله ما هذا بكلام ملك ، وإنِّي لأرى الرَّجل نبياً كما يقول ، احصوا تلك اللَّيلة^(٤٨) ، فإن ظهر الأمر كما قال فهو نبى مرسل ، وإن لم يكن فسرى فيه رأينا .

فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيويه : أمّا بعد ، فإنِّي قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما استحلَّ من قتل أشرافهم ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فخذ لي الطَّاعة من قبلك ، وانظر الرَّجل الَّذي كان كسرى كتب فيه إليك - يعني رسول الله ﷺ - فلا تهنه وأكرمه حتَّى يأتيك أمري فيه .

فلما انتهى كتاب شيويه إلى باذان ، قال : إن هذا الرَّجل لرسول ، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد الين^(٤٩) .

وبعد هذا ، هل عبارة : « ولكن كسرى قتله ابنه قبل أن يقوم عامل الين بتنفيذ ذلك الأمر الصَّعب » صحيحة ؟ أم قام عامل الين بتنفيذ ذلك الأمر الصَّعب ، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل كيد كسرى أبرويز في نحره ؟؟؟

(٤٨) التي انتبأ بها ﷺ بمقتل أبرويز ، وهي يوم الثلاثاء ١٠ جمادى الآخرة سنة ٧ هـ ، وذلك بعد فتح خيبر بثلاثة أشهر تقريباً .

(٤٩) الطَّبري ٦٥٥/٢ ، الكامل في التَّاريخ ١٤٥/٢

- ١٥ -

«ويقال إنَّ مُحَمَّدًا كان قليل التَّعليم و نرجَّح ذلك ، وإلَّا وجدتَ في تأليف القرآن ترتيباً أكثر مما فيه ، و نرجَّح أيضاً أنَّ مُحَمَّدًا لو كان عالماً ما أقام ديناً جديداً ، فالأُمِّيُّون وحدهم هم الَّذِينَ يعرفون كيف يُدْرِكُ أمرُ الأُمِّيِّين » ، [صفحة ١٤١] .

وتساءل : متى كان الأنبياء يؤلفون الكتب ، ويرتّبون الآيات ؟
وهل فعل الأنبياء قبل مُحَمَّد ﷺ ذلك ، حتّى يقول (لوبون) مثل هذا القول ؟

وما دام مفكّر كبير ، وفيلسوف عظيم مثل (لوبون) يرجّح أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قليل التَّعليم ، فهل يأتي زجل قليل العلم بكتاب فيه من التَّشريعات الأخلاقيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسِّياسيّة ، ناهيك عن التَّشريعات الدِّينيّة والرُّوحيّة ، بمثل ما في القرآن الكريم ؟ ثمّ نقول : إنّه من عند مُحَمَّد !! كيف يستطيع أي رجل ، ولو كان كثير العلم في مثل تلك الطُّروف ، وفي ذلك الوقت من التاريخ ، أن يأتي بمثل ذلك الكتاب ، الَّذي ما يزال معجزة الإسلام الباقية حتّى اليوم ؟

وهل أصبح المؤرّخون الحَكَم في أمر ترتيب كتاب الله ، حتّى يحكموا على دقّة ترتيبه أو عدم ذلك ، وهل يصحُّ قول (لوبون) بأنَّ مُحَمَّدًا لو كان عالماً ما أقام ديناً جديداً ؟ فهل إقامته للدين الجديد تعود إلى علمه أو عدمه ؟ مُحَمَّد ﷺ كأخيه المسيح عليه السَّلام ، و كبقية الأنبياء والرُّسل الكرام ، جاء برسالة الله يحملها إلى النَّاس ، ويبلغها لهم كما بلغه إياها الوحيُ الأمين ، فلماذا نعترف بأنَّ يحمل السيّد المسيح رسالة الله إلى البشر ، علماً بأنَّ المسيح عليه السَّلام رافقت

- ٩٦ -

بعثته أمور يرفضها العقل ويقبلها التسليم ، أقول : لماذا نؤمن هناك ونكفر هنا .

نعم ، إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أُمِّيٌّ ، لكنه جاء بما يُعْجِزُ العلماء ، وبما يفتح أمام عقول العلماء آفاق البحث والتفكير ، فكان بما جاء به معجزة خالدة أبد الدهر ، لاتنقضي بموت صاحبها ، فليس شأنها شأن المعجزات والخوارق التي أمست تاريخاً ليس غير .

يقول سبحانه في محكم التنزيل : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ☆ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، [العنكبوت ٥٠/٢٩ و ٥١] .

- ١٦ -

« وضعف محمد الوحيد هو حبه للنساء ، فقد قال : « حُبِّي إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكَ ثلاث : الطَّيِّبُ وَالنِّسَاءُ ، وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » .

ولم يبال محمد بسن المرأة التي كان يتزوجها ، فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنوات ، وتزوج ميمونة وهي في السنة الحادية والخمسين من عمرها .

وأطلق محمد العنان لذلك الحب ، حتى إنه رأى اتفاقاً زوجة ابنه بالتبني وهي عارية ، فوقع في قلبه منها شيء فسرَّحها بعلمها ذلك ليتزوجها محمد ، فاغتم المسلمون ، فأوحى إلى محمد ، بواسطة جبريل الذي كان يتصل به يومياً ، آيات تُسوِّغ ذلك ، فانقلب الانتقاد إلى سكوت ، [صفحة ١٤٢] .

ومع أنَّ العلامة لبون يقول في الصَّفحة ذاتها [صفحة ١٤٢] : « الشَّرقيون لا يرون إفراطاً في ذلك » ، وقع في أغلاط كثيرة في عباراته وآرائه السابقة ،

ولو أنصف لقام بدراسة موضوعيّة لمحمد ﷺ ، فيما يتعلّق بالنساء ، ولو أنصف لتحدّث عن عفته ﷺ في شبابه ، وقبل زواجه ، وقد أشار فيما كتب إلى اقتصاره ﷺ على زوجة واحدة حتّى بلغ الخمسين من عمره ، أليس في هذه الأقوال مؤشّر عن محمد ﷺ وعلاقته بالنساء ؟! أليس في هذه الأقوال ما يدعو إلى دراسة ما ورد عن زواجه ﷺ من عدد من النساء ليس في معظمهنّ ما يغري بالزواج منهنّ ؟!

عودةً إلى دراسة ظروف زواجه ﷺ من كلّ منهن ، وعلى ضوء البيئة الّتي كان يعيش فيها ، والمجتمع وعاداته وتقاليده آنذاك ، وما رافق زواجه ﷺ من أمور تاريخيّة وتشريعيّة ، تتوضّع للدّارس أمورٌ غير ما يخطر في بال وخاطر الإنسان العادي .

أولاً : إنّنا أمام نبيّ كريم ، فتحت له ميادين المتع كلّها ، فغفّ عنها .

ثانياً : المسلم مقيّد في حوارهِ مع المستشرقين والمبشرين الصّليبيّين بعقيدة في صلبها احترام أنبياء الله جميعاً ، من آدم إلى عيسى عليهم جميعاً الصّلاة والسّلام . ولكن في حوار طريف مع مستشرق حاقد قال : المسيح عاش بتولاً ، ورفّع بتولاً ، وهذا غاية الكمال الّذي تفرّد به المسيح ، وليس في ذلك أيّ نوع من العجز الجنسي أو نحوه ، فقل لهذا المستشرق (الظّريف) : وهذه هي عقيدة كلّ مسلم ملتزم بإسلامه ، تابع المستشرق طاعناً : أمّا محمّد فقد تزوّج تسع زوجات ، وهذا دليل على فرط الميول الجنسيّة عنده ، فأجيب بما يلي : إنك ترفض أن يوصف السيّد المسيح عليه السّلام بالعجز الجنسي لأنّه لم يتزوّج قط ، مع أنّ الزّواج في عصره كان يتمّ في سنّ مبكّرة عند الشّباب الطّبيعيّين جميعاً ، وبناء على هذا ، ينبغي لك ألاّ تصف محمّداً ﷺ بأنّه مفرط بالجنسيّة لأنّه جمع بين تسع نساء ، بل عليك أن تتحرّى لماذا ومتى تزوّجهنّ ، وهل هو الوحيد في زمنه ، أم جميع

الرجال آنذاك ، ليكون حكمك سليماً منصفاً ، بعيداً عن التعصب والحقد والطعن والتحيّز !!

ثالثاً : أباح الإسلام تعدّد الزوجات ، ولم يفرضه ، وشتان بين أباح وبين قرّض ، وأباح بشرط العدل ، وجعل مجرّد خوف الجور أو الظلم سبباً كافياً لمنعه ، علماً أن العرب قبل الإسلام أكثروا من التعدّد ، وبلا قيود .

وبعد هذا ، لنستعرض سريعاً زوجاته ﷺ ، وكيف عقد عليهن^(٥٠) :

١ - خديجة بنت خويلد : تزوّجها ﷺ وكان عمره خمساً وعشرين سنة ، وهي في الأربعين من عمرها ، ولم يتزوّج غيرها حتى توفيت ، وكان ﷺ عندها في الخمسين من عمره ، ومع أنه ﷺ كان في عنفوان شبابه بين ٢٥ - ٤٠ لم يتزوّج غيرها ، وكان يقول كلّما ذكرت : « والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي حين كفر الناس ، وصدّقتني إذ كذّبني الناس ، وواستني بماله إذ حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء »^(٥١) .

٢ - سودة بنت زمعة : كانت أيماً ، مات عنها زوجها عقب رجوعه من الحبشة^(٥٢) ، وهي المسلمة التي خالفت بني عمّها وأقاربها ، تزوّجها ﷺ تعويضاً ورحمة وحماية ، تعويضاً خيراً مما فقدت ، ورحمة بها بعد موت زوجها ولا حامي لها دون أقاربها وقد أسلمت رغم أنوفهم ، وحماية لها من أن تصل إليها يد الأذى ، لقد مدّ ﷺ يده الرّحمة إليها ، يسند شيخوختها فكان زواجها أكبر سلوان لها ، فهل تزوّجها ﷺ لحبّه الطّارئ للنساء ، أم لأنّه أطلق العنان لشهوته ؟!

(٥٠) (سريعاً) ، لأننا عرضنا الموضوع مفصّلاً في الإسلام في قفص الاتّهام ، الجلسة السادسة عشرة ، (زوجات محمد) ، ص ٢٤٩ في الطّبعة الخامسة ١٩٨٢ م .

(٥١) قال عنها ﷺ : « ما أبدلني الله خيراً منها » ، [أسد الغابة ٨٥٧ ، الاستيعاب ١٨٢٣/٤ - ١٨٢٤] .

(٥٢) وهو ابن عمها : السّكران بن عمرو ، [أسد الغابة ١٥٧٧] .

علماً أنَّ كلَّ أيم من نساء الصَّحابة ، كانت تُضمُّ إلى أسرة إسلاميَّة ، فتخطب فور انتهاء عدَّتْها ، لحمايتها ، وحماية أبنائها ، وبالتالي حماية المجتمع وسلامته ، وهذا يفسِّر ما نجده في تراجمهنَّ رضي الله عنهنَّ ، أنَّ فلانة تزوّجت فلاناً ، ثمَّ مات عنها فتزوَّجت فلاناً ، ثمَّ مات عنها فتزوَّجت فلاناً ... ومثال ذلك :

أسماء بنت عميس ، زوجها جعفر بن أبي طالب ، فلما استشهد رضي الله عنه ، تزوّجها أبو بكر الصّدِّيق ، ثمَّ مات عنها فتزوَّجها علي بن أبي طالب ^(٥٣) .

أمّامة بنت أبي العاص ، تزوّجها علي بن أبي طالب بعد فاطمة ، ثمَّ تزوّجها المغيرة بن نوفل بن الحارث بن أبي طالب بعد استشهاد علي رضي الله عنه ^(٥٤) .

جميلة بنت عبد الله ، تزوّجها حنظلة بن أبي عامر (غسيل الملائكة) ، فقتل عنها يوم أُحُد ، ثمَّ خَلَفَ عليها ثابت بن قيس بن شماس ، فمات عنها ، ثمَّ خلف عليها مالك بن الدُّخشم ، ثمَّ خلف عليها حبيب بن يساف ^(٥٥) .

حنّة بنت جحش ، كانت زوج مصعب بن عمير ، فقتل عنها يوم أُحُد ، فتزوَّجها طلحة بن عبد الله ^(٥٦) .

سلمى بنت عميس زوج حمزة بن عبد المطلب ، خلف عليها بعده شدّاد بن أسامة اللّيثي بعد استشهاد حمزة في أُحُد ^(٥٧) .

فاطمة بنت الوليد بن عتبة ، امرأة سالم مولى أبي حذيفة ، لما استشهد عنها سالم يوم اليمامة ، تزوّجها بعده الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي ^(٥٨) .

(٥٣) أسد الغابة ١٤/٧

(٥٤) المرجع السابق ٢٢/٧

(٥٥) المرجع السابق ٥٤/٧

(٥٦) المرجع السابق ٦٩/٧

(٥٧) المرجع السابق ١٤٨/٧

(٥٨) المرجع السابق ٢٣١/٧

أُمُّ حَكِيم بِنْتُ الْحَارِثِ ، لَمَّا اسْتَشْهَدَ عَنْهَا عَكْرَمَةُ ، تَزَوَّجَهَا خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ ^(٥٩) .

٣ - عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ : كَانَتْ عَائِشَةُ مَخْطُوبَةً لَجَبْرِ بْنِ الْمُطْعَمِ بْنِ عَدِي ، فَهِيَ نَاضِجَةٌ مِنْ حَيْثُ الْأُنُوثَةُ ، وَتَزَوَّجَ ﷺ عَائِشَةَ ، « وَلَمْ تَدْهَشْ مَكَّةَ حِينَ أَعْلَنَ نَبَاَ الْمَصَاهِرَةِ بَيْنَ أَعَزِّ صَاحِبِينَ ، وَأَوْفَى صَدِيقِينَ ، بَلْ اسْتَقْبَلَتْهُ كَمَا تَسْتَقْبَلُ أَمْرًا طَبِيعِيًّا مُقَرَّرًا ، وَلَمْ يَجِدْ فِيهَا أَيُّ رَجُلٍ مِنْ أَعْدَاءِ الرَّسُولِ أَنْفُسَهُمْ مَوْضِعًا لِمَقَالٍ ، بَلْ لَمْ يَدْرِ بِخُلْدٍ وَاحِدٍ مِنْ خُصُومِهِ الْأَلْدَاءُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ زَوَاجِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - مِنْ عَائِشَةَ مَطْعَنًا أَوْ مَنْفَذًا لِلتَّجْرِيعِ وَالْإِتِّهَامِ ، وَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يَتْرَكُوا سَبِيلًا لِلطَّعْنِ عَلَيْهِ إِلَّا سَلَكُوهُ ، وَلَوْ كَانَ عَبَثًا وَهَيْثَانًا » ^(٦٠) .

وَلَمْ تَكُنْ عَائِشَةُ أَوَّلَ صَبِيَّةٍ تُزَفُّ إِلَى رَجُلٍ أَكْبَرَ مِنْهَا بِكَثِيرٍ ، وَلَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ أُخْرَاهُنَّ فِي بَيْئَةِ الْحِجَازِ آنَذَاكَ ، فَيَجِبُ الْإِنْتِبَاهُ إِلَى نَضُوجِ الْفَتَاةِ فِي الْمَنَاطِقِ الْحَارَّةِ بِسَنٍّ مُبَكَّرَةٍ جَدًّا ، وَهُوَ مِنَ الثَّامِنَةِ ، وَتَتَأَخَّرُ الْفَتَاةُ فِي الْمَنَاطِقِ الْبَارِدَةِ إِلَى سَنِّ الْوَاحِدَةِ وَالْعِشْرِينَ .

٤ - أُمُّ حَبِيبَةَ ، رَمْلَةٌ بِنْتُ أَبِي سَفْيَانَ : تَزَوَّجَهَا ﷺ وَهِيَ بِالْحَبَشَةِ ^(٦١) ، تَعْوِضًا لَهَا عَمَّا قَاسَتْهُ مِنَ الْمَصَاعِبِ وَالْأَهْوَالِ ، بَعْدَ أَنْ تَنَصَّرَ زَوْجُهَا فِي الْحَبَشَةِ ، لَقَدْ اخْتَارَهَا ﷺ لِنَفْسِهِ لِمَكَاتِنِهَا فِي قَوْمِهَا ، وَلَوْ أَنَّهَا زُوجَتْ بَغِيرَ كُفَّءٍ لَاتَّخَذَ بَنُو

(٥٩) المرجع السابق ٣٢١/٧

(٦٠) نساء النبي ص ٦٤

(٦١) قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ : مَا شَعَرْتُ إِلَّا بِرَسُولِ النَّجَاشِيِّ جَارِيَةً يُقَالُ لَهَا أَبْرَهَةٌ .. تَقُولُ : إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ لَكَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَيَّ أَنْ أَرْوِّجَكَ ، فَقُلْتُ : بِشْرِكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ ، قَالَتْ : وَيَقُولُ لَكَ الْمَلِكُ وَكَلِّي مِنْ يَزْوَجِكَ ، فَأَرْسَلْتُ إِلَى خَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ فَوَكَّلْتَهُ ، وَأَعْطَيْتُ أَبْرَهَةَ سَوَارَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ كَانَتْ عَلَيَّ ، وَخَوَاتِمَ كَانَتْ فِي أَصْبَعِي ، سُرُورًا بِمَا بَشَّرْتَنِي بِهِ .. [أَسَدُ الْغَابَةِ ٢١٥/٧] .

أُمِّيَّة ذلك شبهة يوغرون بها صدور بيوتاتهم ، ويحشونهم بالمسلمين في مَكَّة على قَلَّتْهم وضعفهم .

لقد جمع ﷺ شملها ، وأنس وحشتها ، وفتح باب مودَّة بينه وبين الدِّ أعدائه ، فهو زواج سياسي ، أراد منه أن يجلب زعيم مَكَّة إلى المودَّة بالمصاهرة ، لذلك قال أبو سفيان عندما سمع بهذا الزَّواج : « وهذا الفحل لا يجدر أنفه » .
وكانت أم حبيبة عندما تزَّوجها ﷺ في الأربعين من عمرها أو أكثر ، فأين أطلق العنان لشهواته ؟!

٥ - جَوِيرِيَّة بنت الحارث : كان زواجه ﷺ منها لأغراض سياسيَّة ، لقد أراد ﷺ الانتفاع بالمصاهرة ، وأتخاذها وسيلة لاجتذاب قلوب القبائل .
أسرت جويرية في غزوة بني المصطلق^(٦٢) ، فلاذت هي برسول الله ﷺ ، وغمرتها فرحة عامرة عندما عرض عليها الزَّواج ، فما من امرأة أعظم على قومها بركة منها ، لقد قال المسلمون : « أصهار رسول الله » ، فأعتقت بزواجها من رسول الله ﷺ أهل مئة بيت من بيوت بني المصطلق ، وأسلم والدها عندما حدَّثته عن مكارم أخلاق رسول الله ، وصاح بصوت جهير بالشهادتين : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأَنَّكَ مُحَمَّد رسول الله .

وجويرية لم تكن بكرةً عند زواجها من رسول الله ﷺ ، لقد كانت متزوجة من قبل ، فأين أطلق العنان لشهواته بعد هذا الزَّواج السياسي المبارك .

٦ - صَفِيَّة بنت حَيٍّ : عقيلة بني النضير ، يهوديَّة من سبي خيبر ، أسلمت وحسن إسلامها .

(٦٢) بنو المصطلق : وهم بنو جذيمة بن كعب من خزاعة ، وجذيمة هو المصطلق ، من الصلُق وهو رفع الصوت ، أنظر : الرُّوض الأنف ١٧/٤ ، ابن هشام ١٨٢/٣ ، البداية والنهاية ١٥٦/٤

من المعروف أنَّ الثَّأْر في الجاهليَّة أمرٌ معروف ، حاول الأنبياء نسخه من قبل فلم يفلحوا ، فالثَّأْر أمر راسخ في نفوس العرب ، وأُشْرِبته قلوبهم ، فجاءت عقود رسول الله ﷺ لربط كثير من القبائل بعضها إلى بعض ، وأُطْفِأَ سورة ما في صدورهم من الغلِّ والضَّغائن .

وكانت صفيَّة قد تزوجت سابقاً مرَّتين ، من سلام بن مشكم ، ثمَّ خلف عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، فأين أطلق العنان لشهواته .

٧ - حفصة بنت عمر : الصَّوَّامة القَوَّامة ، توفي عنها زوجها خنيس بن حذافة السَّهمي ، فأراد عبر أن يزوجه أبي بكر الصَّدِّيق ، أو من عثمان ، فعرضها عليها فلم يقبل ، فقال عمر لرسول الله ﷺ ما لقي من إعراضها ، فابتسم ﷺ وقال : « يتزوَّج حفصة من هو خير من عثمان » (٦٣) .

وباركت المدينة المنورة اليد التي امتدَّت لتأسو جرح حفصة ، ولتجعل عمر يفتخر ويتباهى بتطبيب خاطره ، فأين أطلق العنان لشهواته ؟

٨ - أم سلمة ، هند بنت أبي أمية بن المغيرة : هاجرت إلى الحبشة ، ثمَّ عادت إلى مكَّة ، وهمت بالهجرة إلى المدينة ، ولكن المشركون من بني المغيرة منعوها من الهجرة حتَّى خلعوا يد ولدها سلمة وهم يتناولونه من حجرها ، وبعد عام قطعه بالبكاء ، فابنها في جانب ، وهي في جانب آخر ، وزوجها في المدينة ، رُقُّوا حالها ، وانطلقت إلى زوجها بالمدينة ، وليس معها أحد من الخلق ، ثمَّ توفي عنها زوجها وهي أمُّ لأولاد ، فطلبها الصَّدِّيق فرفضت ، وتلاه عمر فأبت ، ثمَّ خطبها ﷺ وهي مُسِنَّة ذات عيال ، فرعاها ورعا عيالها ، وبلغ في إعزازها وإعزاز عيالها ، أنه اختار ولدها سلمة زوجاً لابنة عمه حمزة سيِّد الشهداء ، فأين أطلق العنان لشهواته ؟

(٦٣) أسد الغابة ٦٥/٧

٩ - زينب بنت جحش : « حَتَّى إِنَّهُ رَأَى زَوْجَةَ ابْنِهِ بِالتَّبْنِيِّ وَهِيَ عَارِيَةٌ ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ مِنْهَا شَيْءٌ فَسَرَّحَهَا بَعْلُهَا ذَلِكَ لِيَتَزَوَّجَهَا مُحَمَّدٌ .. » ، هذا ما قاله (لوبون) عن زواج النَّبِيِّ ﷺ بزينب ، والقصة مرفوضة عقلاً وشرعاً ، للأسباب التالية :

١ - زينب بنت عمّة ، رُبِّيت تحت نظره ، وشملها برعايته ، وكان يعرفها ويراهها ، ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة .

٢ - وهو ﷺ الذي اختارها لمولاه زيد بن حارثة زوجة ، ولم يبالِ بإبائها ورغبتها عن زيد .

٣ - لو كان للجمال سلطان على قلبه ﷺ لكان أقوى سلطان عليه جمال البكر في روائه ونضرة جدّته .

٤ - كيف يمتدّ نظره إليها ، ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لمولاه ، يرفض العاقل مثل هذا المؤمن عادي ، أن ينظر إلى زوجة جاره أو صديقه نظرة بشهوة ، هذا قد يكون في مجتمع الغرب اليوم ، أما في مجتمع الإسلام وبيئته لا يكون .

فزواج زينب تقرير شرع ، وتنفيذ حكم إلهي ، ذلك أن التصاق الأدعياء بالبيوت ، واتّصاهم بأنسابهم كان أمراً تدين به العرب ، فكانوا يعطون الدّعي جميع حقوق الابن ، ويُجَرُّون عليه وله جميع الأحكام التي يعتبرونها للابن حتّى من الميراث ، وحرمة النسب ، فهدّمت قاعدة التّبْنِي قولاً وفعلاً^(٦٤) .

لقد حافظ ﷺ على كرامتها بعد زواجها من مولى ، وهي ابنة أمية بنت عبد المطلب ، لقد كانت تقول : « أنا سيّدة أبناء عبد شمس » ، وحطّم فوارق الطبقات .

(٦٤) الإسلام دين الفطرة والحرّيّة ، للشيخ عبد العزيز جاويز ، كتاب الهلال ، العدد ١٨

فزواج زينب أمر تشريعي في الدرجة الأولى ، وجبر لخاطر مكسور عندما أصبحت (أم المؤمنين) من ناحية ثانية .

كما تزوج ﷺ زينب بنت خزيمة (أم المساكين) ، وهي أرملة شهيد ، استشهد في أحد ، وبقيت عنده ثلاثة أشهر أو ثمانية فقط ، ثم ماتت ، وتزوج مارية القبطية ، هدية المقوقس عظيم مصر ، وكان لهذا الزواج صلة رحم مع مصر : « استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » .

وأخيراً .. اتهموا رسول الله ﷺ بالميل إلى النساء بشهوة جاحجة ، مع أنه لم يكن ﷺ الوحيد في عصره الذي تزوج من عدد من النساء ، إنه العصر وظروفه ، فأبو بكر تزوج أربع نساء ، وتزوج عمر سبع نساء ، وتزوج عثمان ثلثي نساء ، وتزوج علي ثلثي نساء أيضاً^(٦٥) .

وإذا أطلعنا على تراجم رجال ذاك العصر ، لرأينا هذا الزواج متعارفاً عليه ، ولم يكن فيه غضاظة ، فهل أطلق العصر كله العنان لشهواته !!؟

- ١٧ -

« ولم يثبت تماماً وفاء زوجات محمد الكامل له ، ويظهر أن محمد لاقى من المكاره الزوجية ما يندر وجوده عند الشرقيين ، ويكثر وقوعه لدى الأوربيين ، وكانت عائشة ، على الخصوص ، موضوع قلق له ، وأصبحت ذات مرة موضع حالة سوء ، فشهد جبريل ، المحب للخير على الدوام ، بعصتها ، فدونت شهادته في هذه المسألة الحساسة في القرآن ، فَحُظِرَ الشُّكُّ » ، [صفحة ١٤٢] .

نستغرب هذا التشكيك بوفاء زوجات الرسول ﷺ ، خصوصاً وقد صدر عن (لوبون) الذي كنا نعتقد بعده عن الأحكام المتعصبة والحاكمة ، البعيدة عن

(٦٥) انظر أسماءهن في : (الإسلام في قفص الاتهام) ، ص ٢٧٥

الحقيقة التاريخية ، إذ لم يرد في أي مصدر من مصادر تاريخ العرب والإسلام ، وكتب السيرة أيضاً مثل هذا القول ، بل ورد الكثير مما يتنافى مع هذا القول ويعارضه ، ولا ندري من أين أتى (لوبون) بأخبار المكاره الزوجية لمحمد ﷺ ، وأخباره تذكر أنه كان على أحسن علاقات مع زوجاته ، وكنّ على مثل ذلك معه .

ولا ندري من أين جاء (لوبون) بموضوع قلق محمد ﷺ من زوجته عائشة ، وكانت حياته معها تكتنفها السعادة الزوجية لها جميعاً ، لكن الجهل ، ونستبعد الحقد والتعصب ، هو الذي أوصل مؤرخنا الفيلسوف إلى ما وصل إليه في هذا الرأي .

حادثة واحدة حدثت لعائشة ، ويمكن أن تحدث لأية زوجة أخرى في مثل ذلك الظرف ، فبني عليها المفترقون ما بنوه ، وليس هناك ما يمسها في تلك الحادثة إلا أقوال السوء التي أشاعها المنافقون بزعماء عبد الله بن أبي بن سلول في مجتمع المدينة المنورة .

خرج ابن أبي بن سلول مع رسول الله ﷺ والمسلمين إلى ماء المريسيع لردّ بني المُصْطَلِق ، فأثار أكثر من مشكلة ، ونطق بكلام دنيء ، حتى جاء عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ وقال : إنه قد بلغني أنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً ، فبرني أن أحمل لك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا .

فأجاب ﷺ : « ما أردت قتله ، ولا أمرت به ، ولنحسن صحبته ما كان بين أظهرنا » ، وقبل الدخول إلى المدينة المنورة ، وقف الابن في وجه أبيه وقال له : والله لا تدخل حتى تقرأ أنك الذليل وأن رسول الله ﷺ العزيز ، وحتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، ولتعلم أيضاً الأعز من الأذل ، أنت

أو رسول الله ﷺ ، فقال له أبوه : أنتَ من بين الناس ، أشهد أن العِزَّةَ لله ولرسوله وللمؤمنين ، وصار يقول : لأننا أذلُّ من الصَّبيان ، حتَّى قال ﷺ لابنه : خلَّ عن أبيك .

ونتيجة لحقد عبد الله بن أبي بن سلول ، اختلق قصَّة الإفك بعد دخوله المدينة المنورة ، عندما تأخَّرت عائشة بحاجتها ، وسقط عقد لها وهي في طريقها ، فرجعت إليه تلتسه ، فأبطأت عن الرِّكب ، فعادت مع صفوان بن المعطل ، الذي كانت مهمته على السَّاقة وراء الرِّكب يلتقط ماعسى أن يكونوا قد خلفوه من متاع ، ودخل المدينة وضح النَّهار عند الظَّهيرة ، فلما رأى ابن أبي بن سلول ذلك قال : امرأة نبيِّكم باتت مع رجل حتَّى أصبحت ، ثمَّ جاء يقودها ، فَجَرَّ بها وربَّ الكعبة ، ما برئت منه وما برئ منها ، والله مانجت منه ولا نجا منها^(٦٦) ، وراح المنافقون يروِّجون الإشاعة .

إنَّ الذي جرى أمر طبيعي سيِّدة فاتها الرِّكب ، فأدركها تابع الرِّكب فأجارها حتَّى ردَّها إلى مأمنها ، أما هاجرت أمُّ سلمة من مكَّة إلى المدينة ، وليس معها إلَّا وليدها الطِّفل ، فلما رآها عثمان بن طلحة على هذه الحال ، أثبت عليه المروءة - وهو مشرك - أن يتركها وحدها في هذه الصَّحراء ، فاصطحبها في رحلته حتَّى أوصلها إلى المدينة ثمَّ عاد ، فما تحدَّث أحدٌ من أهل المدينة في شأنها ، ولا في شأن عثمان بن طلحة ، رغم ما كان من تلك الرِّحلة من سعة الوقت ، وتعدُّد الفرص لمن أراد أن ينتهز فرصة .

الحقد والحسد والضَّغينة أكلت قلب ابن أبي بن سلول ، وملأته غيظاً على الإسلام ورسوله ، ودفعت به إلى هذا الموقف الدَّنيء ، وهو صاحب المواقف

(٦٦) يلاحظ قوله : امرأة نبيِّكم ، فهو لاعلاقة له ، لذلك لم يقل : امرأة نبيِّنا ، مع التَّوكيد وتكراره لعبارات عديدة ، معناها واحد .

المعروفة مَغِيظاً مُحْنَقاً ، أصابته مذلةٌ وهوانٌ حتَّى من ابنه ، فدخل المدينة ونفسه تفور من الغيظ على رسول الله ﷺ ، فجعل يتلمّس فرصة ينفّس بها عما يجيش في نفسه ، فما كاد يرى عائشة وصفوان عائدَيْن حتَّى وجدها أحسن فرصة يطلق فيها الوشاية ، ويشعل الفتنة الّتي عجز عن إشعالها بين المهاجرين والأنصار ، فراح يطلق لسانه بالإفك ليحقّق الوقعة بين رسول الله ﷺ وأقرب المؤمنين إليه أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه ، ولتشكيك المسلمين في كرامة نبيّهم ، وإثارة فتنة بين المسلمين بشكل عام .

وهذه الفرية لا تجوز حتّى على امرأة ساقطة ، إذ لا يمكن لامرأة ، مهما يكن من حقها وسفاهتها ، أن تجاهر بأمرها هذه المجاهرة ، وأن تأتي هكذا في وضوح النّهار ومعها رفيقها ، فتكشف ماخفي من مستور أمرها ، وتعلن على أعين النّاس أنّها قد أتت ما أتت ، وفعلت ما فعلت ، فإن في غريزة المرأة ، مهما سقطت ، نزوعاً طبيعياً إلى التّجمل للنّاس ، والظّهور أمامهم في أكمل مظهر تستطيعه ، حتّى لا يزهّد النّاس فيها ، على الأقل ، إذا هي أعلنت حقيقةها ، فهل يكون من الجائز أن تجاهر بمثل هذا عائشة أم المؤمنين ، المثل الأعلى للمؤمنات ؟

من أجل هذا لم يكتف القرآن الكريم بتكذيب الفرية ، ونفي التّهمة عن عائشة ، بل عالج الموقف من نواحيه جميعها ، علاج الحكمة البالغة الّتي تصون للأعراض الطّاهرة حرمتها ، وتقطع على الألسنة الكاذبة طريقها ، وتحفظ للمجتمع الإسلامي سمعته وكرامته^(٦٧) .

ونقول لمؤرّخنا الكبير : هل يجوز لإنسان ما أن يفترى على امرأة رآها في ظرف معين مع رجل غريب ، فيتّهمها بشرفها ؟ فكيف إذا كانت هذه المرأة

(٦٧) صوّر من حياة الرّسول ، ص ٤٠٨ وما بعدها .

زوجة لرسول كعائشة ، أو أمّاً لنبيّ كريم ، إنّ عائشة برّأها ربُّ السّماء ، وليس جبريل ، كما برّأ مريم ربُّ السّماء ممّا اتّهمها به اليهود .

- ١٨ -

« وكان محمّد قليل المسامحة نحو النّساء ، مع ضعفه نحوهن ، وهو ، مع أنّه لم يبلغ في شدّته درجة رجال التّوراة ، وصفهنّ في القرآن بأنّهنّ يَنْشَأْنَ فِي الْحِلْيَةِ ، ويَخَاصِمْنَ من غير سبب » ، [صفحة ١٤٣] .

ماذا يريد (لوبون) من قوله بأنّ محمّداً ﷺ قليل المسامحة نحو النّساء ؟
هل كان ﷺ غير متساهل معهن ، وتساهل مع الرّجال ، مع ضعفه نحوهن ؟!

ما كان محمّد ﷺ متساهلاً أو متشدّداً لامع الرّجال ، ولا مع النّساء ، إنّ كان نبياً يتخلّق بأخلاق الأنبياء ، وينفّذ في تعامله مع هؤلاء وأولئك إرادة الله وتشريعهم ، الذي بعثه به ليتمّ مكارم الأخلاق .

أمّا عبارة (لوبون) : « مع أنّه لم يبلغ في شدّته درجة رجال التّوراة .. » فهي مرفوضة قطعاً ، فلا وجه للمقارنة ، أو التّشابه هنا مطلقاً ، فالمرأة في التّوراة غيرها كلياً في القرآن الكريم .

عند « رجال التّوراة » : « وقال لآدم لأنّك سمعتَ لقول امرأتك وأكلتَ من الشّجرة الّتي أوصيتُكَ قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرضُ بسببك ، بالتّعب تأكل منها كلّ أيّام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تُنبتُ لك وتأكلُ عشب الحقل » ، [سفر التّكوين ١٧/٣] .

وعند « رجال التّوراة » : « وإلى رَجُلِكَ يكون اشتياقُك ، وهو يَسْوَدُ عليك » ، [التّكوين ١٦/٣] .

- ١٠٩ -

وعند « رجال التّوراة » : « دُرْتُ أَنَا وَقَلْبِي لِأَعْلَمَ وَلَا بُحْثَ وَلَا طَلَبَ حِكْمَةٍ وَعَقْلًا ، ولأَعْرِفَ الشَّرَّ أَنَّهُ جِهَالَةٌ ، والمُحَاقَّةُ أَنَّهَا جُنُونٌ ، فوجدتُ أَمْرًا مِنَ الْمَوْتِ الْمَرَأَةُ الَّتِي هِيَ شِبَاكٌ ، وَقَلْبُهَا أَشْرَاكٌ ، وَيَدَاها قِيودٌ ، الصَّالِحُ قُدَّامَ اللَّهِ يَنْجُو مِنْهَا ، أَمَّا الْخَاطِئُ فَيُؤْخَذُ بِهَا .. » ، [الجامعة ٢٥/٧ و ٢٦] .

أَمَّا فِي الْإِسْلَامِ ، فَالْمَرَأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا ، وَفِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة ٢٢٨/٢] .

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ ، [البقرة ١٨٧/٢] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، [الرُّوم ٢١/٣٠] .

ولسنا هنا في معرض تقديم بحث واسع عن الإسلام والمرأة ، ومكانتها عند الشرائع المختلفة مقارنة ، ويكفيها القول أنها في الإسلام (الْمُحْصِنَةُ) ، وليست (أَحْبُولَةُ الشَّيْطَانِ أَوْ بَابِهِ) كما هي في الأديان الأخرى .

لقد رفع الإسلام المرأة من الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ إِلَى مُسْتَوًى يَكْفِيهِ مُسْتَوًى الرَّجُلِ ، وسما مُحَمَّدٌ ﷺ بها إِلَى مَكَانٍ رَفِيعٍ الدَّرَجَةِ لَمْ تَحْمِلْ بِهِ مِنْ قَبْلُ ، إِلَى مَكَانٍ لَا مَطْمَعَ بَعْدَهُ لِمُسْتَزِيدٍ ^(٦٨) ، مَعَ الْوَصِيَّةِ الدَّائِمَةِ بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، كَيْفَ لَا ، وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَزِفُّ إِلَيْهَا الْبَشَرِيَّةَ : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ .. ﴾ ، [الزُّخْرَف ٧٠/٤٣] .

- ١٩ -

« وَلَمْ يَقُلْ مُحَمَّدٌ إِنَّهُ يَبْأَتِي بِالْخَوَارِقِ مَعَ إِيمَانِهِ بِرِسَالَتِهِ ، وَعَزَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِ »

(٦٨) المثل الأعلى في الأنبياء ، ص ١٩٢ وما بعدها .

خوارق كثيرة مجارةً للقول الشائع بأن لانبؤة بغير خوارق ، وإليك قول مسيو كازيميرسكي الوجيه :

انشق القمر بطلبه ، ذات مرة ، فرقتين على مشهد من الملأ ، ووقفت الشمس بدعوته على الجبال حتى يؤدّي عليّ صلاة العصر ، بعد أن أفاق النّبيّ من غفوّته ورأسه على رُكْبتيّ علي ، الذي أخبره بأنّه لم يؤدّها حرصاً على راحته ، وكان يظهر ، وهو المعتدل القامة ، أطول من كل شخص يسير بجانبه ، وكان النور يسطع من وجهه ، ويُسّعُ من بين أصابعه حين يضع يده على وجهه ، وكانت الحجارة والأشجار والنباتات تُسَلِّم عليه ، وتنحني أمامه ، وكانت الحيوانات كالطّباء والذّئاب والضّباب والجديان تكلّمه ، وكان الجنُّ يخافونه ويؤمنون برسالته لما له من السلطان المطلق عليهم ، وكان يَرُدُّ البصرَ للعمي ، ويشفي المرضى ، ويحيي الموتي ، وأنزل من السماء مائدة لعليّ وأسرته حين جاعوا ، وأنبا بأن ذرّيّة فاطمة سيناها جور وعُدوان ، وبأن مُلْك بني أميّة سيدوم ألف شهر ، فحدث كما أخبر ، إلخ » ، [صفحة ١٤٣] .

غوستاف لوبون عالم كبير ، وهو يعلم أنّ الكتابة عن رجل عظيم مثل محمّد ﷺ لا تؤخذ من أفواه العامّة من النّاس ، أكانوا من أتباعه ، أو من غير أتباعه ، وإنّا تؤخذ من مصادر تثبت صحتّها ، ومن روايات صحّت بالتواتر والإسناد الصّحيح ، فإذا كان بعض المسلمين قد عزّوا إلى محمّد ﷺ الكثير من المعجزات والخوارق ، فعليه أن يمحّص القول .

إنّ معجزة محمّد ﷺ باعتباره آخر الأنبياء والرّسل ، معجزة خالدة أبد الدّهر ، لا تنتهي بوفاته ﷺ ، إنّ معجزات الأنبياء السّابقين ذهبت بذهابهم ، ورآها من عاصرهم ، وصدّقها دون أن يراها من أتى بعدهم ، أمّا معجزة محمّد ﷺ فهي القرآن الكريم ، الكتاب المستمر الإعجاز ، ففي كلّ فترة يرى العلماء فيه إعجازاً جديداً .

أما ما ذكّر من خوارق ، فلا علاقة لها البتّة بإيمان المسلمين وعقيدتهم ،
والرّسول الكريم ﷺ ما أتى بأية معجزة خارقة ليثبت بها صدق دعوته ورسالته ،
إلا معجزة القرآن الكريم ، ومعظم ما ذكر (لوبون) على لسان كازييرسكي ،
فهو أمور من خيال كاتبها ، ولم يسمع بها المسلمون الأوائل ، فسيرته ﷺ خالية
من مثل هذه الخوارق ، فلم تسجد له الأشجار ، ولم تكلمه الحيوانات ، ولا أحيي
الموتى ، ولا أنزل مائدة من السماء .. حتّى ولو أنّ أموراً خارقة حدثت له في
حياته ، فإنّه ﷺ لم يجعلها آية يتحدّى بها ، ويدعو إلى الإيمان اعتماداً عليها ،
بل كان جوابه لمن ربط بين وفاة ابنه إبراهيم وبين حادثة كسوف الشمس ، التي
حدثت يومئذ ، قوله ﷺ : « إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله ،
لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته »^(٦٩) ، وهو بذلك يدعم الإيمان بسنة الله
وقوانينه في خلقه ، ويدحض اعتقادات العامة في أسباب الكسوف وغيرها ،
ويبيّن ﷺ أنّ الظواهر الطّبيعيّة والكونيّة لا تحدث لموت أحد أو لحياته ، بل إنّها
تسير بحسب نظام أبدعه مبدع الكائنات ، وهو بذلك أيضاً يبني عقل الإنسان
على مفاهيم المنطق السليم ، والعلم الصّحيح .

- ٢٠ -

« القرآن هو كتاب المسلمين المقدّس ، ودستورهم الدّيني والمدني والسياسي
الناظم لسيرهم ، وهذا الكتاب المقدّس قليل الارتباط ، مع أنّه أنزل وحيّاً من
الله على محمّد ، وأسلوب هذا الكتاب ، وإن كان جديراً بالذكر أحياناً ، عاطل
من التّرتيب ، فاقّد السيّاق كثيراً ، ويسهّل تفسير ذلك عند النّظر إلى كميّة
تأليفه ، فهو قد كتّب بالحقيقة ، تبعاً لمقتضيات الزّمن ، فإذا ما اعترضت محمّداً
معضلة أتاه جبريل بوحي جديد حلّها لها فدوّن ذلك في القرآن » ،
[صفحة ١٤٨] .

(٦٩) الحديث في البخاري عن المغيرة بن شعبه .

- ١١٢ -

« وَيَعُدُّ الْعَرَبُ الْقُرْآنَ أَفْصَحَ كِتَابٍ عَرَفَهُ الْإِنْسَانُ ، وَمَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ مِبَالِغَةٍ شَرْقِيَّةٍ ، نَعْتَرِفُ بِأَنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ مُوزَوْنَةً رَائِعَةً ، مِمَّا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ كِتَابٌ دِينِي آخَرُ » ، [صفحة ١٤٩] .

عبارتان متناقضتان في مقطع واحد : « مع أنه أنزل وحياً من الله على محمد » ، « وَيَسْهُلُ تَفْسِيرُ ذَلِكَ عِنْدَ النَّظَرِ إِلَى كَيْفِيَّةِ تَأْلِيفِهِ » ، تناقض ، كتناقض من يقول : « دائرة مربعة » !!

وهل أصبح (لوبون) أحد كبار علماء اللغة العربيّة ، وأحد أساطين الأدب العربيّ الذين أتقنوا معرفة أساليب الفصاحة والبلاغة والبيان ، حتّى يجعل من نفسه حكماً على أسلوب القرآن الكريم ، فيقول إنّ في قول العرب عن فصاحة القرآن مبالغة أو غير مبالغة ، وإنّ في آياته آيات موزونة رائعة لم يسبق إلى مثلها كتاب آخر ؟

إنّ مثل هذا القول يقبل من علماء العربيّة وجهابذتها ، ومن عرفوا كنادج عليا في فقه اللغة وآدابها .

ويقول (لوبون) : إنّهُ كُتِبَ تَبَعاً لِمُقْتَضِيَاتِ الزَّمَنِ ، وَيُضِيفُ بِأَنَّ جَبْرِيلَ يَأْتِي بِوَحْيٍ لِيَحْلُلَ كُلَّ مَعْضَلَةٍ تَوَاجَهَ الرَّسُولُ ﷺ ، إِذْ كَانَ مِنَ الْأَجْدَرِ بِهِ أَنْ يَقُولَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَمْ يُؤَلَّفْ تَأْلِيفاً ، بَلْ نَزَلَ بِهِ الْوَحْيُ الْأَمِينُ - جَبْرِيلُ - عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَكَانَ يَتْلُوهُ عَلَى أَصْحَابِهِ ، فَيَحْفَظُونَهُ وَيَكْتُبُونَهُ ، فَجَاءَتْ آيَاتُهُ حَسَبَ تَطَوُّرِ الْأَحْدَاثِ وَضُرُورَاتِ التَّشْرِيعِ ، وَأَيُّ حَرْجٍ أَوْ مَاخِذٍ فِي ذَلِكَ ؟!

- ٢١ -

« وَلَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ فِيلَسُوفاً كَبِيراً ، أَيْ مِنَ الْمَفْكَرِينَ الْمُبْحَرِينَ الَّذِينَ يُقَاسُونَ

غوستاف لوبون (٨)

- ١١٣ -

بمؤسسي دين البراهمة أو الديانة البُدْهيَّة^(٧٠) ، فهو لم ينكر سبب الأسباب كما أنكره البُدْهيَّون ، ولم يقل مثلهم بأنَّ الكون موجود بالضرورة ، ذواخل و تركيب دائمين ، ولم يتَّصف بنصف ما عند مؤلَّفي كتب البراهمة المقدَّسة من الشُّك ، ولم يَدْخِل إلى القرآن مثل التَّأمُّلات الآتية الَّتِي تجدها في كتب الويدا - القيدا - :

مِنْ أَيْنَ أَتَى هَذَا الْكَوْنُ ؟

أَهُوَ مَنْ صَنَعَ خَالِقٌ أَمْ لَا ؟

يعلم ذلك من ينظر من فوق الفلك ، وقد لا يعلم ، [صفحة ١٤٩] .

« لم يكن محمد فيلسوفاً كبيراً » ، بالمعنى التقليدي للكلمة ، إِنَّهُ ﷺ نبيٌ مرسل ، تخضع له الفلاسفة الكبار ، وتقرُّ له بالفضل ، وتعتنق تعاليه ، فهم تبع له^(٧١) .

« فهو لم ينكر سبب الأسباب كما أنكره البُدْهيَّون » ، إنَّ إنكار مسبب الأسباب ، والقول بأزليَّة الوجود ، ووجوده بالضرورة ، قول ينقضه العلم الحديث ، ولم ولن يقول القرآن الكريم أو محمد ﷺ كلمة واحدة تخالف العلم الحديث ، الَّذِي أثبت مسبب الأسباب ، بالاستناد إلى النَّتائِج الَّتِي انتهت إليها أقطاب العلماء والباحثون المعاصرون في مجالات الفيزياء والكوزمولوجيا^(٧٢) ، ومبحث الأعصاب وجراحة الدماغ ، وعلم النفس الإنساني ، « ثبت بما لا يدع مجالاً للشُّك ، أن المادة ليست أزليَّة ، آمنوا بعقل أزلِّي الوجود منتصب وراء هذا الكون ، يدبره ويرعى شؤونه .. »^(٧٣) .

(٧٠) مرَّ التعريف بها في فصل من روائع لوبون الحاشية الخامسة .

(٧١) ولسنا هنا في صدد استعراض ، أو ذكر جميع كبار الفلاسفة الَّذين أقرُّوا بالفضل ، ولكن نذكر بقوته ، وتولستوي ، وكارليل ، وهذلي ، ودينيه ، وغارودي .. على سبيل المثال .

(٧٢) Comology : علم الكون .

(٧٣) انظر مثلاً : (العلم في منظوره الجديد) د . روبرت أغروس ، و د . جورج ستانسو ، ترجمة :

كال خلايلي ، سلسلة (عالم المعرفة) ، الكويت ، العدد ١٣٤

« ولم يتَّصف بنصف ما عند مؤلَّفي كتب البراهمة المقدَّسة من الشَّك .. » ،
 أمَّا الشَّكُّ ، فهو موقف فلسفي أصيل ، ولا يتكوَّن الموقف الفكري الأصيل
 إلَّا بالشَّك ، والشَّكُّ المسألة الأساسيَّة الَّتِي ارتكزت عليها تأمُّلات الرُّسول
 الكريم ﷺ ، الَّذِي كان جاداً في تأمُّله ، جاداً في شَكِّه بما عليه الحال في
 الجاهليَّة ، ولكن يَقطع الشَّكُّ باليقين عند صحَّة القضية ، فبعد نزول الوحي
 بآيات بيِّنات تُتلى ، لاموطن للشَّكِّ ولا مجال له ، لقد جاء القرآن الكريم لينهي
 شكَّ الإنسان الخام ، عندما وضع الحلول للمشكلات الكبرى بشكل شامل دقيق ،
 مما يثبت أنَّه وحيٌّ منزل من لدن عزيز حكيم ^(٧٤) .

« ولم يُدْخِل إلى التَّأمُّلات الآتية الَّتِي تجدها في كتب الويدا - الفيدا :- من
 أين أتى هذا الكون ؟ أهو من صنع خالق أم لا ؟ .. » ، عجيبة جداً هذه
 العبارات ، عكسها تماماً عين الحقيقة ، فعشرات الآيات توضِّح بجلاء من أين أتى
 هذا الكون ، وأنَّه من صنع خالق حكيم : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
 الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ، [الحجر ٨٥/٨٦] ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ،
 [الدُّخان ٣٨/٣٩] .

(٧٤) ولا يمكن لعقل بشري إذا قام عنده الدليل الصَّحيح على أمر ما أن يرتاب فيه ، لقد تفشَّى إنكار
 الوحي في التَّوراة والأنجيل من التُّضارب والتَّنافر ما لا تقوى العقول على قبوله ، حتَّى يكون
 الإنكليزي كان يعلن اللاهوتيَّة ، ويضرر الإلحاد .
 بينما طابق القرآن الكريم مطالب العقل مطلقاً ، وإذا أراد القرآن قاضياً ليحكم بوحيه الإلهي
 فإلى العقل مرجعه ، وإذا حاجَّ فيحكم العقل ، وإذا سخط فعلى معطلي العقل ، أو رضي فعن
 أولي العقل .. (الإسلام دين الفطرة والعُزِّيَّة) للشيخ عبد العزيز جوايش .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، [الأعراف ٥٤/٧] .

أما الفيدا^(٧٥) التي وجد فيها (لوبون) تأملات رفيعة المستوى ، أقدم آلهة فيها هي قوى الطبيعة ، وعناصرها : السماء والشمس والأرض والنار والضوء والرياح والماء والجنس ، فديوس إله السماء ، ثم جعلوا السماء أباً ، وأسموها فارونا ، وجعلوا الأرض أمّاً وأطلقوا عليها اسم بريثقي ، وكان النبات هو ثمرة التقائهما بوساطة المطر ، وكان المطر هو الإله بارجاينا ، والنار هي آجني ، والرياح كانت فايو ، وأما إن كانت الرياح مهلكة فهي روذرا ، وكانت العاصفة هي إندرا ، والفجر أوشاس ، ومجرى الحراث في الحقل كان اسمه سيتا ، والشمس مترا ، أو فشنو ، والنبات المقدس المسمى سوما ، والذي كان عصيره مقدساً ومسكراً للآلهة والناس معاً ، كان هو نفسه إلهاً يقابل في الهند ما كان يسمى يونيسوس عند اليونان ، فهو الذي يوحى للإنسان بمادته المنعشة ، أن يفعل الإحسان ، ويهديه إلى الرأي الثاقب ، وإلى المرح ، بل يخلع على الإنسان حياة الخلود .

والشمس التي تولد الحي من الحي أصبحت إلهاً عظيماً هو (براجاباتي) ، أي ربّ الأحياء جميعاً .

(٧٥) إن كلمة (الفيدا) معناها : كتاب المعرفة ، بقي من الفيدات الكثيرة ، التي شهدها الماضي أربعة أسفار :

١ - سفر رج ، أو معرفة ترانيم الشاء .

٢ - سفر ساما ، أو معرفة الأنغام .

٣ - سفر باجور ، أو معرفة الصيغ الخاصة بالقرايين .

٤ - سفر آتارفا ، أو معرفة الرق السحرية .. [قصة الحضارة ٢٨/٣] .

ولبثت النَّارُ ، وهي الإله (أجنّي) ، حيناً من الدهر أهمَّ آلهة الفيدا كلّها ، إذ كان هذا الإله هو الشُّعلة المقدَّسة الَّتِي ترفع القربان إلى السَّماء ، وكان هو البرق الَّذِي يشب في أرجاء الفضاء ، وكان للعالم حياته النَّاريَّة ، وروحه المشتعلة ، غير أنَّ (إندرا) الَّذِي ينصرف في الرُّعد والعاصفة ، كان أشيع الآلهة ذِكْراً بين النَّاس ، لأنَّه هو الَّذِي يجلب للآري الهندي الأمطار النَّفيسة الَّتِي بدت له عنصراً جوهرياً يكاد يزيد في أهميَّته للحياة على الشَّمس ذاتها ، ولذا فقد جعلوه أعظم الآلهة مقاماً ، يلتسون معونة رعوته في حومات القتال ، وصُوروه - بدافع الحسد له - في صورة البطل الجبَّار الَّذِي يأكل العُجُول مئات مئات ^(٧٦) .

ولما كثر عدد الآلهة نشأت مشكلة هي : أيُّ هؤلاء الآلهة خلق العالم ؟

ونتساءل بعد هذا : لماذا هذا التَّمجيد الكبير - والمفتعل - للفيدا على حساب القرآن ؟

الجواب : كتب الفيذا بالسَّنسكريتيَّة ، الَّتِي كان يكتبها الآريُّون الهنود ، والَّتِي تُعدُّ من أقدم مجموعات اللُّغات (الأوربيَّة - الهنديَّة) ، بل هي أقدم أثر أدبي في أيَّة لغة هندو - أوريَّة في الشَّرْق والغرب ، الَّتِي - كما يقول وُل ديورانت ^(٧٧) - تنتمي إليها لغتنا الَّتِي نتحدَّث بها ، فإننا نشعر للحظة من الزَّمَن شعوراً عجيباً باتِّصال حلقات الثَّقافة عبر هذه الأماد الفسيحة من الزَّمان والمكان ، حين نلاحظ أوجه الشَّبه في السَّنسكريتيَّة واليونانيَّة واللاتينيَّة والانجليزيَّة بين الألفاظ الَّتِي تدلُّ على الأعداد وعلى أنواع الصِّلَة في الأسرة ...

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فالفرنسي رينان Renan ، الَّذِي كان معاصراً للوبون ^(٧٨) ، رَوَّج إلى تصنيف البشر إلى ساميَّين وآريَّين ، وتقرير تفوُّق

(٧٦) قصة الحضارة ٣/٣٢

(٧٧) قصة الحضارة ٣/٣٦

(٧٨) أرست رينان Renan [١٨٢٣ - ١٨٩٢ م] ، كاتب وعالم أثري فرنسي .

الجنس الآري في مجال الفلسفة ، كما في مجالات أخرى ، إذ يقول : « ما يكون لنا أن نلتص عند الجنس السامي دروساً فلسفية ، ومن عجائب القدر أن هذا الجنس الذي استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القوة في أسمى درجاتها ، لم يثر أدنى بحث فلسفي خاص ، وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباساً صرفاً جديداً وتقليداً للفلسفة اليونانية » (٧٩) .

وقال رينان أيضاً : « فنذ القِدَم كان الفكر السامي ، بطبيعته ، مضاداً للفلسفة رافضاً للعلم » (٨٠) .

وهكذا ، إنَّ الرؤية الاستشراقية تصرّح علناً بالتفوق البيولوجي للآريين ، وتتحامل على العقل العربي الإسلامي ، فهي لا ترى إلا الفكر الأوربي منظوراً إليه فكراً للإنسانية جمعاء .

- ٢٢ -

« وكان من مقاصد محمد أن يقيم ديناً سهلاً يستمره قومه ، فوفق لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم ، ولم يفكر محمد قط في إبداع دين جديد ، وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار من تقدّمه من أنبياء بني إسرائيل من إبراهيم إلى عيسى قائلًا إن ما أوحى إليهم صحيح ، فالحق أن اليهودية والنصرانية والإسلام فروع ثلاثة لأصل واحد ، وهي ذات قرّبي وشيعة » ، [صفحة ١٥٠] .

إنَّ عبارات (لوبون) هذه ، مردودة عليه من الناحية العلمية ، بل هو نفسه في أماكن أخرى من كتابات يردّ على نفسه ، فيقول هنا : إن من مقاصد

(٧٩) مناهج المشرقين ٣٠٩/١

(٨٠) مناهج المشرقين ٢٤/٢ ، وأكّد هذه النظرة : أميل برهيه (المرجع ذاته ٣١٦/١) ، وديبور

٣٢٢/١ ، وأميل فيلكس قوتي ٢٢/٢ ..

مُحَمَّد - ﷺ - أن يقيم ديناً سهلاً يستتره قومه ، فهل كان هذا الدين من صنعه حتى يقيمه كما يشاء ؟ وهل تسمح ثقافته ﷺ وعلمه وبيئته أن يفعل ذلك ؟ ثم يقول : وأخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم ، ولم يفكر محمد قط في إبداع دين جديد .

أين درس محمد اليهودية والنصرانية ، حتى أخذ منها ما يشاء لصنع دين جديد ؟ ونرجو ألا يكون الردُّ ، أخذ ذلك وهو طفل صغير ، وخلال ساعات قليلة ، من الرّاهب بحيرى ، كما نرجو ألا يقال بأنّه انتقل سراً من مكة إلى يثرب ، فأخذ من يهودها ، ولو فعل ذلك لفضحوه مستقبلاً حين أصبحوا ألدَّ خصومه .

والأمر الآخر ، ماهي الأمور التي رآها (لوبون) في الإسلام وهي مقتبسة من اليهودية أو النصرانية ، اللهم إلا الدعوة إلى عبادة إله واحد ، وهي قاعدة تقوم عليها كل ديانة سماوية .

أما التشريع الإسلامي في العبادة والمعاملات والاقتصاد والسياسة فلا وجود لها مطلقاً في النصرانية ، وتختلف كل الاختلاف عما هي عليه عند اليهود ، فكيف يصدر عن (لوبون) حكمه بأنّ محمداً لم يفكر في إبداع دين جديد ، إنّ ما يصح أن يقال هو أنّ محمداً لم يفكر فعلاً في إبداع دين جديد ، لأنّ الأمر ليس منه ، بل هو من الله الذي قدر وهدى ، وأوحى إلى رسوله محمد ﷺ ما أوحى ، وهو يؤكّد على صدق نبوة من سبقه من الأنبياء والرسل ، دون أن يؤكّد على صحة ما بأيدي الناس من كتب أولئك الرسل :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ ، [الشورى ١٣/٤٢] .

- ٢٣ -

« وإِنِّي أَنقُلُ مِنَ الْقُرْآنِ بَضْعَ آيَاتٍ فِي كُلِّ مَوْضُوعٍ مُهِمٍّ ، وَأُرَتِّبُ مَا نَقَلْتَهُ مِنْ آيَاتِهِ بِمَحَسَبِ الْمَوْضُوعَاتِ ، نَظْرًا إِلَى أَنْ مَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ فِي الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ مَبْعُوثٌ فِي سُورِهِ فِي الْغَالِبِ » ، [صفحة ١٥٠] ، ثُمَّ يَقُولُ (لُوبُون) : قَالَ مُحَمَّدٌ ، وَيَذْكُرُ آيَاتَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، كَمَا فِي الصَّفَحَاتِ : ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ..

مِنْ أَوَّلِ صِفَاتِ الْعَالَمِ الصَّدِّقِ فِي نَقْلِ مَا يَنْقُلُ ، فَهَلْ قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ كَانَ يَتْلُو آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنَّنِي أَنَا قُلْتُ أَوْ أَقُولُ ذَلِكَ ؟ لَا ، إِنَّهُ كَانَ يَعِيدُ الْقَوْلَ إِلَى صَاحِبِ الْقَوْلِ ، لَقَدْ قَالَ : أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيَّ ، فَوَجِبَ عَلَى الْعَالَمِ الْمُنْصَفِ أَنْ يَقُولَ : قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِأَنَّ الْوَحْيَ نَزَلَ عَلَيْهِ بِكَذَا وَكَذَا ، أَمَّا أَنْ يُصَدِّقَ (لُوبُون) أَوْ لَا يُصَدِّقَ ، فَهَذَا شَيْءٌ آخَرُ .

مَعَ أَنَّ الْمَكَابِرَةَ بِظَاهِرَةِ الْوَحْيِ بَعْدَ الْإِعْجَازِ الْعَالَمِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَكَابِرَةٌ فِي الْمَحْسُوسِ لَيْسَ غَيْرُ .

- ٢٤ -

« وَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ نَصٍّ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَخَلْقِ آدَمَ ، وَالْجَنَّةِ ، وَهَبُوطِ آدَمَ مِنْهَا ، وَيَوْمِ الْحِسَابِ مُقْتَبَسٌ مِنَ التَّوْرَةِ » ، [صفحة ١٥٣] .

لِمَاذَا يُؤَكَّدُ (لُوبُون) عَلَى أَنَّ مَا يَرِدُ مِنْ آيَاتٍ فِيهَا تَشَابَهُ ، وَقَدْ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفِي التَّوْرَةِ أَنَّهَا مُقْتَبَسَةٌ مِنَ التَّوْرَةِ ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ مَجَانِبَةً لِلْحَقِّ ، فَلِمَاذَا لَا يَقُولُ : إِنَّ الْمَصْدَرَ الْإِلَهِيَّ الْوَاحِدَ أَوْجَدَ هَذَا التَّشَابَهَ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ ؟ وَمَاذَا يَقُولُ يَاطَرَى فِي الْآيَاتِ الْآخَرَى الْعَظِيمَةِ الْمُخْتَلِفَةِ كَثِيرًا ؟ وَمَاذَا يَقُولُ بِآيَاتِ

القرآن الكريم الّتي تحدّثت عن تاريخ بني إسرائيل مع أنبيائهم ، فهل ورد مثلها في التّوراة أو الإنجيل ؟

إنّ الأمور الأخرويّة والغيبيّة المتعلّقة بالخلق والجنّة والنّار والحساب ، وبعض الأحداث التّاريخيّة في خطوطها الرّئيسة ، يجب أن تكون متشابهة ، أمّا الآيات الأخرى ، أو الجزء الكبير منها ، فقد اعتراها بالنّسبة للتّوراة تبديل وتحريف كبيران ، حيث كُتبت التّوراة على أيدي أحبار اليهود في سنوات متأخرة جدّاً عن عهد نزول التّوراة ، أي بعيدة عن عهد موسى عليه السّلام ، فكتبها أولئك الأحبار كما أرادوها هم ، وكما أرادوا أن يَصوِّروا من خلالها تاريخهم ومستقبلهم ، فجاءت كثيرة الأخطاء ، بعيدة عن روح التّسامح والمساواة الّتي عرفت بها الديانات السّماويّة ، بل وامتلات بما في نفوسهم من عقد الذّنوب والآثام والأحقاد والتّعصّب والعنصريّة .. مما لا يمكن أن يصدر عن ربّ السّماوات والأرض ، خالق البشريّة .

- ٢٥ -

« إذا رَجَعْنَا القرآن إلى أصوله ، أمكننا عدّ الإسلام صورةً مختصرة من النّصرانيّة ، مع ذلك ، في كثير من الأصول ، ولاسيّما في التّوحيد الّذي هو أصلٌ أساسي ، فالإله الواحد الّذي دعا إليه الإسلام مهينٌ على كلّ شيء ، ولا تحفُّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يُفرض تقديسهم ، وللإسلام وحده كلّ الفخار بأنّه أوّل دين أدخل إلى العالم التّوحيد المحض » ، [صفحة ١٥٨] .

ليس هذا فحسب ، بل مع التّوحيد مخاطبة العقل لا العاطفة ، فالإسلام دين ترقّي وتقدّم ، فيه يوزن مداد العلماء بدم الشّهداء ، فيرجح مداد العلماء على دم الشّهداء ، وما كان ﷺ يبغض شيئاً بغضه لتعطيل العقل وعدم الأخذ

- ١٢١ -

بالأسباب ، وبغضه للشرائع والقوانين الجامدة التي تقيّد العقل فتقوده صاغراً
أعمى (٨١) .

وبالعقل ، تأتي الطائنية بما يعتقده المرء ، بلا خطأ أو زلل أو ضلال .

وللإسلام الفخر ، كل الفخر ، بأنه أوّل دين أدخل إلى العالم التّوحيد
الخالص ، ولكن (لوبون) يشوّش ما قال ، عندما عدّ الإسلام صورة مختصرة من
النّصرانيّة ، ولم كنّا نتمنى أن يعطينا تلك الجوانب التي تجعل من الإسلام صورة
مختصرة من المسيحيّة !!

الإسلام لا يشكّل تلك الصّورة المختصرة ، بل نريد أن نعكس الأمر لنقول :
إذا كانت النّصرانيّة تدعو إلى وحدانيّة الله ، فهي بهذا الأساس - الذي شوّهته
عقائد وثنيّة دخيلة - تلتقي مع الإسلام ، ومع كلّ ديانة سماويّة أخرى من عهد
إبراهيم أبي الأنبياء ، إلى محمّد ﷺ خاتمهم ، ذلك أنّ من الطّبيعي أن يكون
التّوحيد هو جوهر كلّ دين سماوي ، لكن النّصرانيّة لم تعرف التّشريعات التي تقوم
عليها حياة البشر ، لهذا اعتمدت القول : « دع مالقيصر لقيصر ، وما لله لله » ،
وهذا ما لانجده في الإسلام ، حيث كلّ شيء لله ، وهو الذي أرسل محمّداً ﷺ
لبیان التّشريعات التي تضمن سعادة البشر في دنياهم وأخراهم ، وحين احتاجت
النّصرانيّة بعض تشريعاتها ، أخذتها من توراة اليهود وتشريعاتهم ، بعد أن كان
أخبارهم قد غيّروا فيها ، وبدّلوا ما شاء لهم أن يبدّلوا ويغيّروا ، ومن هنا دخلت
الأفكار التّوراتيّة إلى العقليّة النّصرانيّة لتلعب دورها عن طريق الإيمان والتّسليم
بما أوردته التّوراة ، مما أصبح يعتقد وكأنّه من الله ، وما هو منه في شيء .

- ٢٦ -

« وكانت دولة الرُّوم ، ألتي نهكتها محارباتها لدولة الفُرس ، وألتي كانت تعاني عوامل الانحلال الكثيرة ، في دور الانحطاط ، فلم تكن غير هيكل نَخِر يكفي لتداعيه أقلُّ صدمة » ، [صفحة ١٦٦] .

« ولو كانت أركان العالم متداعيةً كالدولة الإغريقية الرومانية ، والدولة الفارسية في زمن ظهور محمد ، فقد كانت تلك الدولتان مرهوبتين ، مع ما كان يبدو من وهنها ، فكان لابداً للأمة ألتي تريد محاربتها من أن تكون ذات صفات حربية عظيمة ، فضلاً عن معتقداتها ألتي تُوجّه جهودها إلى غرض واحد ، ولم يحتج العرب إلى ما يتطلبه مثل ذلك العمل الجليل من الشجاعة وحب القتال ما ورثها العرب أباً عن جدّ ، مضافاً ذلك إلى مانشأ عن إيمان العرب الجديد من حرصهم على الشهادة حبّاً للجنة ألتي وُعدوا بها » ، [صفحة ١٦٨] .

« وَلِدَ محمد في أحسن الأوقات ، فقد رأينا أن العالم المُسنّ كان متصدّعا فيه من كلّ جانب ، فلم يتوجّب على أتباع محمد إلّا أن يَهْزُوه ليتساقط » ، « بيد أن القضاء على دولة لا يكفي لإقامة حضارة » ، [صفحة ١٧٥] .

الحروب تضعف الأمم أحياناً ، ولكنها لا تسوقها كما تصوّر عبارة (لوبون) إلى الانحلال والانهيار ، إنّ دولة الرُّوم لم تكن هيكلًا نخرًا يكفي لتداعيه أقلُّ صدمة ، إنّها دولة ذات إمكانات جبّارة ، ومساحات واسعة ، وثروات عظيمة ، استطاع قائدها الجديد (هرقل) بعد هزيمتها أمام الفرس أن يوحّدها ويعيد إليها قوّتها ، وأن يستعيد مجدها العسكري ، وأن ينتصر على دولة الفرس الساسانية ، وأن يستعيد منها ما أخذته من ولاياتها كبلاد مصر والشّام .

وكذلك دولة الفُرس ، فهي دولة عسكرية قويّة ، فنذ سنوات قليلة قبل

- ١٢٣ -

فتوح العرب المسلمين ، كانت قد أحرزت انتصارات عظيمة على الرُّوم ، وانتزعت منهم الشَّام ومصر ، لكن بعض المؤرِّخين يريدون أن يصوِّروا هاتين الامبراطوريَّتين بتلك الصُّورة من الضَّعف والانحلال ليقلَّلوا من قيمة الفتوحات العربيَّة الإسلاميَّة ، الَّتِي كان لها النُّصر المبين على الدَّولتين العظيمتين في وقت واحد ، وهذا مايدلُّ عليه قول (لوبون) في العبارة الَّتِي تلت : « فقد كانت تانك الدَّولتان مرهوبتين مع ما كان يبدو من وهنها ، فكان لا بُدَّ للأُمَّة الَّتِي تريد محاربتها من أن تكون ذات صفات حربيَّة عظيمة ، فضلاً عن معتقداتها الَّتِي تُوجِّه جهودها إلى غرض واحد ، ولم يحتج العرب إلى مايتطلَّبه مثل ذلك العمل الجليل من الشَّجاعة وحبِّ القتال ماورثها العرب أباً عن جدِّ ، مضافاً ذلك إلى مانشأ عن إيمان العرب الجديد من حرصهم على الشَّهادة حُباً للجنَّة الَّتِي وُعدوا بها ، ولكن الغريب في الأمر أن (لوبون) الَّذِي أكَّد في عبارته السَّابقة على عظمة دور العرب المسلمين في النُّصر على دولتي الرُّوم والفرس بما ملكوه من تقاليد الشَّجاعة وحبِّ القتال ، وما أوجده فيهم الدِّين الجديد من حبِّ للشَّهادة ، ودخول الجنَّة .. يعود (لوبون) ليقول : بأنَّ العالم كان متصدِّعاً من كلِّ جانب ، فلم يتوجَّب على أتباع محمَّد ، إلَّا أن يهزُّوه ليتساقط ..

إنَّها الصُّورة الأولى الَّتِي تقلَّل من أهميَّة الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة وجهودها في تحقيق الانتصار ، وكأنَّ الأمر كمن يهزُّ شجرة النَّخيل ليتساقط ثمرها بين يديه ، لقد بذلت دولة الإسلام من الجهود ، وأظهرت من الإمكانيات والبطولات في مجالات الفكر السِّياسي ، والتَّخطيط العسكري ، مايرفعها إلى أعلى درجات المجد ، ويجعل عدداً من خلفائها وقادتها رجالاً أفذاذاً في تاريخ العالم .

و (لوبون) ينبِّه - بحق - إلى أنَّ القضاء على دولة لا يكفي لإقامة حضارة .

صحيح إنَّ العرب المسلمين قضاوا على الدَّولة السَّاسانيَّة ، وحطَّموها بيزنطة في بلاد الشَّام ومصر .. لكن الأهم من هذا وذاك أنَّهم أقاموا على أرض دولتهم الواسعة الجديدة ، وعلى أنقاض الدَّول المهزومة أمامهم ، حضارة مازال علماء العالم حتَّى اليوم يتحدَّثون عن مدى تقدُّمها في العلوم المختلفة ، وكثرة علمائها واختراعاتهم واكتشافاتهم واتِّساع أفق تفكيرهم ، وانتفاعهم من منابع العلوم والحضارة أيَّما وُجِدَتْ ، ومتابعة السَّير في طريق العلم ، ورائداهم في ذلك سلوك طريق البحث العلمي القائم على الملاحظة والتَّجربة ، يأخذون العلم من أيَّة جهة جاءهم منها ، ولكن يُعْمِلُون به عقولهم نقداً وبحثاً ودراسةً وتقدُّماً .

إنَّ مقولة : « لقد كان ظفر الإسلام محتماً ، وفتحه سهلاً محققاً » ، لأنَّه صادف أُمَّة خامرها الفساد في أخلاقها - كما هي الأُمَّة البيزنطيَّة والفارسيَّة - « فليس بقادح فيما ثبت للعرب الفاتحين حينئذٍ من البسالة الفائقة ، والحاسية المدهشة ، وجميع الفضائل العسكريَّة من إخلاص وصبر وقناعة وعلو نفس ، وبعد همة ، وبصيرة بالحرب » (٨٢) .

وفي ختام هذه الفقرة تقدِّم الملاحظات التَّالية (٨٣) :

١ - انتصر المسلمون في الجزيرة العربيَّة ، وهم قِلَّة ، على إخوانهم وأبناء عموماتهم وهم كثرة ، كما انتصروا في حروبهم ضدَّ المتنبِّئين أيام أبي بكر الصَّدِّيق رضي الله عنه ، على كثرتهم السَّاحقة وقلة عدد المسلمين أيضاً .

٢ - وانتصار المسلمين على الرُّوم والفُرس ، انتصار على أضعاف عددهم ، ألا يكفي الرُّوم في بلاد الشَّام ، أنْ مئة ألف عربي متنصِّر كانوا معهم في اليرموك ؟ وترتيبات الفُرس والرُّوم عريقة ، وإمداداتهم وعتادهم عظيمان ، وهما

(٨٢) حاضِر العالم الإسلامي ١٨٣/١

(٨٣) آراء يهدمها الإسلام ، (انتصار وإهن) ، ص ٦٣

يحاربان في أراضيها ، وضمن ديارها ، ولا يقارن عتاد المسلمين وتموينهم بالدى
الفرس والروم .

٣ - لم يحارب المسلمون الروم ثمّ الفرس ، بل فتحوا جبهتين في آن واحد ،
كلّ منهما أغنى منهم رجالاً ومالاً وخبرة ومراساً ، فعندما خرج المسلمون فاتحين من
جزيرتهم ، كان الروم يستصغرون شأنهم ، وكان الفرس يحتقرون قدراتهم ،
ويسمونهم الجياع .

٤ - النصر العسكري ، شيء عظيم ، والأعظم منه انتصار العقيدة ، لقد
استمرت حروب الفرس والروم فيما بينها أربع مئة سنة ، دون حسم ، ولما جاء
الإسلام قلّت العقيدة كلّ سلاح ، لقد تبع النصر العسكري ، نصر في مجال
العقيدة ، وهنا يكن جانب عظيم من عظمة الإسلام ، عندما نقل الشعوب إلى
الإسلام ، فكان النصر الحقيقي ، انتصار العقيدة ، لانتصار الجسد وعضلاته .

٥ - وحارب المسلمون البربر ، وهم أبناء شدة ، وبيئة قاسية ، وانتصروا
عليهم عسكرياً ، ولكنهم نقلوهم إلى الإسلام ، فقاموا معهم ليبلغوا العالم الرسالة
الإسلامية .

كما حارب المسلمون الترك في ما وراء النهر ، وتمّ للمسلمين النصر على الترك ،
وهم أبناء صحراء ، وأبناء بيئة قاسية صقلتهم ، ولم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام ،
وأصبحوا جنده الأوفياء .

ومع هذه الانتصارات ، إنّ الحروب الأولى للمسلمين ، لم تكن هدفاً بذاتها ،
لقد كانت وسيلة للوصول إلى الشعوب لتبليغ رسالة الله سبحانه وتعالى .

- ٢٧ -

« ولكن العرب كانوا يجهلون فنّ الحرب جهلاً تاماً ، ولا تقوم الشجاعة مقام

- ١٢٦ -

هذا الفنّ ، وكان اقتتال العرب فيما بينهم من نوع اقتتال البرابرة الَّذِينَ كانوا يَنْقُضُونَ على أعدائهم بدون نظام ، ولا يحارب كلُّ واحدٍ إلا من أجل نفسه ، وكان غير ذلك أمر الفُرس والرُّوم ، الَّذِينَ كانت معرفتهم لفنّ الحرب عظيمة جداً ، كما ظهر في اشتباكهم الأوّل بالعرب ، والعرب لم يلبثوا أن عَلموا من الهزائم الَّتِي أصابتهم في سوريّة ، ما كان يعوزهم ، فاقتبسوا من قاهرهم بسرعة الشّيء الكثير من شؤون الحرب .. » ، [صفحة ١٦٩] .

إن قول (لوبون) : « .. الفُرس والرُّوم ، الَّذِينَ كانت معرفتهم لفنّ الحرب عظيمة جداً » ، يناقض ما قاله سابقاً : « فلم تكن غير هيكل نَخِرٍ يكفي لتداعيه أقلُّ صدمة » .

صحيح أنَّ العرب اقتبسوا من قاهرهم بسرعة الشّيء الكثير من شؤون الحرب ، لكن الأصح والأدق من ذلك أن نقول : إنَّ العرب بعد أن وحّدهم الإسلام ، وأخرجهم من ظلام عصبيّاتهم الجاهليّة ، ودفعهم إلى طريق العلم والبحث والاقتباس ، تعلّموا الكثير منذ أيّامهم الأولى ، وقبل أن يصلوا إلى بلاد الشّام ، وإلى العراق وفارس .

ففي غزوة بدر الكبرى استخدم المسلمون بقيادة الرّسول الكريم ﷺ ، نظام الصّف في القتال ، بدلاً من الكرّ والفرّ .

وفي غزوة الأحزاب ، استخدم المسلمون الخندق ، حفروه وتحصّنوا وراءه .

وفي حصار الطّائف نصبوا المنجنيق ..

وفي معاركهم في حروب الرّدة ، وفي بداية حروبهم في العراق والشّام ، استخدموا عنصر المباغتة ، وإضعاف معنويات العدو ، وطرق التّجمّع بعد تبديد قوّات العدو ، وطرق تقسيم الجيش إلى كرايس ، كلُّ ذلك يكتّنان من القول لم يكن تعلّم المسلمين وقفاً على ما أخذوه من الرُّوم في سوريّة .

أمّا كلمة (قاهريهم) ، فلنا اعتراضٌ عليها ، متى قهرهم الرُّوم حتّى نعطيهم لقب (قاهريهم) ؟ المعركة الوحيدة التي كانت غير متكافئة ، وانسحب العرب المسلمون في بدايات لقاءهم مع الرُّوم هي معركة مؤتة ، وكانت خسائرهم فيها محدودة جداً ، وكان انسحابهم انتصاراً كما رآه الكثيرون ، ثمّ توالى بعد ذلك انتصاراتهم على أيدي قادة الفتوح في بلاد الشّام .

- ٢٨ -

« وبعد أن ملّك السّلاجقيّون جميع الولايات المجاورة لبغداد ، جعلوا مقرّهم أمام القسطنطينيّة^(٨٤) ، واستولوا على سورّيّة وأحلّوا التّعصّب محلّ تسامح العرب ، فنهوا النّصارى عن القيام بشعائر دينهم ، وجاروا على حجيجهم فاضطربت أوربة لذلك وثارت ، بعد أن كانت تخشى تقدّم المسلمين منذ زمن طويل » ، [صفحة ١٨٠] .

ليست هذه أسباب الحروب الصّليبيّة ، إنّها مغالطة نأسف لصدورها من علامة كبير ، كالفيلسوف (لوبون) .

الحروب الصّليبيّة التي بدأت الدّعوة لها سنة ١٠٩٥ م ليست إلّا استمراراً لحركة الحجّ الجماعي إلى بيت المقدس ، مع حدوث تطوّر في الأسلوب ، وهو أنّ الحجّ الجماعي صار حربيّاً ، بعد أن كان سلميّاً ، فالحجّاج الذين خرجوا سنة ١٠٦٤ م مع رئيس أساقفة مينا ، بلغوا سبعة آلاف حملوا معهم أسلحة للدّفاع - كما يدّعون - عن أرواحهم في الطّريق ، فهل هناك فارق بين ذلك الموكب ، وأيّة حملة صليبيّة تالية ، سوى في الأسلوب الذي اتّبعه كلّ فريق في بلاد الشّام ؟

أمّا ذلك التّطوّر في الأسلوب ، فرجعه تلك الأخبار التي أخذت تصل إلى الغرب الأوربي عن سوء معاملة الحجّاج بعد امتداد السّلاجقة إلى بيت المقدس سنة

(٨٤) قونية : عاصمة سلطنة الرُّوم السّلاجقيّة ، من سنة ١٠٨١ ، وحتى ١٣٠٢ م .

١٠٧١ م ، ثم إلى أنطاكية سنة ١٠٨٥ م وطرده البيزنطيّين منها ، مما جعل الغرب يؤمن بأنّه لابدّ من استخدام القوّة لتأمين عمليّة الحجّ إلى الشّام .

إنّ المبالغة في سوء أحوال المسيحيّين في البلاد الإسلاميّة في العصور الوسطى ، وما تعرّضوا له من اضطهاد ، وكيف أنّ كنائسهم خربت ، وأديرتهم أغلقت ، وطقوسهم عطّلت .. مدخل مضلّ بعيد عن الحقيقة والتّاريخ ، ودخول من باب وهميّ يصرف عن المدخل الحقيقي إلى أسباب الحروب الصليبيّة .

وإذا كان دعاة الحروب الصليبيّة في أواخر القرن الحادي عشر قد دأبوا على الدّعاية لحركتهم في غرب أوربة عن طريق المناداة بأنّ أحوال المسيحيّين في آسية الصّغرى والشّام قد ساءت تحت حكم السّلاجقة ، فإنّ هناك أكثر من مؤرّخ أوربي مسيحي منصف قرّروا في صراحة تامّة ، أنّ السّلاجقة لم يغيّروا شيئاً من أوضاع المسيحيّين في الشّرق ، وأنّ المسيحيّين الّذين خضعوا لسلطان السّلاجقة ، صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الّذين عاشوا في قلب الامبراطوريّة البيزنطيّة ذاتها ، يقول ثومبسون Thompson : « وإنّ ما اعترى المسيحيّين في الشّام وآسية الصّغرى من متاعب في ذلك العصر ، إنّما كان مرده الصّراع بين السّلاجقة والبيزنطيّين ، لأنّه لا يوجد أيّ دليل على قيام السّلاجقة باضطهاد المسيحيّين الخاضعين لهم »^(٨٥) .

إنّ غالبيّة الصليبيّين الّذين أسهموا في الحركة الصليبيّة تركوا بلادهم ، إما بدافع الفضول ، أو لتحقيق أطماع سياسيّة ، وإما للخلاص من حياة الفقر الّتي كانوا يحيونها في بلادهم في ظلّ النّظام الإقطاعي ، وإما للهرب من ديونهم الثّقيلة ، أو محاولة تأجيل سدادها .. وإمّا لتحقيق مكاسب سياسيّة واقتصاديّة في بلاد الشّرق ، وأيّ وازع ديني كان عند ألوف الصليبيّين الّذين شاركوا في الحملة الصليبيّة الّذين اتّجهوا نحو القسطنطينيّة ، وهي البلد المسيحي الكبير ، لينهبوا

(٨٥) الحركة الصليبيّة ، د . سعيد عبد الفتّاح عاشور ، ط ١ ، ١٩٦٢ م ، مطبعة لجنة البيان العربي .

كنائسها ، ويسرقوا أديرتها ، ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب ، وهم جميعاً إخوانهم في الدين ؟

فمن أراد أن يعرف الأسباب الحقيقية للحركة الصليبية ، فعليه بالبحث في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية في غرب أوربة في القرن الحادي عشر ، لافي أحوال الحجاج النصارى الذين عاثوا في طريقهم أينما حلوا فساداً ، أو في أحوال النصارى في شرقنا العربي المسلم الذي عرف التسامح منذ كان ، ولكن التسامح شيء ، واستغلال التسامح شيء آخر ، التسامح شيء بديع جميل ، على ألا يستغل لانتهاك حرمة المسلمين ، وحرمة ديارهم .

إنَّ حريّة المعتقد أمر مُسلّم به في الإسلام .

لذلك حارب المسلمون المستبد الظالم ، ولم يحاربوا المسيحية ديناً ومعتقداً .
لقد أنهى المسلمون الحكومات ، وأبقوا على الشعوب حرة في معتقدها ، وحفظ الإسلام الأرواح ، والممتلكات والمعابد ، بوثائق حرص كل الحرص على تنفيذ مضمونها بدقة .

فالتسامح سمة العرب المسلمين الخالدة^(٨٦) ، ولكن هذا التسامح لا يعني الغباء والسذاجة والضعف ، فعندما استغلّ الحجّ الجماعي المُسلّح هذا التسامح ، قام السلاجقة بما يجب أن تقوم به أيّ دولة في العالم ، مرّت بمثل ظروفهم ..

- ٢٩ -

« استولى فرديناند في سنة ١٤٩٢ م على عاصمة العرب الأخيرة غرناطة ، وأخذ يمعن في قتلهم وتشريدهم جماعات جماعات ، وسار خلفاؤه على سنته ، فقتل^(٨٦) انظر (من روائع لوبون) في هذا الكتاب ، الفقرات رقم ٢ و ٦ و ٧ ، حيث الإقرار الواضح بتسامح الإسلام في فتوحاته .

- ١٣٠ -

وَشَرَّدَ من العرب ثلاثة ملايين نفس ، فخبث إلى الأبد شعلة حضارة العرب التي كانت تُنير أوربة منذ ثمانية قرون » ، [صفحة ١٨٢] .

« ثقلت قرونٌ على أعفار العرب ، ودخلت حضارتهم في ذمّة التاريخ منذ زمن طويل ، ولا نقول ، مع ذلك ، إنهم ماتوا تماماً ، فنى الآن ديانتهم ولغتهم اللّتين أدخلوهما إلى العالم أكثر انتشاراً مما كانتا عليه في أنضراً دارهم ، فالعربيّة هي اللّغة العامّة من مراكش إلى الهند ، ولا يزال الإسلام جاداً في تقدّمه » ، [صفحة ٧٣٤] .

من الجميل أن يسمع الإنسان كلمة الحقّ والإنصاف بين الحين والآخر ، من مؤرّخ أو عالم من علماء الغرب ، فقتل الإسبان للعرب المسلمين ، وتشريدهم لهم بوحشيّة ، إبّان ما يُدعى بحرب الاسترداد ، وكيف سار فرديناند - وإيزابيلا - على سنّته في قتل العرب وتشريدهم بأحكام صادرة عن محاكم التفتيش^(٨٧) .

أمّا عبارة : « فخبث إلى الأبد شعلة حضارة العرب .. » .

وعبارة : « ودخلت حضارتهم في ذمّة التاريخ منذ زمن طويل .. » ، رأي واحد خاطئ ، فكما يقول مالك بن نبي : الحضارة تسير كما تسير الشّمس ، فكأنّها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشّعب ، ثمّ متحوّلة إلى أفق شعب آخر .
فالحضارة لامتوت ، والحضارة الإنسانيّة بساط نسجته وتنسجه أيدي أمم كثيرة .

و (لوبون) في ختام الفقرة الثّانية ، يعترف أنّ الإسلام - لا يزال - جاداً في تقدّمه ، بل هو أكثر أديان العالم اليوم كسباً للاتباع .

(٨٧) وألّتي من قوانينها : (خير أن يُقتل مئة أبرياء من أن يُلجذ فرد واحد) ، وتطبيقاً لهذه القاعدة ، صاروا يقتلون ويحرقون النّاس ، لأقلّ شبهة ، ولم يكن لأحد حقّ الدّفاع عن نفسه ، ولا كان لحكمة أن تقبل في حال ما شاهد نفياً .

إنَّ جانباً من الحضارة يتَّجَلُّ بالتَّقدُّم العلمي ، وهذا الجانب لاشكَّ أنار أوربة ، وأضاء لها سبل نهضتها الحديثة ، أمَّا الجانب الفكري ، والروحي ، والاجتماعي ، والعقائدي بشكل عام ، مازال موجوداً ، وينتشر في أرجاء أوربة اليوم ، وسيستمر في انتشاره غداً - بإذن الله - لأنَّ حضارتهم الأوربيَّة الماديَّة لم توصلهم إلى سعادة الطمأنينة ، وهناءة الأمن ، وهم يفتشون عن الجانب الروحي ، العقلاني العلمي السَّليم ، كي تتوازن حضارتهم ، فتستقرَّ النفوس وتسعد وتهدأ .

- ٣٠ -

« ومهما يكن الأمر، فإنَّ مما لا ريب فيه ، أنَّ مباني الدَّور الإسلامي الأوَّل ، لم تكن من صنع العرب ، وأنَّ عمَّال البلاد التي دانت لهم هم الذين غيَّروا معالم الكنائس ، لتكون موافقة لعبادة المسلمين ، وأنَّهم أقاموا مباني العرب بأنقاض الكنائس » ، [صفحة ١٩٣] .

لو كانت هذه العبارة صحيحة ، لما كنَّا نرى الكنائس - والقديمة منها خاصَّة - قائمة في شتَّى أنحاء بلاد العرب والمسلمين حتَّى يومنا الحاضر ، فكيف يصحُّ أن نقول بأنَّ العرب أقاموا مبانيهم على أنقاض الكنائس ، ألم يكن في وصيَّة أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه للمجاهدين الفاتحين : « .. وسوف تمزُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .. » ^(٨٨) .

ألا يكفيُنَا - كي لانطيل الأدلَّة على خطأ ما أورده (لوبون) في الفقرة السابقة - صلُّح عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه مع أهل (إيلياء) بيت المقدس ، ودولة الإسلام في قَمَّة الفتوح ، وأوج قُوَّتها وعزيمتها ؟

« بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، هذا ما أعطى عبدُ الله عمر أمير المؤمنين أهلَ

(٨٨) الكامل في التَّاريخ ٢٢٧/٢ ، الطُّبري ٢٢٦/٣

إلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم .. »^(٨٩) .

إنَّ بنود هذه المعاهدة ، نموذجٌ لمعظم المعاهدات التي أبرمها المسلمون الفاتحون مع البلدان التي قُتِحت ، وما عرفوا مطلقاً أنَّهم نكثوا عهودهم ، وها هي الكنائس القائمة قبل الفتح ما تزال في بلاد الشام ومصر ، حيث بقي عدد من أبناء هذه البلاد على ديانتهم النصرانية تتابع بقاءها دون أن تُمسَّ بسوء .

- ٣١ -

« المسجد الأقصى : بُني المسجد الأقصى في الحرم القدسي ، وهو قديمٌ أيضاً ، فأصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جوستينيان تبجيلاً للعدراء ، فحوَّلها العرب إلى مسجد بأمر الخليفة عمر ، ثمَّ هدمَ الزلزال المسجد الأقصى فجُدِّد بناؤه في سنة ٧٨٥ م » ، [صفحة ٢٠٠] .

لوعاد (لوبون) إلى تاريخ القدس ، وتاريخ المسجد الأقصى لعرف أموراً غير مسجلة في كتابه ، من أنَّ أصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جوستينيان .

إنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه لم يحوِّل ، ولم يأمر بتحويل كنيسة في القدس إلى مسجد^(٩٠) ، بل على العكس ، فقد روي عنه أنَّه رفض تأدية صلاة حان وقتها ، وهو في زيارة لأحد بطارقة القدس ، خشية أن يتخذ المسلمون

(٨٩) الطُّبري ٦٠٩/٣

(٩٠) وهذا يخالف بنود الصلح الموقع مع أهل إيلياء (بيت المقدس) الذي أوردناه في الفقرة ٣٠ السابقة .

مكان صلاته مسجداً لهم ، مما يؤذي المسيحيين ، فخرج من مكانه ، وأدى صلاته خارجها ، فبني في المكان الجديد مسجد يعرف حتى اليوم بمسجد عمر .

ومكان المسجد الأقصى يعرف منذ أقدم العصور على أنه معبد ، ويعتقد المسلمون أنه ثاني معبد بعد المسجد الحرام ، وزاد تقديسه عند المسلمين بعد اتخاذه قبلة لهم قبل أن تكون الكعبة قبلتهم ، ثم ازداد تقديسه بعد حادثة الإسراء إليه برسول الله ﷺ ، حيث أسري به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

أمّا بناء المسجد المعروف اليوم ، فكان في عهد عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد .

- ٣٢ -

« بلغت بغداد ذروة الرّخاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرشيد الشّهير (٧٨٦ - ٨٠٩ م) » ، [صفحة ٢١٥] .

ويسجّل (لوبون) صفحة ٥٤٣ رأياً آخر : « رواية ألف ليلة وليلة الباهرة هي - لا ريب - أكثر القصص العربيّة شهرة ، وقد اختلّف كثيراً في مصدرها ، ويظهر من الثّابت اليوم أنّها مجموعة قطع وُضِعَتْ في أدوار مختلفة جداً ، فوضع بعضها قبل القرن العاشر من الميلاد لذكرها في كتاب مروج الذهب الذي ألفه المسعودي في ذلك الزّمن ، وتجد في تلك الرواية قصصاً من أصل هندوسي وفارسي ، ولكن أكثرها ألفه عرب مصر فيما بين القرن الثّالث عشر ، والقرن الخامس عشر من الميلاد » .

كان من الواجب أن يشير الباحث إلى أنّ هارون الرشيد ، الخليفة العبّاسي الشّهير ، والذي بلغت بغداد والدّولة العربيّة الإسلاميّة في عهده ذروة الرّخاء ، لا علاقة بينه وبين ما يرد عنه في كتاب أسطوري خيالي ، يعرف بقصص ألف ليلة وليلة .

وشتان مابين شخصية الرشيد الحقيقية التي تمثل العلم والتقدم والجهاد ، وعزة الدولة ورفعتها ، وبين شخصية الرشيد في قصص ألف ليلة وليلة حيث الغانيات والخور والمكائد والمغامرات الخيالية .

« الرشيد بطل رواية ألف ليلة وليلة » ، مع أن ألف ليلة وليلة مجموعة متنوعة من القصص الشعبي ، نصّ ابن النديم في (الفهرست) أنها مترجمة من أصل فارسي اسمه (الهزار أفسان) ، أي ألف الخرافة ، ويسمى الإفرنج (الليالي العربية) ، لأنها ترجمت عن العربية ، لفقد الأصل الفارسي ، وهي منتشرة بين أمم الأرض ، لما فيها من قصص تلذ للناس مطالعتها ، فهم يرون فيها أجمل الغرائب ، ويرون تنوع الأخبار التي تخاطب الطبع البشري الذي يميل إلى مطالعة المصادفات ، والاتفاقات المدهشة ، والأعمال الدالة على الشجاعة والبطش ، مع أن فيه من السفاهة والفساد ما يجعله كتاباً خطراً جداً على الفتیان والفتيات .

فن الثابت أن مادة ألف ليلة وليلة أخذها العرب من الفرس والهنود^(٩١) ، ولقد شوّعت ألف ليلة وليلة كذباً وخيالاً سيرة الرشيد ، إذ أنه أصبح منذ وقت بعيد ، رمزاً للعصر الذهبي الغابر ، تفعل فيه الأعاجيب ، وتحاك حوله الأساطير .

لقد ظنّ الأوروبيون أن الرفاه في قصر الرشيد ، لا يمكن أن يكون إلا كما كان في قصر معاصره شارلمان من شراب وفسق وفجور ، فجعلوا الرشيد بطلاً لروايات ألف ليلة وليلة ، وبصورة تشبه ما يجري في قصورهم ، مع أن الرشيد لم يسمع بألف ليلة وليلة ، لأنها تُرجمت إلى العربية في القرن الثالث الهجري ، وهو عاش في القرن الثاني الهجري ، وتدلّ قصص ألف ليلة وليلة على أنها مؤلفة من قبل عديدين ، أضافوا عليها حتى العصر المملوكي^(٩٢) .

(٩١) دائرة المعارف الإسلامية ٥١٨/٢ ، دائرة المعارف البستاني ٣٦١/٤

(٩٢) هارون الرشيد : أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا ، ص ١٢٤ وما بعدها .

وذكر (لوبون) المسعودي وكتابه مروج الذهب ، ليته أورد جزءاً يسيراً مما جاء فيه عن الرّشيد ، وعندها يحذف عبارته الظّالة « الرّشيد بطل رواية ألف ليلة وليلة » .

قال المسعودي تحت عنوان : « وصف الرّشيد » : « كان مواظباً على الحجّ ، متابعاً للغزو ، واتّخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكّة ، وأظهر ذلك بها وبمبنى وعَرَقات ، ومدينة النّبيّ ﷺ ، فعمّ النّاس إحسانه ، مع ما قرن به من عدله ، ثمّ بنى الثُّغور ، ومدّن المدن ، وحصّن فيها الحصون ، مثل طرسوس وأذنة ، وعمر المصيصة ومرعش ، وأحكم بناء الحرب ، وغير ذلك من دور السّبيل والمواضع للمرابطين ، وأتبعه عماله ، وسلّكوا طريقته ، وقفّته رعيّته مقتدية بعمله ، مُستَنِدّة بإمامته ، فقمع الباطل ، وأظهر الحقّ ، وأثار الأعلام ، وبرز على سائر الأمم .. » إلى أن يقول المسعودي : « فسَمّى النّاسُ أيّامه ، لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها ، أيّام العروس »^(٩٣)

- ٣٣ -

« ولم يمنع عمرو بن العاص من عادات المصريّين ، سوى عادة اختطاف إحدى العذارى من أبويها في كلّ سنة ، وقذفها في النّيل ، لكي يَمُنَّ إله النّيل على مصر بما تحتاج إليه من الماء وقت الفيضان ، فاستبدل عمرو بن العاص بتلك العادة العادة الّتي لا تزال موجودة إلى يومنا ، وهي قذف تمثال خزفي يدعى بالعروس في النّيل في يوم معيّن من كلّ سنة .. » ، [صفحة ٢٦٨] .

وهذا كلام مرفوض ، وصوابه كما جاء في : (النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة) :

« لما ولي عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر ، أتاه أهلها حين دخل بؤونة

(٩٣) مروج الذهب ٣١٦/٤

- ١٣٦ -

من أشهر القبط المذكورة^(٩٤) ، فقالوا له أيُّها الأمير ، إنَّ لنيلنا عادةً أو سنَّةً لا يجري إلَّا بها ، فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إنَّه إذا كان في اثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشَّهر (يعني بؤونة) عمَدنا إلى جارية بكر من عند أبيها وأرضينا أبيها وأخذناها ، وجعلنا عليها من الحليِّ والثَّياب أفضل ما يكون ، ثمَّ ألقيناها في هذا النَّيل فيجري ، فقال لهم عمرو بن العاص : إنَّ هذا لا يكون في الإسلام ، وإنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله^(٩٥) ، فأقاموا بؤونة وأبيب ومسري ولا يجري النَّيل قليلاً ولا كثيراً حتَّى همُّوا بالجلء ، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، فكتب إليه عمر بن الخطَّاب : قد أصبتَ ، إنَّ الإسلام يهدم ما قبله ، وقد أرسلنا إليك ببطاقة ترميها في داخل النَّيل إذا أتاك كتابي .

فلما قدم الكتاب على عمرو بن العاص رضي الله عنه ، فتح البطاقة فإذا فيها : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أمَّا بعد ، فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار الَّذي يُجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك » .

فعرَّفهم عمرو بكتاب أمير المؤمنين وبالبطاقة ، ثمَّ ألقى عمرو البطاقة في النَّيل قبل يوم عيد الصَّليب بيوم ، وقد تهيَّأ أهل مصر للجلء والخروج منها ، لأنَّه لا يقيم بمصالحهم فيها إلَّا النَّيل ، فأصبحوا يوم عيد الصَّليب وقد أجراه الله

(٩٤) وهو شهر حزيران ، والأشهر القبطية هي : أبيب (تموز) ، مسري (آب) ، توت (أيلول) ، بابه (تشرين الأوَّل) ، هاتور (تشرين الثاني) ، كميك (كانون الأوَّل) ، طوبة (كانون الثاني) ، أمشير (شباط) ، برويات (آذار) ، برمودة (نيسان) ، بشنس (أيار) ، وبؤونة (حزيران) ، [النجوم الزاهرة ٣٤/١ و ٣٥] .

(٩٥) من عادات وثنية لا يقرُّها التَّوحيد ، أو العقل الموضوعي .

سنة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، وقطع تلك السنة القبيحة عن أهل مصر ببركة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه «^(٩٦) .

- ٣٤ -

« واستغاثت عرب إسبانية ببربر مراكش في سنة ١٠٨٥ م ليحولوا دون توالي انتصارات ملك قشتالة وليون الأذفونش السادس .. » ، [صفحة ٣٣٢] .

عبارة تحتاج إلى الدقة والموضوعية ، وصوابها : « واستغاثت مسلمو الأندلس بمسلمي مراكش .. » ، فدولة المرابطين (الملمّين) : [٤٤٠ - ٥٤٢ هـ] ، ما قامت باسم البربر ، وإن كانت أصولهم من صنهاجة الصحراء الكبرى^(٩٧) ، التي يرجع ابن خلدون أصلها إلى الجزيرة العربية ، منها نزحت إلى المغرب واستقرت على شواطئ الأطلسي^(٩٨) .

نشأت دولتهم باسم الإسلام ، فهم المرابطون في الثغور لدفع العدو ونشر الدعوة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، [آل عمران ٢٠٠/٣] ، هؤلاء كان الإسلام لهم - كما هو دائماً في أتباعه الخالص - كيمياء سحرية ، فأحياهم بعد موت ، وعلمهم بعد جهل ، وجمعهم بعد فرقة ، فقاموا للفتح فتوسّعوا في المغرب الأقصى ، وحوض النيجر .

وما هو جدير بالذكر أن المرابطين حافظوا على الوحدة الإسلامية ، فلم يتخذوا لقب الخلافة ، واستمدوا الشرعية من اعتراف الخلافة العباسية بدولتهم ، فقد أرسل يوسف بن تاشفين سفارة إلى الخليفة المستظهر مكوّنة من عبد الله

(٩٦) النجوم الزاهرة ٣٥/١ و ٣٦ ، وهذا ما أورده الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ١٠٠/٧

(٩٧) من قبائل الملمّين : جزولة ، ولطة ، وجدالة ، ومسوفة ، ودكالة ، وهسكورة ، ولتونة ، وكانت الرئاسة في الملمّين للبتونة .

(٩٨) ابن خلدون (العبر) ١٨٤/٥

المغافري الإشبيلي وولده أبي بكر ، وطلب منه أن يعقد ليوسف على المغرب والأندلس ففعل^(٩٩) .

وكان أشياخ المرابطين وأعيانهم يميلون إلى تسمية يوسف بن تاشفين بأمير المؤمنين ، ولكن يوسف رفض بتاتاً وقال : حاشا لله أن نسمي بهذا الاسم ، إنما يتسمّى به خلفاء بني العباس ، لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم^(١٠٠) .

لقد وصف الأندلسيون ابن تاشفين « بمعقد الآمال ، وأن الله قد اصطفاه لإتقاذ الإسلام »^(١٠١) ، وحقق ابن تاشفين انتصار الزلّفة العظيم : [الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ ، ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٨٦ م] ، الذي اهتزت له نفوس المسلمين في كلّ بقاع العالم الإسلامي ، وعفاً عن المغانم ، وعاد إلى مراكش ، فعاد ملوك الطوائف إلى التناحر وتوطيد سلطانهم على حساب الإسلام ذاته ، ولم يتورّع بعضهم عن التحالف سراً مع ألفونسو السادس ، فعاد ابن تاشفين بطلب من القضاة والفقهاء ، كما أنّ أبا حامد الغزالي ، وأبا بكر الطرطوشي في الشرق الإسلامي ، أرسلوا لابن تاشفين خطاباً يحثانه فيه على خدمة الإسلام ، ويفتيانه في ملوك الطوائف .

لقد أنقذ المرابطون الأندلس من انهيار محقق ، وضبطوها بعزم وحزم ، بعد فوضى وضياع ، كما وضعوا حداً لمهزلة ملوك الطوائف ، وأمدوا بقاء المسلمين في الأندلس أربعة قرون من الزمن ، وعلى ماسبق : استغاث مسلمو الأندلس بمسلمي مراكش .

(٩٩) ابن خلدون ٣٨٦/٦

(١٠٠) الحلل الموشية ١٨

(١٠١) ابن خلكان ٤٨٢/٢

« ولم يكد عبد الرحمن^(١٠٢) يَقْبِضَ على زمام الحكم في إسبانية حتَّى أخذ يسعى في حل العرب على اتِّخاذ إسبانية وطناً لهم ، فأنشأ جامع قرطبة الشَّهير الَّذي هو من عجائب الدُّنيا لتحويل أنظار العرب عن مكَّة » ، [صفحة ٢٣٨] .

أخطاء كثيرة يقع فيها المؤلِّفون الغربيُّون نتيجة جهلهم بالإسلام ، وجهلهم أحياناً بأسباب الحوادث الَّتِي يتعرَّضون لبحثها ، والكتابة عنها ، فحين يكتب (لوبون) وغيره عن عبد الرحمن الأموي ، سليل خلفاء بني أميَّة في الشَّام ، والَّذي حمل في التَّاريخ لقب عبد الرحمن الدَّاخِل (صقر قريش) ، لأنَّه استطاع أن ينجو بنفسه من أيدي العبَّاسيِّين بعد نجاحهم بثورتهم وإحاطتهم بالحكم الأموي^(١٠٣) ، واستيلائهم على السُّلطة والحكم ، أقول بعد نجاح عبد الرحمن بالوصول إلى الشَّمال الإفريقي ، ودخوله أرض الأندلس ، حيث كانت جزءاً من الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة في عهد الخلافة الأمويَّة ، ونجح بحكم الأندلس ، وانفصل بها عن الدَّولة العبَّاسيَّة ، واستقلَّ بالأندلس ، فأسَّس أسرة حاكمة أمويَّة في الأندلس ، لم تعترف بالخلافة العبَّاسيَّة ، وحين أنشأ جامع قرطبة الشَّهير ما أراد أن ينافس به العبَّاسيِّين في مساجدهم وقصورهم ، بل أراد جامِعاً يليق بإمارته الجديدة ، يتناسب وحاضرة إمارته قرطبة ، وما أراد أبداً ، ولا خطر له ببال أن يوجَّه أنظار العرب عن مكَّة ، فهو لا يجرؤ على ذلك أوَّلاً ، وهو يعلم ثانياً أنَّ مكَّة المكرَّمة تأخذ شهرتها من كعبتها المُشَرَّفة ، الَّتِي هي قبلة المسلمين مهما اختلفت أمصارهم ودولهم وتباعدت أصقاعهم ، ومهما كانت الخلافات بينهم ،

(١٠٢) عبد الرحمن الدَّاخِل (صقر قريش) : [١١٣ - ١٧٢ هـ = ٧٣١ - ٧٨٨ م] ، دخل قرطبة وبني فيها القصر وعدة مساجد .

(١٠٣) سنة ١٣٢ هـ .

فكلُّهم يتَّجهون بصلاتهم نحو مكَّة ، أي نحو الكعبة المُشَرَّفة ، فلا يستطيع أمير ، أو خليفة تحويل أنظار العرب عن قبلتهم ، عن الكعبة المُشَرَّفة .

- ٣٦ -

« استطاع عبد الرَّحمن الغافقي أن يسير ، إذنٌ ، منتصراً غيرَ هيَّاب إلى الأمام ، وأن يُخَرَّب الحقول الحصبة الواقعة بين مدينة بوردو ومدينة تُوَر ، وأن يأخذ غنائم كثيرةً من المدن ، ونحن إذا علمنا أنَّه لم يكن من عادة العرب أن ينهبوا البلدان التي يرغبون في استيطانها ، كما ذكرنا ذلك غير مرَّة ، رأينا أن سلوك عبد الرَّحمن الغافقي يدلُّ على أنَّه بدخوله فرنسة لم يفكِّر في غير الغنائم .. » ، [صفحة ٢٨٥] .

مأعُرف عن العرب في فتوحاتهم تخريب الحقول الحصبة ، ولا هدم العمران ، لم تكن هذه أخلاقهم مطلقاً .

وهل يمكن أن يصدِّق أيُّ دارس منصف عند دراسته لفتوح العرب المسلمين في جنوبي فرنسة ، ووصولهم إلى أواسطها ما يقوله (لوبون) من أن عبد الرَّحمن الغافقي لم يفكِّر في حملته على فرنسة في غير الغنائم .

لوأنصف الدكتور لوبون لقال : نتيجة لانتصارات العرب المسلمين وهم في طريقهم إلى تُوَر ، أثقلوا بالغنائم ، إنهم انطلقوا للفتح لتبليغ رسالة إلهية ، أمَّا أن يكون السَّبب الوحيد لدخول فرنسة هو الحصول على الغنائم ، فهذا ظلم كبير .

ألم يعلم (لوبون) أن هذه الحملة التي قادها الغافقي ، إنما هي حلقة من سلسلة كثيرة الحلقات ، تُمثِّل حركة الفتوح منذ خرج العرب المسلمون من جزيرتهم ، وما داموا يحملون رسالة يعتبرون أنفسهم مكلفين بتبليغها إلى أهل الأرض ، ويعملون على الإطاحة بكلِّ العقبات وأنظمة الحكم التي تقف دون تحقيقهم هذا الهدف ؟

- ١٤١ -

لأنَّه علم ذلك ، ونظر بهذا المنظار لعرف أسباب دخول الغافقي أرض فرنسة ، كما دخلها الكثيرون ممن سبقه من قادة العرب في الأندلس ، أمّا أن يحملوا الغنائم ، فهذا أمر طبيعي في جميع جيوش العالم ، وخصوصاً في تلك الفترات من التاريخ ، بل ما يزال ذلك صفة من صفات الجيوش الغازية والفاخرة حتّى اليوم .

إن استتباب الفتح العربي الإسلامي في الأندلس ، مهّد لنقل ميدان الجهاد وراء جبال البرانس ، في فرنسة ، فعبر السّبح بن مالك الخولاني وفتح إقليم سبتانية^(١٠٤) ، وعبر عنبة بن سحيم الكلبي أيضاً واخترق حوض نهر الرّون من جنوبه إلى شماله ، حتى وصل مدينة سانس^(١٠٥) ، وعبر عذرة الفهري ، واقتحم إقليم سبتانية مرّة أخرى ، ودخل حوض الرّون .

والمسلمون في حروبهم هذه ، لم يتعرّضوا لكنيسة أو دير ، ولم يخربوا ولم يشعلوا ناراً بمدينة ، لقد فتحوا قبل ذلك بلاد الشّام ومصر وإفريقية والأندلس ، وهي كلّها غاصّة بالكنائس والأديرة ، وما إليها من المؤسّسات النّصرانيّة ، فلم يحرقوا ، ولم يخربوا ، ولم يهدموا ، فمن العجب أن ينقلب حالهم إذ عبروا إلى فرنسة وحوشاً ضارية مخيّبة !!

وعبر عبد الرّحمن الغافقي إلى فرنسة وبالغت المراجع النّصرانيّة في وصف الغنائم الّتي حملها المسلمون وهم على تلك الأرض ، والحكم المنطقي أنّ المسلمين حملوا بعض الغنائم لاشك ، ولو أحسنوا لبعثوا نفرأ منهم ، ليودعها جنوباً بعيداً عن ميدان المعركة .

(١٠٤) الريشيرا اليوم ، يطلّ على البحر المتوسطّ جنوبي فرنسة ، حاضرتها أربونة .

(١٠٥) سانس تقع في ضواحي باريس الجنوبيّة ، حوالي ٣٠ كم .

« ويستطيع العربي الذي تحيط نساؤه به هنالك أن يُطلقَ لخياله العنان ،
فيُخَيِّلَ إليه أنه يرى من خلال دخان نارجيلته أنه انتقل إلى جنة محمد » ،
[صفحة ٤٤٦] .

أولاً : الأصل في الإسلام الزوجة الواحدة ، لا التعدد .

ثانياً : لا يليق بلوبون أن يسجل على نفسه عبارة لا تليق بعلامة
مثله^(١٠٦) : « فيخَيِّلَ إليه أنه يرى من خلال دخان نارجيلته أنه انتقل إلى جنة
محمد » ، فحمد ﷺ لا يملك جنة ، الجنة جنة الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ، وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَ رَبِّنَا
بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف ٤٢/٧ و ٤٣] .

(١٠٦) ومن الصور غير الصحيحة التي أوردتها لوبون صفحة ٤٥٠ : « فتُسأل المخطوبة عن رأيها صورة ،
فلا تكون لديها ما يسوغ رفضها تزواجه ، مادامت لاتراه إلا بعد عقد الزواج » ، مع أن قول
رسول الله ﷺ صريح واضح : « لاتنكح الأيم حتى تُسأَمَر ، ولا البكر حتى تُسأَذَن » ،
[رواه الجماعة] ، كما أمر ﷺ أن ينظر لها وتنظر إليه : « فإنه أخرى أن يؤذَمَ بينكما » ، يعني
أن تكون بينهما المحبة والاتفاق ، [اللسان : آدم] ، ورد ﷺ زواج خنساء بنت خدام الأنصارية
لأنها لم توافق على زوجها .

وقال لوبون صفحة ٤٥٢ : « ويتقدم الجنازة فريق من العُمَيَّان والمساكين ، مرتلين بعض أي
القرآن ، ويأتي خلفها الأقرباء والأصحاب والنائحات » ، صورة غير لائقة ، لماذا (العُمَيَّان)
بالذات ، ولماذا (النائحات) ؟

« والحشيش الذي هو مادة مُسكِرة ، من أهم وسائل اللّهُو والتّسلية عند أمم الشرق منذ قرون . فالفلاحُ الشرقيُّ الحقير يصبح وقتاً يتعاطاه سعيداً حيناً فلا يَرْضَى بِحِظِّ أعظم ملوك الأرض بدلاً من حِظِّه ، والشرقيون قد حلّوا بفضلِه مشكلة وضع السّعادة في الرّجاجة الّتي لا تُغسّر حيازتها ، وهو إذ لا يزال ذا شأن عظيم في حياتهم ، نرى من المفيد أن نقول كلمة في خواصّه :

يُصنّع الحشيش من القنب الهنديّ كما يَعْلَم العالمُ ، ويباع في القاهرة والقسطنطينيّة على العموم .. » ، [صفحة ٤٥٤] .

لم يكن الحشيش الذي هو مادة مخدّرة ومُسكِرة من وسائل اللّهُو والتّسلية عند العرب عامّة ، والمسلمين خاصّة ، ذلك أنّه عندهم من المحرّمات ، وليس وسيلة تسلية ، ولذلك فقد انتشر بين غير المسلمين أكثر بكثير من انتشاره بين المسلمين ، ولا يزال الإسلام حتّى الآن سياجاً متيناً يحمي المجتمع الإسلامي من أمثال هذه الأمراض الخطيرة ، وإذا وجدناه قد انتشر في بعض المجتمعات الإسلاميّة ، فيكون ذلك نتيجة الجهل وقلة الوعي الإسلامي في تلك المجتمعات ، وكان للاستعمار الأوربيّ ، دور كبير في نشر الحشيش في المستعمرات .

لقد استعمرت بريطانيا - بتمهيد شركة الهند الشرقيّة - الهند ، فتطلّعت إلى استعمار الصّين ، الّتي لم تفتح أبوابها حرّة أمام تجارة البريطانيّين ، الّذين وجدوا المبرّر للتّدخل ، ألا وهو اعتراض الصّين على تجارة الأفيون ، الّذي زرعه البريطانيّون في الهند ، حتّى أصبح ٢٧٪ من الصّينيّين مدمني أفيون ، وصارت صادرات الصّين كلّها لا تسدّد ثمن الأفيون^(١٠٧) ، فكانت حرب الأفيون الأولى سنة ١٨٤٠ م ، والثّانية سنة ١٨٥٧ م .

(١٠٧) حرب الأفيون ، محمد العزب موسى ، سلسلة اقرأ : ٣١١ ، سنة ١٩٦٨ م (دار المعارف بمصر) .

- ٣٩ -

« ومِثْلُ ذلك شَأْنُ مُحَمَّدٍ ، فهو قد عرف كيف يختار من نُظُم العرب القديمة ، ما كان يبدو أقومها ، فدعما بنفوذه الدِّينِي العظيم ، ولكن شريعة مُحَمَّد لم تسخ جميع العادات الَّتِي قامت مقامها كما أَنَّ قانون الألواح الاثنى عشر لم يَقْضِ على قوانين الرُّومان القديمة ، ومُحَمَّد حين رأى أَنَّ يُحَرِّم بعض العادات القديمة كاللُّوَاد ، لم يفعل غير ما يلائم المشاعر المنتشرة بدرجة الكفاية فلا تُقَرُّه » ، [صفحة ٤٦٧] .

تارة يقول (لوبون) فُكِرَ مُحَمَّد ﷺ ، واختار مُحَمَّد ﷺ ، وأراد مُحَمَّد ﷺ ، وتارة أخرى يقول : جاء الوحي عن طريق جبريل إلى مُحَمَّد بكذا وكذا .

مُحَمَّد ﷺ نبي مرسل ، مثله مثل موسى وعيسى عليهما السلام ، فهو لا يختار من نظم العرب القديمة ما كان يبدو أقومها ، بدليل أَنَّهُ حَرَّمَ أموراً بأمر من الله ، لم تكن نفوس العرب تتقبل تحريمها ومنعها ، فلم يفعل ما يلائم المشاعر المنتشرة كما يدَّعي (لوبون) ، بل على العكس من ذلك ، منع العرب من أمور كانوا شديدي التعلُّق بها ، مثل : العصبية القبلية الَّتِي أحلَّ محلَّها أخوة العقيدة ، ورابطة الإيمان ، ومثل تحريمه الرِّبَا ، وكان منتشرأً ويصعب تركه ، وحَرَّمَ الخمر وهي مما انتشر بين العرب وعظم تمسُّكهم بها ، وإقبالهم عليها ، ومثل ذلك حربه للشُّرك والوثنية مما لقي غاية الصُّعوبة في حربه لها ، وتحطيم قدسيَّتها في نفوس العرب ، ذلك لأنَّه لم يكن يحل ويحرِّم من نفسه ليوافق ما يتلاءم مع مشاعر النَّاس ، بل كان ينفذ ما يطلبه الله منه عن طريق الوحي ، فهو إِنَّا يبلغ رسالة رَبِّه للنَّاس : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، [الحجر ٩٤/١٥] .

- ٤٠ -

« والقرآن الَّذي لاءَم مشاعر الأُمَّة العربيَّة واحتياجاتها أَيَّام مُحَمَّد ملاءمة تامَّة ، عاد غير ذلك بعد بضعة قرون .. » ، [صفحة ٤٨٠] .

غوستاف لوبون (١٠)

- ١٤٥ -

أخطأ (لوبون) في فهمه وتعليله في هذه العبارة ، فالقرآن الكريم لم يلائم مشاعر الأمة العربية ، بل لاءم منها الفطرة السلية التي فطر الله الناس عليها ، أمّا من غرقت نفوسهم في شهواتها ، وتغلّبت عليها غرائزها ، وانساقّت وراء أهوائها ، فلم يكن القرآن الكريم ، وتعالیه السمحة مما يتلاءم مع نفوسهم ، ولهذا امتنعوا وحاربوا ، إلى أن عادوا إلى صوابهم ، وأخذوا يفكرون فيما رأوه من تأثير القرآن على أصحابهم وأقاربهم وأبنائهم ، وحكّموا في ذلك عقولهم ، فاعتنقوه ، لا لأنّه لاءم ما في نفوسهم ، بل لأنّهم وجدوا الخير فيه ، وعرفوا الشرّ الذي كان يملأ نفوسهم .

وأخطأ (لوبون) ثانية حين قال : إنّ القرآن لم يعد ملائماً للناس بعد بضعة قرون ، القرآن أصبح غريباً بعيداً عن نفوس فئات من المجتمعات الإسلامية ، التي أبعدت التيارات المعادية للإسلام ، وفي مقدمتها المستعمرون والمبشرون المتعصبون ، أفرادها عن تعاليم القرآن المجيد ، فصاروا يرون فيه قيّداً يمنعهم من تحقيق ما يظنونونه سعادة ومتعة وتقدّماً ، وصاروا يصدرّون على القرآن أحكام أولئك المعادين له ، كما لقنوها ، دون وعي أو دراسة أو تفكير ، وحين بدأت عودة المسلمين إلى مراجعة حساباتهم ، ودراسة قرآنهم ، تغيرت الحال ، وبدأت صحوة المسلمين إلى واقعهم ، وعودتهم إلى قرآنهم .

- ٤١ -

« التصوير : من الأقوال الشائعة أنّه حرّم على المسلمين تصوير الآلهة والموجودات الحيّة ، ويعزو القرآن ، أو تفاسير القرآن على الأقل ، هذا المنع إلى النبيّ .

والواقع أنّ المسلمين لم يكثرثوا لذلك إلّا في زمن متأخّر ، وأنّهم تجاهلوا زمناً طويلاً ، كما تجاهلوا منع ذلك الكتاب المقدّس لعلّة الشطرنج ، والشرب بآنية من الذهب أو الفضة ... » ، [صفحة ٦١٢] .

- ١٤٦ -

في مثل هذه الأمور ، يحذر بلوبون ألا يلقي الكلام جزافاً ، بل عليه أن يبحث ويحقق ويوثق أقواله ويعزوها إلى مصادرها ، أمّا أن يقول : من الأقوال الشائعة ، فمن قال له أن تحريم تصوير الآلهة ، أو تمثيلها بأصنام وتماثيل هي من الأقوال الشائعة ، كان عليه أن يبحث في القرآن الكريم ، وفي سنة الرسول العظيم ﷺ عن وجود ما يحرم ذلك أو لا يحرمه ، أمّا أن ينصب نفسه فقيهاً إسلامياً ، فهذا ليس من صفات العلماء المحققين .

وحين يقول إن هذا المنع يُعزى إلى النبي ﷺ ، فقد نسي أن أقوال النبي هي جزء لا يتجزأ من شريعة الإسلام ، وهي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم ، فماله يخطئ في أقواله خبط عشواء ، ومن هنا وصل الإسلام إلى الغرب مشوهاً ، لأن الذين كتبوا فيه وعنه ، إنهم أناس يجهلون الكثير عن الإسلام وتشريعاته^(١٠٨) .

ومن أخبر العلامة (لوبون) أن المسلمين لم يكثرثوا لموضوع تصوير الآلهة وتمثيلها إلا في زمن متأخر ، ألم ير أن الفنون الإسلامية نحت نتيجة لذلك مناحي تختلف عما هي عليه في أوربة ، فقد ارتقت عند المسلمين فنون في جمال الخط والتزيين بالكتابة ، فنشأت خطوط تزيينية غاية في الجمال والروعة ، وكذلك في مجال الطبعة والاقتباس منها ، وإلى غير ذلك ؟

ومن قال : إن القرآن الكريم منع لعبة الشطرنج ؟ ماسمعنا ذلك إلا من (لوبون) ، وربما كان الشطرنج من وسائل التسلية القليلة التي لا يرى الإسلام فيها أي مانع ، إن الإسلام يحرم ما يفسد الأخلاق ، ويضعف الضمير والوجدان ،

(١٠٨) جاء في اللسان : التماثيل ، التماثيل ، لقد تتبعت النبي ﷺ مظاهر الشرك والوثنية ، وقضى عليها ، وحى التوحيد ، فالتماثيل عُبِدَت من دون الله ، فعلة تحريم اتخاذ التماثيل ، قرب عهد القرشيين بعبادة الأصنام ، جاء في سورة سبأ ١٣/٢٤ : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشُّكُورُ ﴾ ، [أحكام التصوير في الفقه الإسلامي ، الشيخ محمد حش ، نشر دار الخير سنة ١٩٨٧ م] .

وينشر الميسر وما يشبه ذلك ، كما يمنع الاعتماد في الحياة على ما يسمى الحظ ، داعياً المجتمع إلى كسب الوقت بعمل نافع ، وإلى الرّبح عن طريق الجدّ والعمل .
أمّا استخدام آنية الذهب والفضّة ، فيعتبره الإسلام لوناً من ألوان الإسراف والتّبذير .

- ٤٢ -

« وَيَحِبُّ أَلَا تَسْتَنْبِطَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ نَتَائِجَ وَاسِعَةٍ ، فَإِذَا كَانَ الْعَرَبُ أَفْضَلَ مِنَ الْهِنْدُوسِ عِلْماً ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ ، فَإِنَّهُمْ دُونَهُمْ فِلَسْفَةً وَدِيَانَةً ، فَلَيْسَ فِي عَامِيَّةِ الْقُرْآنِ وَلاهُوتِيَّةِ الصَّبْيَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَيْضاً مِنْ صِفَاتِ الْأَدْيَانِ السَّامِيَّةِ مَا يَقَاسُ بِنَظَرِيَّاتِ الْهِنْدُوسِ الَّتِي أُتِيحَ لِي أَنْ أُبَيِّنَ عُمُقَهَا الْعَجِيبَ فِي كِتَابِ آخِرٍ » ، [صفحة ٦٧٤] .

لم نفهم ما يريده (لوبون) من عبارة : « عَامِيَّةُ الْقُرْآنِ وَلاهُوتِيَّةِ الصَّبْيَانِيَّةِ » ، ليته شرح لنا مقاصده ، كما أننا لم نفهم معنى العمق العجيب في نظريات الهندوس الدّينيّة .

هل تخلّى ياترى غوستاف لوبون عن ديانتِهِ السّماويّة ذات اللاّهوتيّة الصّبْيانيّة كما يصفها ، فيقول : إن هذه الصّفة من صفات الأديان السّاميّة ، وديانته - لاشك - ديانة ساميّة ، فلماذا لم يتركها ، ويتنكّر لها وينتقل إلى عبادة قوى الطّبيعة ، كالشّمس والقمر والهواء والعاصفة .. وإلى تقديس البقرة إن كان حقّاً ما يقول ويدّعي ؟

أمّا أن يقارن عالم فيلسوف مؤرّخ بهذه البساطة والسّذاجة بين دين سماوي له من التّشريعات ، ماملأ المكتبات لها شرحاً وتفصيلاً وثناءً واقتباساً .. واعترف خصوصها قبل أصدقائها بعظمتها وتقديّمها وعدالتها وإنسانيّتها ، وبين ديانات وثنيّة لا تمتّ إلى الفطرة السّليمة بصلّة ، ولا يقبلها منطق أو عقل .

التَّوْحِيد الخالص بلاغوامض أو خرافات ، أو أسرار أو خزعات ، مع تقديس العقل واحترام محاكمته ، لاعمق فيه ، بل إنَّه لاهوتيَّة صبيانيَّة ، وانتساب إلى الجنس السَّامي المفطور على إدراك الجزئيَّات وحدها ، ومن العبث أن نلتبس عند هذا الجنس آراء علميَّة أو دروساً فلسفيَّة ، أو عمقاً كما هو عند الهندوس الآريين !! وهكذا ، فإنَّ تعدُّد الآلهة ، والوثنيَّة ، وضبايَّة الرؤية ، وإبعاد العقل و « وأقبل وأنت أعمى ، واسمع وأنت أعمى ، وأطع وأنت أعمى ... » ، عمق ولاهوتيَّة ناضجة مكتملة .

عجيب غريب أمر الأوربيين ، لقد وصلوا في أيامنا هذه إلى قبول تعبئة هواء مدينة القدس في أوعية من البلاستيك الجميل المزيّن ، واستيراده من الأرض العربيَّة المحتلَّة^(١٠٩) ، لبيع للمتديّنين بثن غير نجس ، ليدس أحدهم أنفه ويستنشق الهواء بعمق ، إنَّهم يصدّقون الخرافة من عدوِّنا ، ويرفضون الحقيقة منّا ، لأنَّ خرافة العدو حولها مؤمنون يمدّونها بحرارة العاطفة ، ورجال دهاء يوسعون مساحتها ، بما أوتوا من عِلْم ومال^(١١٠) .

- ٤٣ -

« ظهر من العرب رجالٌ من الطّراز العالمي ، كما تشهد بذلك اكتشافاتهم ، ولكنني لأظنُّ أنَّهم أخرجوا رجالاً عظماء كأولئك العباقرة الذين ذكّرتهم^(١١١) ، والعرب كانوا دون الإغريق في كثير من المسائل ، مساوين للرومان في الذكاء لاريب ، غير حائزين ، إلّا لوقت قصير ، ما كان سبباً في دوام فوز رومة طويلاً من الصّفات الخلقية » ، [صفحة ٧٣١] .

(١٠٩) يُصدَّر هواء القدس إلى أوروبا وأمريكا ، ولو تمَّ تعبئة هواء مكّة ، لأنتج الأعداء المسلسلات ، ووظّفت وسائل إعلامهم بلا استثناء لبث وإثبات أن هواء مكّة كأيّ هواء آخر في الدُّنيا !؟!

(١١٠) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، لحمد الغزالي ، ص ٢٠٠ (بتصرّف) .

(١١١) ذكر نيوتن ولاينتز .

كنّا نتمنى لوأن غوستاف لوبون أثبت صحّة قوله بأنّ العرب دون الإغريق في كثير من المسائل ، ببعض الأمثلة الّتي تقنع القارئ ، فإنّ ما كان يُعرَف بالمعجزة اليونانيّة أصبح أسطورة اليوم أمام المعجزة العربيّة الإسلاميّة ، والّتي لا شك أنّها أخذت واقتبست من كلّ الحضارات الّتي سبقتها ، لكنها نقّدت وصحّحت وأضافت وأبدعت ، فجاءت علومها كالمعجزة خلال فترة وجيزة من عمر الزّمن .

« التّواصل والعطاء قديم بين الحضارات ، فما من حضارة قامت إلّا وأخذت من سبقتها ، ثمّ أضافت وأبدعت ، فحركة الحضارة حركة تناوبيّة ، تأخذ وتعطي ، تتأثّر وتؤثّر ، وشرقنا أوّل من أعطى ، ثمّ أخذ ، ثمّ أعطى .

ولما جاء دور أمّتنا في بناء صرح الحضارة ، قامت بالدور المطلوب منها بإتقان ، لقد قامت بعمل إنقاذه له مغزاه الكبير في تاريخ الإنسانّيّة ، فترجمت وصحّحت وصوّبت ، ثمّ أضافت وأبدعت ، كلّ ذلك بدقّة وأمانة ، ولو وجد الأوربيّون انتحالا لفضحوا وهوّلوا ، وعابوا وناحوا ، مستصرخين الأمانة العلميّة ، مع أنّهم لم يكونوا أمناء على تراثنا عندما ترجموه واقتبسوه ، لتبدأ نهضتهم العلميّة بعدها مباشرة ، فنسبوا قسماً مما نقلوه إلى أنفسهم »^(١١٢) .

ولن نعود في هذا الكتاب إلى تفنيد مايسمّى : (المعجزة اليونانيّة) ، فلقد فصلنا ذلك في كتابنا : (فيليب حتّي) الّذي جعلنا سعاة بريد ، ترجمنا ونقلنا (المعجزة اليونانيّة) إلى أوربة ، مع أن ما يدّعى (المعجزة اليونانيّة) - كما يقول جورج سارتن في كتابه : (تاريخ العلم) - لها أبٌّ وأُمٌّ شرعيان ، أمّا أبوها فهو تراث مصر القديمة ، وأمّا أمّها فهي ذخيرة بلاد ما بين النّهرين .

(١١٢) حضارتنا العربيّة الإسلاميّة ، فصل : هل هناك حضارة عربيّة وإسلاميّة ؟ ص ١١١

تقول المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه : « إن الحضارة الإسلامية المبتكرة ، لم تأخذ عن الحضارة الإغريقية ، أو الحضارة الهندية ، إلا بقدر ما أخذ طاليس أو فيثاغورس ^(١١٣) من الحضارتين البابلية والمصرية .

لقد طوّر المسلمون بتجارهم وأبحاثهم العلمية ، ما أخذوه من مادة خام عن الإغريق ، وشكّلوه تشكيلاً جديداً ، فالمسلمون - في الواقع - هم الذين ابتدعوا طريق البحث العلمي الحق القائم على التجربة .

إنّ المسلمين لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال وحسب ، ونظّموها ثمّ أهدوها إلى الغرب ، إنّهم مؤسّسوا الطّرق التجريبيّة في الكيمياء والطّبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع ، وبالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفرديّة في مختلف فروع العلوم ، والتي سرّق أغلبها ونُسب لآخرين ، لقد قدّم المسلمون أثمن هديّة ، وهي طريق البحث العلمي الصّحيح التي مهّدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطّبيعة وتسلّطه عليها اليوم » ^(١١٤) .

فأين رياضيات العرب من رياضيات اليونان ؟

وأين فيزياء العرب وعلم الضّوء عندهم ، من فيزياء وعلم الضّوء عند

اليونان ؟

(١١٣) نظريّة فيثاغورس : مساحة المربّع المُنشأ على وتر مثلث قائم الزّاوية ، تساوي مساحة المربّعين المُنشأين على الضّلعين القائمين ، هي من أصل عربيّ بابلي ، فلوحة (تل حرميل) الحجرية ، والتي عثر عليها في ضواحي بغداد ، تدلّ على أنّ البابليين سبقوا اليونان في حسابات المثلثات القائمة والمتشابهة بمئات مئات السّنين ، وصورة اللّوحة موجودة في : [أطلس التّاريخ

العربي] ص ١٨

(١١٤) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٤٠١/٤٠٠ ، ولوبيون يعترف في كتابه (روح الثّورات) صفحة ٢٧٧ : « إنّ عظمة الحاضر هي نتيجة لمجهودات عصور الماضي ، وإنّ حضارة الحاضر هي نتيجة لمجهودات الأمم كلّها في عصر الماضي » .

وأين طب العرب وصيدلتهم ، من طب اليونان وصيدلتهم ؟

وأين علم الفلك عند العرب ، من علم الفلك عند اليونان ؟ ... لا تقول ذلك لنقل من شأن اليونان وعلومهم وحضارتهم ، بل لندلل على أنه من الطبيعي أن تتقدم هذه العلوم على أيدي علماء العرب المسلمين بعد أن أخذوها ، وما وقفوا عند حدودها ، بل تجاوزوها إلى حدود أوسع وأعمق وأوثق دراسةً ونقداً وبحثاً ورقياً ، فإذا بها وكأنها علوم جديدة كلَّ الحدة ، متقدمة كلَّ التقدم ، تخضع لطرق البحث العلمي ملاحظة وتجربة ، حتى وصلت إلى مرتبة الحقائق العلمية .

وكان لوبون لم يطلع على ما كان عند علماء العرب المسلمين في جوانب العلوم المختلفة ، مما لا يحصره كتاب ، ولا يأتي على ذكر علماء عذ ولا حصر .

أنسي لوبون سبق الغزالي لكانت وهيوم ؟

أم نسي أثر ابن رشد في أوربة ، حيث قيل عنه : إن طريقته في البحث ، دليل قاطع على مجله واستقامة أخلاقه واستواء ذهنه ، وأن فرنسيس باكون انتحل آراء وفلسفة ابن رشد ؟

أم نسي أثر ابن خلدون الذي سبق ميكافيلي ، وجون لوك ، جان باتيستافيكو ، وفولتير ، وهردر ، وغبريل تارد ، ودوركهايم ، وجان جاك روسو ، ونيتشه ، وكارل ماركس ؟ ...

أم نسي الإدريسي ، والفارابي ، وابن سينا ، والمعري ، وابن حزم ، وابن طفيل ؟ ...

أنسي الرّازي ، وابن النفيس ، وعبد اللطيف البغدادي الذي يكفي قوله عن جالينوس : « الحسُّ أصدق منه » ، فجعل العلم موقوفاً على التجربة ؟

أنسي جابر بن حيّان الكوفي ، وأبا الرّيحان البيروني ، وابن البيطار ،

وابن يونس ، وابن الهيثم الذي قال عنه ول ديورانت : « لامبالغة مهما قلنا في
أثر ابن الهيثم في العلم في أوربة » ^(١١٥) ..؟

أنسي الخوارزمي ، والبتاني ، والزرقالي ، وابن الشاطر .. الذين عاشوا قبل
كوبرنيكس فاقتبس منهم ، ونقل عنهم ..؟

أنسي لوبون أم تناسى ليقول : « ولكنني لأظن أنهم أخرجوا رجالاً عظماء
كأولئك العباقر الذين ذكرتهم .. » !!

ومن الغريب أن لوبون نفسه يقول في أماكن أخرى ما يناقض قوله هنا ،
ويتمنى لو أن العرب المسلمين انتصروا في بواتيه ، ليصيب أوربة النصرانية المتبربرة
مثل ما أصاب إسبانية من التقدم والارتقاء ، والحضارة الزاهرة الرفيعة تحت راية
النبي العربي ، [صفحة ٣٩١] ، ويقول : « والإنسان يقضي العجب من المهمة التي
أقدم بها العرب على البحث ، فإذا كانت هنالك أمم قد تساوت هي والعرب في
ذلك ، فإنك لا تجد أمة فاقت العرب على ما يحتمل .. » ، [صفحة ٥٢٦] ، وقال :
« إذن ، اختبر العرب الأمور وجربوها ، فكانوا أول من أدرك أهمية هذا المنهج في
العالم ، فظلوا عاملين به وخدموا زمناً طويلاً ، قال (دولانبر) في كتاب :
(تاريخ علم الفلك) : إذا استطعت أن تعد بين الإغريق راصدين أو ثلاثة ،
رأيت بين العرب عدداً كبيراً من الرصّاد ، وأما في الكيمياء ، فلا تجد مجرباً
يونانياً ، مع أن المجربين من العرب فيها يعدّون بالمئات » ، [صفحة ٥٢٩] ،
وقال : « ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، فالعرب قد
نشروها ، كذلك ، بما أقاموه من الجامعات ، وما ألفوه من الكتب ، فكان لهم
الأثر البالغ في أوربة من هذه الناحية .. » ، [صفحة ٥٢٩] ، وقال : « قال بعض

(١١٥) قصة الحضارة ٢٧٥/١٣ ، وقال ديورانت في الصفحة ذاتها : « لولا ابن الهيثم لما سمع الناس قط
بروجر بيكون » ، ولو أردنا الإطالة ، لأوردنا فصلاً كاملاً من كتاب : « حضارتنا العريضة
الإسلامية » .

المؤلفين : إن لاقوازيه هو واضع علم الكيمياء ، فنسوا أننا لاعهد لنا بعلم من العلوم ، ومنها علم الكيمياء ، صار ابتداعه دفعة واحدة ، وأنه كان عند العرب من المختبرات ما وصلوا به إلى اكتشافات لولاها ما استطاع لاقوازيه أن ينتهي إلى اكتشافاته » ، [صفحة ٥٧٣] ، وقال : « وما عجز الإغريق والفرس والرومان عنه في الشرق ، قدر عليه العرب بسرعة .. » ، [صفحة ٦٧٢] ، وقال : « إن أروبة مدينة للعرب بحضارتها » ، [صفحة ٦٧٥] ؟!

أنسي لوبون هذا كله ليقول : « والعرب كانوا دون الإغريق في كثير من المسائل » ؟!

أي فرع أو جانب من العلوم ، زحف إلى أروبة فردته ؟

إنها حضارة عربية إسلامية بهرت أبصارهم عندما كانوا يتسكعون في ظلمات الجهالة والتعصب ، وعندما حرمت الكنيسة تعليم نظام المجموعة الشمسية إلى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر ، وعندما أصدر البابا الكسندر سنة ١٥٤٠ م أمراً يقضي برقابة كل المطبوعات ، كيلا تنتشر الأفكار الحرة ، ولو كانت حقائق علمية ثابتة .

- ٤٤ -

« ولم يكن للقرآن تأثير في جميع مذاهب العرب العلمية والفلسفية التي نشروها في العالم في خمسة قرون ..

غير أن العلماء كانوا لا يبالون - أبداً - بما بين نتائج اكتشافاتهم ونظريات الكتاب المقدس (القرآن) من الاختلاف ، فإذا ما بلغت أفكارهم الحرة عامة الناس اضطرت حاتمهم من الخلفاء ، عادةً ، إلى نفيهم لأجل محدود احتراماً للشعور العام ، وإذا ما هددت الزوبعة بسرعة استدعاهم الخلفاء .. » ، [صفحة ٦٨٠] .

« لم يكن للإسلام ، ديانةً ، تأثّر في آثار العرب العلميّة والفلسفيّة » ،
[صفحة ٦٨٢] .

نستغرب أن يقول عالم مثل غوستاف لوبون : إنّه لم يكن للقرآن تأثير في جميع مذاهب العرب العلميّة والفلسفيّة ، ونريد أن نسأله السؤال التّالي : هل كان عند العرب قبل الإسلام ، وكتابه المقدّس (القرآن الكريم) ، أيّ مذهب علمي أو فلسفي ؟ أليست جميع مذاهب العرب المسلمين هي نتيجة أفكار الإسلام بينهم ، ونتيجة مناقشاتهم الّتي دارت حول آيات القرآن الكريم وتعاليمه ، واختلاف اجتهاداتهم وآرائهم حولها ، أليس علم الكلام أو الفلسفة الإسلاميّة نتيجة لكلّ ذلك ؟

أليست جميع المذاهب الفلسفيّة نتيجة مناقشات العلماء وأصحاب الفكر حول معتقدات إسلاميّة ، وآيات قرآنيّة ، مع اختلافهم في ذلك ؟
أليس تقدّم الحركة الفكريّة عامّة ، والعلميّة خاصّة ، نتيجة من نتائج الإسلام ؟

أليس القرآن الكريم بآيات كثيرة جدّاً هو الّذي دعا النّاس إلى التّفكير وإعمال العقل في آيات الله في الكون ، وكشف مكنوناته ونواميسه ؟

هل خاطب القرآن الكريم في الإنسان شيئاً ، كما خاطب عقله وفكره ؟

إنّ ما اعتبره (لوبون) عدم مبالاة من العلماء بما بين نتائج اكتشافاتهم ، ونظريّات الكتاب المقدّس (القرآن الكريم) من اختلاف هو نفسه معجزة هذا الكتاب الكريم ، ذلك لأنّ هؤلاء العلماء كانوا كلّما وصلوا إلى نتيجة علميّة ازداد إيمانهم بقرآنهم ، حيث لم يجدوا أيّ كشفٍ علميٍّ يخالف ما ورد في القرآن الكريم ، وحتىّ اليوم ، تتكشفُ أمورٌ تعتبر في باب الإعجاز للقرآن الكريم في هذا المجال .

وعودة منّا إلى كثير من أقوال العلماء ، وحتى غير المسلمين منهم ، تزيدنا إعجاباً وإيماناً بصدق نبوة محمد ﷺ ، وأنّ القرآن الكريم لا يمكن أن يكون إلّا وحياً من الله خالق كل شيء ، ومنظمّ نواميس الكون ، وعودة منّا إلى بعض أقوالهم في مجال علم الأجنة والتّشريح وعلم الفلك والفضاء وعلم البحار ، وغير ذلك من العلوم ، تزيدنا إيماناً بمعجزة محمد ﷺ الخالدة ، ألا وهي القرآن الكريم ، وإنّ ما جاء في كتاب الدكتور موريس بوكاي في دراساته العلميّة حول الكتب المقدّسة : التّوراة والإنجيل والقرآن ، يعتبر غيضاً من فيض في هذا المجال .

والبرفيسور كيث مور Keith L. Moore رئيس قسم الأجنة في جامعة تورنتو بكندا ، أعلن إسلامه عندما درس علم الأجنة كما ورد في القرآن الكريم والسّنة الشّريفة ، لتطابقه كما ورد بها مع العلم الحديث وحقائقه في هذا المجال .

والبروفسور تاجاناجوسون ، رئيس كلية الطب في تايلاند ، بوذي أسلم بعد دراسة المضغة المخلّقة وغير المخلّقة .

والياباني البروفسور يوشيكي قال بعد أن درس الآيات الّتي تتحدّث عن خلق الكون : القرآن لا يمكن أن يكون من مصدر بشري ، لقد عرفت منهجاً جديداً في دراسة الكون ، النّظرة الشّموليّة ، لا النّظرة الضيّقة ، القرآن حجّة محمد الباقية ، الّتي تقنع المسلمين ، وغير المسلمين ، وكلّ الأجيال إلى يوم الدّين .

والبروفسور جولي سمن من جامعة نورث وسترن (شيكاغو) تأكّد بنفسه إلى نصوص القرآن والسّنة ، فيما يتعلّق بالإنسان وخلقهِ ، فقال : بإمكان الإسلام اليوم أن يقود العلم قيادة ناجحة .

والبروفسور هيبه ، مختص بعلم البحار ، درس ما جاء في القرآن الكريم بهذا الشّان ، فقال : شيءٌ مثير جدّاً ، إنّها آياتٌ ليست من مصدر بشري ، إنّها من الله ، إنّهُ من العلم الإلهي .

والدكتور بالمار ، مختص بالجيولوجيا ، قال : القرآن كتاب عجيب ، وأنا لأعلم المستوى الثقافي الذي كان عليه الناس أيام محمد ، ولكنه كان متواضعاً ، فعلوم القرآن نور من العلم الإلهي ، أوحى الله به إلى محمد ^(١١٦) ..

أمّا من اعتبرهم لوبون مخالفين بأفكارهم الحرة للمجتمع الإسلامي ، ويحميهم الخلفاء ، ونسي أن يقول ويضطهدهم أحياناً الخلفاء ، فهم بين أحد رجلين ، فإمّا عالم رفض أن يقول بما يقول به الخليفة من آراء واجتهادات ، رأى فيها مخالفة لما توصّل إليه من اعتقاد ، كمخالفة الإمام أحمد بن حنبل للمأمون ، ورفضه آراء المعتزلة في أمور فلسفية ، فناله الاضطهاد والسجن أيام المعتصم .

أو رجل خرج بأعماله وأفكاره عن معتقدات قومه زندقة وإلحاداً ، والزنديق أو الملحد على أغلب الأحياء ، لا يحمل نظرية ، إنّه يحمل تحللاً وانفلاتاً ، وفي كل مجتمع نفر من هذا القبيل ، تلاحقهم عادة نقمة المجتمع وغضبه .

فأين (لوبون) من الحقيقة في مجال تأثير القرآن الكريم في المجتمع العربي خاصة ، والإسلامي عامّة ؟ بل نستطيع القول غير مبالغين بأنّ الإنسانية عبر تاريخها الطويل لم تعرف كتاباً أثر في الناس ، في حياتهم وأفكارهم وعلومهم وفلسفاتهم كما أثر القرآن الكريم .

ونردّ على عبارة (لوبون) الأخيرة بقولنا : ربما لانجد لدى علماء المسلمين كتاباً علمياً أو فلسفياً إلّا وأثر الإسلام واضح فيه إلى درجة كبيرة ، حتّى كان العلماء في جميع مجالات العلم هم أولاً علماء في الدين والفقه والحديث ، ثمّ علماء في الطبّ والفلك والرياضيات وغيرها .

(١١٦) أقوال : كيث مور ، وتاجانانا جوسون ، ويوشيكى ، وجولي سمن ، وهيبه ، وبالمار .. وغيرهم كثير مسجلة من فهم (صوتاً وصورة) خلال محاضرات دعا إليها الشيخ عبد المجيد الزنداني ، رئيس جمعية : (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة) ، واقتبست هنا عن شريط مرئي وهم يتحدثون شخصياً بأصواتهم بالإنكليزية ، التي رافقها الترجمة إلى العربية مباشرة .

وتحت عنوان : ورثة العرب في الهند ، يقول (لوبون) : « والإنكليز هم ورثة المغول في الهند ، والإنكليز قد مدّنوها ، أي أنشأوا فيها الطُّرُق والخطوط الحديدية ، التي يسهل عليهم أن يستغلوها بها ، ولكنه نجّم عن هذه الحضارة الجديدة أن غرقت بلاد الهند في بحر من البؤس ، لم ترَ بقعة من بقاع الدنيا مثله » ، [صفحة ٧٠٥] .

وقبل أن نفند ما جاء به (لوبون) في العبارات السابقة ، نورد بعض ما قاله عن نتائج احتلال الإنكليز للهند : « ودّرس حديثاً أحدُ كتّاب الإنكليز مستر هندمان حالة الهند في العهد الإنكليزي فأثبت أن إنكلترة تُغرِقُ الهنود بالضرائب ، فلا يبقى لهم غير الموت جوعاً ، وأنها تُخرّب جميع مصانعهم لكي تتكّن السلع الإنكليزية من إيجاد أسواق لها عندهم ، ثم قال : إننا نسير إلى مصيبة لا مثيل لها في تاريخ العالم » ، [صفحة ٧٠٦] .

ليت (لوبون) أجرى مقابلة بين دخول المسلمين إلى الهند وما خلفوه في هذه القارة وشعوبها من آثار ، وبين دخول الإنكليز حين قال : « وغرقت بلاد الهند في بحر من البؤس لم ترَ بقعة من بقاع الدنيا مثله » ، في عهد الإنكليز انتشرت العبودية ، حيث أصبح الإنكليز سادة ، وأصبح الهنود عبيداً ، وانتشر الجهل والفقر والمرض ، وما تزال شعوب الهند تعاني حتى اليوم من آثار ذلك العهد البغيض البعيد كلَّ البعد عن معاني الحضارة الإنسانية .

« مدّنها » ، كيف ؟ « أنشأوا فيها الطُّرُق والخطوط الحديدية » ، لماذا ؟ لكي « يسهل عليهم أن يستغلوها بها » .

بينما كان يرافق دخول الإسلام إلى الهند ، وغيرها ، تحرير الإنسان من

العبودية لغير الله ، وتحرير الفكر ، ولهذا سرعان ما نجد تقدماً في مجالات الحياة العلمية والفلسفية في مناحيها المختلفة ، وأثار الإسلام في شعوب الهند ومدنها باقية أكبر شاهد ودليل على ذلك .

لقد فتح المسلمون السند ، وجانباً من الهند في صدر الإسلام ، ثم أكمل الفتح محمود بن سُبُكْتِكِين الغزنوي ، ورسخت قدم الإسلام في الهند من بعده ، ولم يبق خارجاً عن طاعة الإسلام في الهند سوى مملكة يقال لها (أودبور) ، لها ملك يقال له (مهرا نا) ، وهو لقب أكبر من (مهراجا) ، وبدأ الاحتلال البريطاني للهند سنة ١٨٠٥ م بشركة الهند الشرقية ، التي كان هدفها الظاهري التجارة وجني الأرباح ، واكتساب الأموال ، إلا أنها وطّدت قدمها ، وأحكمت سيطرتها بتؤدة ، وتحوّلت إلى حكومة تامة ذات سياسة طموحة ، ترمي إلى الاستعمار والاحتلال ، وفي سنة ١٨٥٧ م أخذت بريطانية ثورة ، وألغت شركة الهند الشرقية ، وجعلت الهند تابعة مباشرة للتاج البريطاني ، ونودي بعد ذلك بالملكة فكتوريا امبراطورة الهند .

قال غاندي : « اعلّموا أن الإنكليز يبتغون نيل القناطر المقنطرة من مال بلادنا والتكذُّذ بثمراتنا ، والانتفاع بقوة رجالنا وأولادنا ، كل ذلك في سبيل جشعهم الامبراطوري ، ونهمتهم الاستعمارية »^(١١٧) .

وقال الكاتب الهندي (براماثانات بوز) : « إن الاستنزاف يسوق الهند إلى درك الخراب سوّفاً »^(١١٨) .

ونتيجة لهذه السياسة البريطانية الاستعمارية ، اجتاحت المجاعات المتعددة الهند ، وهي فوق كل تصوّر بشري من حيث الخسائر ، لقد استأثر المستعمرون

(١١٧) حاضِر العالم الإسلامي ٢٠١/٤

(١١٨) المرجع السابق ٢٢٤/٤

بالأرباح والمكاسب ، واستنزافهم منابع الثروة الوطنية ببضاعتهم وأدواتهم ، وتركهم السّواد الأعظم من الهنود عالة عليهم ، بحيث إذا احتبس المطر قليلاً ، أو هبت على الزّروع لافحة سموم ، فقلّ المحصول ، وارتفعت أسعار الغذاء ، لم يبق أمام هؤلاء الأهالي سوى الموت جوعاً ، أو بالأمراض التي سببها سوء الغذاء ، لأنّ الذي يأخذونه بدل عملهم ، لا يعود كافياً لشراء قوتهم الضّروري ، ولا نجد إنكليزياً واحداً مسّه الجوع ، أو مات سغباً .

والشيء الذي يسترعي الانتباه في عبارة (لوبون) ، قوله : « ولكنه نجم عن هذه الحضارة الجديدة - أي حضارة الإنكليز - أن غرقت الهند في بحر من البؤس ، لم ترّ بقعة من بقاع الدّنيا مثله » ، كنّا نتمنى لو استعمل كلمة أخرى غير كلمة الحضارة ، فتي كانت الحضارة مرادفة للبؤس والجوع والعبودية ؟ إنه الاستعمار الذي دخل البلاد لاستعباد الشعوب واستغلال خيراتها ومصّ دمائها ، أين هذا من ارتفاع المآذن مع المسلمين تعلن أنّه لاعبوديّة لغير الله ، وتعلن المساواة بين البشر ، ولا تفاضل في اللون أو العرق .. وارتفعت منارات العلم في كلّ مدينة وقرية وكثر عدد العلماء والمدارس والمكتبات .

لقد عمّ الرّفاه البلاد التي فتحها المسلمون ، لاستتباب الأمن فيها ، وأصبح الفاتح المسلم أحبّ إلى الشعوب من الحاكم السّابق ، لأنّهم رأوا عملياً خير الإسلام وفائدته ، وقام الجميع لخدمة العلم ، حتّى إن أشهر العلماء في كلّ الميادين كانوا من سكّان البلاد المفتوحة ، وكلّهم علماء خلّدهم التّاريخ أرهاطاً في ميادين العلوم ، عاشوا وماتوا لخدمة الحضارة العربيّة الإسلاميّة .

وصار ابن البلاد التي فتحت يحمّد الله عزّ وجلّ ويشكره لكونه مسلماً ، ولأنّه صار على دين الفاتحين وحضارتهم ، فهل حمد الله إنساناً في مستعمرة أوربيّة لأنّه استعمر ؟ لا قطعاً ، فلماذا ؟!

فورثة العرب المسلمين في الهند لم يقيموا « حضارة جديدة » كما يقول (لوبون) ، بل أقاموا عبودية وبؤساً وشقاءً وجهلاً وأمراضاً وتخلّفاً ...

- ٤٦ -

« لوظهر نابليون في زمن لويس الرّابع عشر ما استطاع أن يصير سيّد أوربة ، ولو ظهر محمّد أيّام سلطان الرّومان ما قدّر العرب على الخروج من جزيرتهم لا زيّب ، ولظلّ التّاريخ جاهلاً لهم » ، [صفحة ٧١٥] .

لقد أخطأ (لوبون) في هذه المقارنة ، وشتّان ما بين الصّورتين ، ماعلاقة نابليون ، وما وجه الشّبه بينه وبين محمّد ﷺ في هذه المقارنة .

إنّ (لوبون) يعلم ، أو يجب أن يعلم أنّ التّاريخ لا يعرف حرف (لَو) ، فليس في التّاريخ (لَو) ، والتّاريخ حوادث حدثت وسط ظروف لا تعود ولا تتكرّر ، لأنّ العنصر الأساسيّ فيها هو الإنسان ، الذي لا تتكرّر صورته النّفسيّة والروحيّة والفكريّة ، وإن تكرّرت صورته المادّيّة أحياناً .

إنّ الذي جعل نابليون سيّد أوربة ، ليس لكونه نابليون ، بل لظروف معيّنة مرّت بها فرنسة بعد ملوكها من آل بوربون ، وفي مقدّمة تلك الطّروف الثّورة الفرنسيّة (تموز ١٧٨٩ م) ، الّتي أطاحت بأولئك الملوك ، وأنظمة حكمهم المستبدّة ، وجاءت ظروف معيّنة رفعت من سمعة وشعبيّة نابليون لدى الشّعب الفرنسي ، وفي مقدّمة تلك الطّروف ، تحقيقه للانتصار العظيم على امبراطوريّة النّمسة ، مما جعل الشّعب الفرنسي يرى فيه رمزاً لعزّته وانتصاره ، فبنى الآمال عليه ليحقّق له نصراً ماثلاً على بقيّة أعدائه ، وفي مقدّمتهم الإنكليز .

أمّا محمّد ﷺ فظروف انتصاره تعود إلى تلك الرّسالة الإلهيّة الّتي حملها ، وهي رسالة الإسلام الّتي وحدّت أبناء جزيرة العرب ، وجعلت منهم أمّة جهاد

غوستاف لوبون (١١)

- ١٦١ -

تحرص على الشهادة أكثر من حرصها على الحياة ، وجعلت من حكامها الأوائل وكبار رجال دولتها قدوة في العالم للعدل والحق ، وتطبيق المساواة ، وما يسمى اليوم (بالديمقراطية) الحقيقية غير المزيفة ، حكام شعروا بمسؤوليتهم أمام الله ، وأمام شعوبهم ، وكانوا يسألون عن تصرفاتهم بموجب دستور هو القرآن الكريم ، ولهذا نقول إن حكم غوستاف لوبون خاطئ ، وإن أمة آمنت برسالة الإسلام ومثله العليا ، كانت - وما تزال - تنتصر مهما واجهتها من قوى ، ولو كانت تلك القوى الامبراطورية الرومانية في عنفوان مجدها : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب ٦٢/٣٣] .

إن مقارنة (لوبون) بين محمد ﷺ وبين نابليون خطأ من بداياته ، فلا يقارن نبي مرسل ، ثابت المبدأ ، قال : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »^(١١٩) ، وبين نابليون الرجل المتقلب ، الذي قال في مجلس شورى حكومته : « إنني أتممت حرب الفندائيين لما تكثرت ، واستوليت على مصر إذ أسلمت ، وتوجت بالظفر في حرب إيطالية لأنني قلت بعصمة البابا ، ولو كنت أحكم شعباً يهودياً لأعدت بناء هيكل سليمان »^(١٢٠) .

- ٤٧ -

« نيز تلك الشريعة الحازم ظل طيباً ما ظلت نُظِمَ النبي ملائمة لاحتياجات أمته ، فلما أصبح تعديل تلك النظم ضربة لازب بسبب مبتكرات حضارة العرب ، كان نيز التقاليد من الثقل بحيث لا يمكن زحزحته » ، [صفحة ٧٢٣] .

(١١٩) ابن هشام ١٧٠/١

(١٢٠) روح الاجتماع ، تأليف غوستاف لوبون ، ترجمة أحمد فتحي زعلول باشا ، مطبعة الشعب ، القاهرة ١٩٠٩ م .

إن طبيعة الشريعة الإسلامية لا تجعل منها نيراً على معتنقيها مهما تطوّرت الحضارة ، وكثرت مبتكراتها واختراعاتها ، وذلك لأنَّ شريعة الإسلام كما وردت في مصدرَيْها الأساسيّين ، القرآن الكريم والسُّنة الشَّريفة ، لم تتعرَّض إلاّ للأمور العامّة في حياة المجتمع ، وإلى الأمور الخالدة في حياة الأفراد ، فالقيود التي تفرض العدل والحقّ والمساواة والصّدق .. وتمنع الغشّ والضرر والجريمة .. إنّها هي أمور لا تعرف التّبديل مهما تطوّرت الحضارات وتقدّمت البشريّة ، وكذلك حين نفرض على الإنسان ما يحفظ عليه صحّته وعقله ، ونمنعه من تجاوز حقوقه وحرّياته ، فإنّنا نقرّر أموراً خالدة خلود البشريّة ، ترتفع وترتقي عبر تاريخها ومسيرتها وتطوُّرها ، وهذه هي الأمور التي وردت فيها التّشريعات الإسلاميّة ، أمّا الأمور التي تتقبّل وتتطلّب التّقدّم والتّطوُّر والتّبديل تبعاً لتطوُّر الأمم ، فقد تركها الإسلام دون قيود ملزمة ، ليجد لها الإنسان ما يناسبها من أحكام وقوانين ، والأصل في الأشياء الإباحة^(١٢١) ، ومن هذه الزاوية يبقى الإسلام تشريعاً صالحاً لكلّ زمان ولكلّ مكان ، وهذه حكمة الله في آخر رسالاته إلى البشريّة ، فن الطّبيعي أن تتّصف بصفة ديمومة صلاحها ، وخلود تشريعاتها ، لما فيه صالح الإنسان ، أي إنسان ، فما سمعناه عن عدل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وورعه ، نتمنّى مثيله في القرن العشرين ، وبعد مضي أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام .

وهل أصدر (لوبون) رأيه في الفقرة السّابقة ، بعد أن سأل عدداً من المسلمين الملتزمين ، فكان جوابهم : إن الشريعة نيرة في رقابنا ، أو عبء على عاتقنا ؟

إنّ دين الفطرة لا يشكّل نيراً : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ

(١٢١) مع المصالح المرسلّة ، وسلطان العُرف ، ولكن ساحة الثّوابت مستقلة .

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ، [الرُّوم ٣٠/٣٠] ، لَا يَشْكُلُ نِيراً لِأَنَّهُ فَطَرَهُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ خَلَقَ .

ودينٌ نبذ العقل ، وآمن بالأسرار والخرافات ، هو النير الثقيل الذي يجب زحزحته .

وليكتل الردُّ ، نورد أهم الخصائص التي تميّزت بها الشريعة الإسلامية^(١٢٢) :

١ - الشمول والإحاطة : فما من قضية تتصل بنظام الاجتماع الإنساني من سياسة ، أو اقتصاد ، أو إدارة إلا وبيّنت الشريعة الإسلامية فيها الرأي الصائب ، والموقف السديد .

٢ - التكامل والترابط : الشريعة الإسلامية نظام متكامل لا ينقصه شيء ، ولم يفتسه شيء ، وهي نظام لا يمكن أن يؤخذ ببعضه ويترك بعضه ، لأنه كلُّ متكامل لا يمكن الاستغناء عن شيء منه بحال .

٣ - الواقعية وسهولة التطبيق : نظام لا يعيش في فراغ ، ملتصق بالحياة ، ولكل فرد في المجتمع والمسلم عمله ، وعليه واجباته .

٤ - وضوح الغايات ، ونبل الوسائل : الفكرة واضحة ، توحيد الله قيوم السموات والأرض ، الذي أوحى إلى محمد بن عبد الله ﷺ كتاباً هو : (هدى الناس) ، فيه سعادتهم ، تحقّق مبادئه : (خير أمة أخرجت للناس) .

والشريعة الإسلامية قسمان :

١ - قسم من مبادئها ثابت لا يتغيّر بتغيّر الزّمان والمكان والنّاس ، أحكام قطعية كحرمة الزّنا والخمر والميسر والرّبا ، وكأنّصبة الورثة من مورثهم ، وكالحدود ، والضوابط العامة ، والقواعد العامة التي يُعرّف بها الحلال والحرام .

(١٢٢) الغزو الفكري ٦٦ - ٧٠

٢ - وقسم متغيّر لمتطلبات الآتية في كلّ زمان ومكان ، وتفسير الأحكام أو تأويلها يكون من لدن رجال الفقه الإسلامي ، مادام التفسير مؤيداً بالقرائن والدلائل ، فالاجتهاد فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة فهماً دقيقاً وإعياً ، ثمّ تطبيق هذه القواعد والأصول على قضايا جديدة لم يكن لها نظائر في السابق .

وهذا القسم المتغيّر هو الذي يتيح لأهل الرأي وأصحاب الحلّ والعقد من المسلمين أن يضعوا من النظم والقوانين لكلّ عصر ما يناسبه ، ولكلّ زمان ما يليق به ، متجاوبين في ذلك مع مصالح المسلمين المتجدّدة المتغيّرة .

فكيف تُتَمَّ هذه النظم بالقصور ، وعلى عدم القدرة على مواكبة ركب التّحضّر والتّقدّم ؟!

- ٤٨ -

إنّ العرب « أرقى من جميع أمم الغرب التي عاشت قبل عصر النهضة أخلاقاً وثقافةً ، فلم تعرف جامعات القرون الوسطى في قرون كثيرة ، مصدراً غير مؤلفاتهم ومناهجهم ، وكانت أخلاقهم أفضل من أخلاق أجدادنا بمراحل » ، [صفحة ٧٣١] .

« إنّ أكابر العرب السابقين دون أكابر الزّمن الحاضر بما يستحقّ الذّكر ، ولكن عرب الطبقات الوسطى السابقة مساويةً لأبناء طبقاتنا الوسطى المتدّنة الحاضرة على الأقلّ ، وأرقى منها في الغالب » ، [صفحة ٧٣٢] .

مثل هذه الأقوال من غوستاف لوبون شهادات حقّ يعتزّ بها العرب ، بل وهي ردّ واضح وصريح على بعض ماورد بحقّ العرب من أقوال غوستاف لوبون وغيره ، فقد تأكّد للجميع أن علماء العرب المسلمين كانوا أساتذة العالم خلال فترة العصور الوسطى ، حين كانت أوربة غارقة في بحار ظلام الجهل والجمود الفكري ، والتّعصّب الأعمى ، والتّخلّف في ميادين الحياة المختلفة ، بينما كان العرب المسلمون

ينعمون وتنعم بلادهم الممتدة من حدود الصين شرقاً إلى مياه الأطلسي غرباً ،
بحضارة تميّز بتقدّم كبير في العلوم المختلفة وكشوفها ومخترعاتها الكثيرة ،
وبتحرّرها الفكري ومدارسها الفلسفيّة والفنيّة .

ولا ندري لماذا عاد (لوبون) بعد أقواله هذه عن رفعة العرب أخلاقاً
وثقافةً إلى القول بأنّ أكبر العرب السّابقين كانوا دون أكبر الزّمن الحاضر ،
ولا ندري تماماً ، ماذا يقصد بكلامه هذا ؟ فهل كانوا دونهم علماً ؟ وهذا - إن
أراد لوبون - كان أمراً طبيعياً تبعاً لتقدّم العلوم المستمر ، إلّا أنّهم في زمانهم ما كان
لهم نداء أو منافس في العالم قاطبة ، ولهذا غدت مؤلّفاتهم ومناهجهم العلميّة المصدر
الأساسي لجامعات أوربة لقرون عديدة ، كما يعترف ويقرّر لوبون نفسه .

- ٤٩ -

استخدم غوستاف لوبون - على الأغلب - كلمة (الاستيلاء) ، كلّما تحدّث
عن فتوحاتنا العربيّة الإسلاميّة ، ومثال ذلك :

« استولى عليه العرب » ، [صفحة ١٦٦] ، « استولت على بلاد مصر
والنوبة » ، [صفحة ١٧٦] ، « وجاب أسطول مؤلّف من ألف ومئتي قطعة البحر
المتوسّط ، فاستولى على جزره وأغار على صقلية » ، [صفحة ١٧٦] ، « استولى
عليها العرب » ، [صفحة ١٨٦] ، « استيلاء العرب على سوريّسة » ،
[صفحة ١٨٧] ، « استيلاء العرب على مصر » ، [صفحة ٢٥٥] ، « استولى
العرب .. » ، [صفحة ٢٨٤] ، « الاستيلاء عليها » ، [صفحة ٣٩٠] ، « واستولى
على مدينة .. » ، [صفحة ٥٢٧] ، « وكلّ قُطرٍ استولى عليه » ، [صفحة ٧٢٠] ..

بينما لم يستخدم لوبون لقومه إلّا كلمة الفتح :

« فتح النورمان لصقلية » ، [صفحة ٣٧٦] .

« بَعْدَ الْفَتْحِ النَّصْرَانِي » ، [صفحة ٣٨١] ..

لماذا يستعمل (لوبون) كلمة الاستيلاء ومشتقاتها ، عند دخول العرب لأي بلد من البلاد ، حتّى ولو كانت ذات أصول عربيّة ، ولها ماضي عربي مثل بلاد مصر وسوريّة ، بينما يستعمل كلمة الفتح عند كلامه عن غير العرب كقوله : فتح النُّورمان لصِقْلِيّة ، وكقوله : الفتح النَّصْراني ؟

لماذا يعمد (لوبون) إلى هذا التّمييز ؟ علماً بأنّه إن أراد الإنصاف الَّذي عرفناه عنده في بعض مواقفه الأخرى ، لوجب أن يقلب الآية ، لأنّ العرب مافتحوا البلاد بهدف الاستيلاء عليها لاستغلال خيراتها وأهلها ، وإنّا كانوا يحملون رسالة اعتقدوا أنّهم رسل تبليغها إلى أهل الأرض ، ولهذا سرعان ما كانوا يتعايشون مع أبناء البلاد المفتوحة ، وتصبح المساواة بينهم الصّفة الملازمة لحكمهم ، مادام الإسلام سائداً بينهم .

- ٥٠ -

واستخدم (لوبون) عبارات الشّك في مصادرنا ، والرّيبة في مؤرّخيننا :

« ويروي مؤرّخو العرب » ، [صفحة ١١٩] ، « كما روى العرب » ، [صفحة ١٢٣] ، « ورأي العرب » ، [صفحة ١٢٩] ، « على زعم كتب السّيرة » ، [صفحة ١٣٠] ، « كما روى مؤرّخو العرب » ، [صفحة ١٣٢] ، « روى مؤرّخو العرب » ، [صفحة ١٣٣] ، « مارواه مؤرّخو العرب » ، [صفحة ١٤١] ، « روى مؤرّخو العرب » ، [صفحة ١٧٥] ..

إنّ كتب السّيرة اعتمدت في كتاباتها عن حياة الرّسول ﷺ الطّرق العلميّة المتّبعة حديثاً في توثيق أخبارها ورواياتها ، فأخبارها تُذكرُ مع مصادرها وأسماء رواتها مع دراسة دقيقة لهؤلاء الرّواة ، فهل من الإنصاف أن نقول « تزعم كتب السّيرة » ؟

- ١٦٧ -

يقول اللورد هذلي : « ولكن الذين يرموننا بسهام النقد ، قد غاب عنهم شيء واحد ، غاب عنهم أن الحقائق التاريخية الخاصة بالنبي ﷺ هي من الشهرة والثبوت بحيث لا يتسنى معها اختلاق شيء جديد ، فإن لنا معشر المسلمين كتباً ضخمة معترفاً بصحتها ، تحتوي على أحاديث الرسول ﷺ ، التي محصها الرواة تحصيها دقيقاً ، ومن هذه الكتب نستمد كل ما نريد أن نكتبه عن النبي ﷺ .. وقد بلغ من عناية المسلمين بهذا الأمر ، أنهم يضربون عرض الحائط بكل ما يقال عنه ﷺ ، مما لم يرد له ذكر في كتب السنة ، مهما كان فيه تعجيد والإشادة بذكره » (١٢٣) .

« على زعم كتب السيرة » عبارة بعيدة كل البعد عن صفة العالم المنصف المتجرد عن الهوى ، والتحيز والتعصب ، وكان الأولى به والأجدر ، أن يقول : وجاء في كتب السيرة ، أو ذكرت كتب السيرة ، ثم لينقد ما جاء إن كان يريد نقداً أو تحصيها لما ورد في تلك الكتب .

أما أراد دافيد صموئيل جليوث - معاصر لوبون - أن نمزق كل مصادرها الأدبية والتاريخية ، بل ربما كان علينا أن نلقي عقولنا أيضاً ، استجابة لشكوكه التي نسجها حول مصادرها (١٢٤) .

ويعترف إميل درمنغهم في كتابه (حياة محمد) : « أنه لا يوجد واحد في الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد ، ولكن وجد من ينكرون بعض ما جاء في ترجمة محمد في الكتب العربية ، ومن الناس من يتجاوز الحد في النقد والاعتراض حتى يقع في الظلم ، أما أنا فقد جعلت كتابي سيرة حقيقية مبنية على المنابع

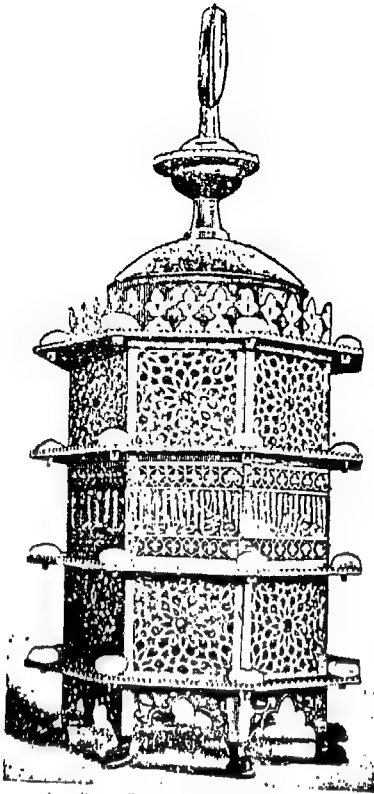
(١٢٣) من مقدمة اللورد البريطاني المسلم هذلي ، لكتاب المثل الأعلى في الأنبياء ، لحوجة كمال الدين ، ص ١٧ ، طبعة دار الفكر المعاصر ، بيروت ، سنة ١٩٨٩ م .
(١٢٤) مناهج المستشرقين ٤٣١/١ ، وهذا ما انتحله طه حسين ، ورؤج له في كتابه : (في الشعر الجاهلي) .

العربية الأصيلة بدون إهمال جميع ما وصلت إليه تدقيقات المتخصصين في هذا الموضوع في الأزمنة الأخيرة .. إن من المنابع الأولى لسيرة محمد القرآن والسنة» (١٢٥).

إنهم يقفون موقف المطمئن الواثق من أيّ خبر أو قول أو شعر يطعن أو يمسّ بالإسلام ونبيّه ، أمّا سيرة محمد ﷺ فلا يرونها مصدراً تاريخياً صحيحاً ، إنها تحتاج - حسب زعمهم - إلى التّحقيق ، والبحث العلمي الدّقيق !!

☆ ☆ ☆





مسرحة مسجد قديمة مصنوعة من البرونز
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف في القاهرة)



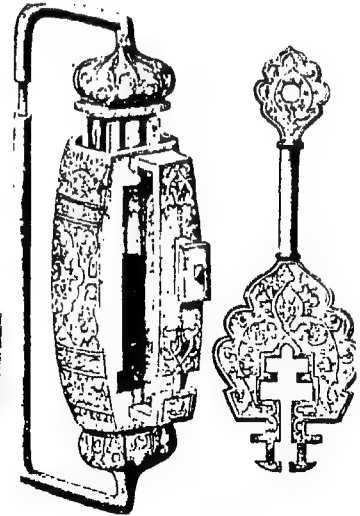
قدح عربي يعرف بقدرح شارلمان ويرجح أنه
جاء به من الشرق أيام الحروب الصليبية
(متحف شارتر)



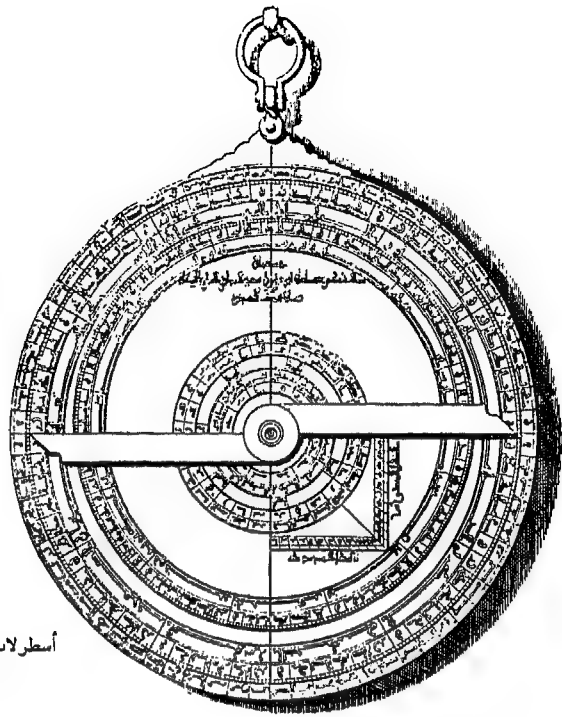
إبريق عربي مصنوع من البلور في القرن
العاشر من الميلاد (متحف اللوفر)
(صورة أخذت من جريدة الفنون الجميلة)



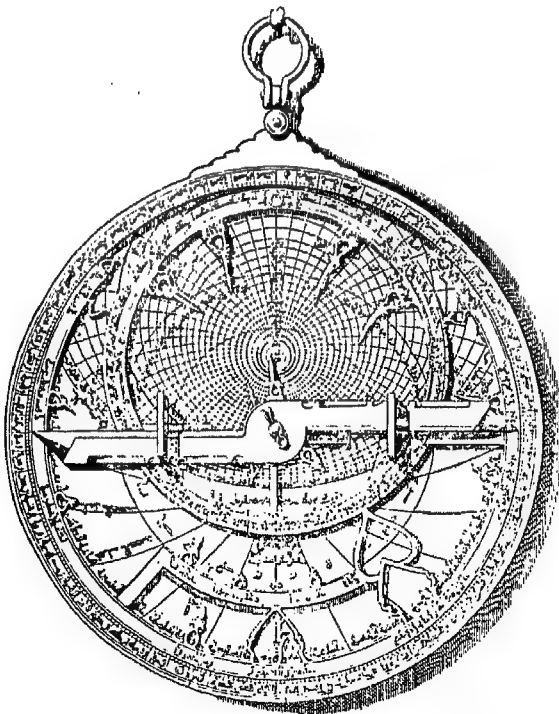
إنساء من البرونز مصنوع على الطراز
الصيني العربي (من مجموعة شيفر)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)



قفل عربي



أسطرلاب عربي قديم (متحف الآثار القديمة الإسباني)



الوجه الثاني للأسطرلاب



نارجيلة عربية مصنوعة من النحاس
المكفت بالفضة
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)



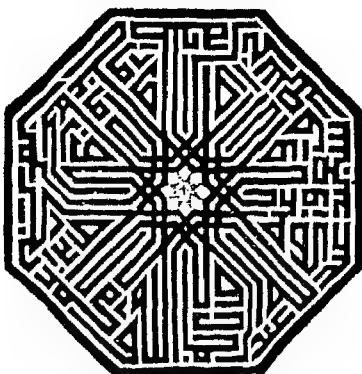
كوب عربي قديم من البلور
(من تصوير إير)



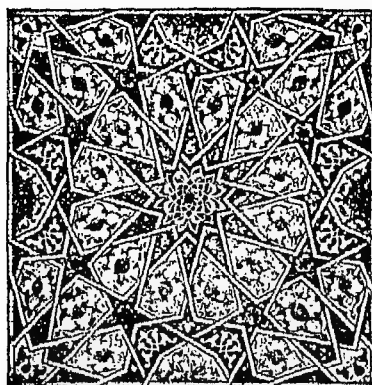
مصابيح عربي قديم كان في مسجد الحمراء
(يبلغ ارتفاعه مترين و ١٥ سنتيمتراً)
(متحف الآثار القديمة الإسباني)



عربي حضري سوري
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف في دمشق)



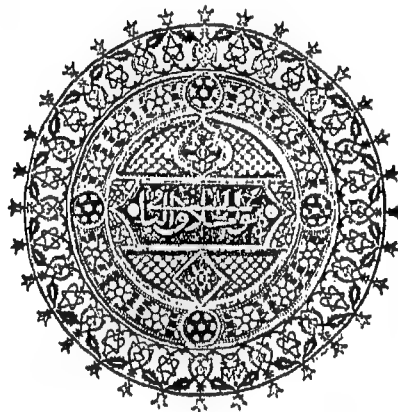
كتابة مزخرفة مؤلفة من تشابك حروف كوفية



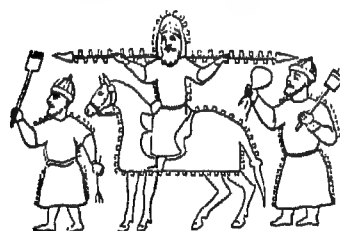
من زخارف مصحف قديم في القاهرة
(من إبير)



قلعة حلي فضية عربية (سورية)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)



سقاء مراكشي في طنجة
(من صورة فوتوغرافية)



قذائف محرقة استعملها العرب في القرن الثالث
عشر من الميلااد (نرى في هذه الصورة فارساً
حاملاً رمحاً نارياً ولايساً كخادميه قهصاً صفيقاً
من صوف ذي دسر معداً ليبلل بنفطد يشعل فيها
بعد ، وذلك لإلقاء الرعب في الأعداء)
(من مخطوط عربي قديم محفوظ في بطرسبرغ)

خاتمة

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا
بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ
وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

[المنكوت ٤٦/٢٩]

وهكذا رأينا إيجابيات الرجل وسلبياته ، وقبل أن نطوي آخر صفحات هذا الكتاب ، نوكد أن الرجل كان بعيداً عن التعصب والتشنج إلى حد بعيد ، لاحقد ، ولا كراهية ، لاشتائم ، ولا سباب ، لقد جاء إلى البلاد العربية زائراً باحثاً ، فأعجب بأثار حضارة رفيعة المستوى ، خالدة الذكر ، لها أثرها البالغ في بناء الحضارة الإنسانية ، وختم كتابه بفقرات هامة عن أسباب عظمة العرب ، وأسباب انحطاطهم ، وحال الإسلام الحاضرة .

أسباب عظمة العرب :

جعل (لوبون) الزمن الذي ظهر فيه العرب - القرن السابع الميلادي - من العوامل التمهيدية التي ساعدت على إظهار قوتهم : « بيد أن القضاء على دولة لا يكفي لإقامة حضارة »^(١) .

لقد جعل (لوبون) الزمن عاملاً مساعداً على إنشاء دولة جديدة ، وحضارة جديدة ، ولكنه أضاف عوامل أساسية أخرى لإقامتها ، مثل :

(١) حضارة العرب ٧١٥

العِرْق ، والعِرْق والنُّوع - عند (لوبون) - كلمتان مترادفتان^(٢) ، فصفاة العِرْق الخلقِيَّة والعقليَّة ثابتة ، ثبات الصِّفاة التَّشريحيَّة ، ومن صفاة أُمَّة العرب : الذِّكاء ، وحماسهم واستعدادهم الفنِّي والأدبي ، وما إلى ذلك من الصِّفاة الَّتِي لولا وجودها فيهم ، ما استطاعوا أن يَصِلوا إلى درجة الحضارة .

ولما جاء الإسلام أَلَّف بين قلوب العرب ، فوجَّهوا جميع قواهم إلى البلاد الأجنبيَّة ، فكانت طبائعهم الحربيَّة من أسباب انتصاراتهم ، كما منحهم الإسلام مثلاً أعلى ، اكتسبوا به من الحَمِيَّة ، ما استدَّعوا به للتَّضحية في سبيله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعُذُّهُ عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ، [التوبة ١١١/٩] .

وجعل (لوبون) تسامح العرب ورحمتهم في فتوحهم سبباً لانتشار دينهم ، مع بساطة النُّظم الَّتِي انبثقت عن دينهم .

كما وجعل من تأقُّلم العرب مع البيئة الجديدة بعد الفتوح ، وجدَّهم من فورهم لبناء حضارتهم ، سبباً آخر من أسباب عظمة العرب ، الَّتِي تجلَّت باستقلالهم الرُّوحي والعلمي ، وبقوَّة إبداعهم في مبتكراتهم الحديثة ، فلم يَمُضِ سوى وقت قصير ، حتَّى طبعوا على فنِّ العمارة ، وسائر الفنون ، ثمَّ على مباحثهم العلميَّة طابعهم الخاص^(٣) .



(٢) حضارة العرب ٧٨ : « فيجب عُدُّ كلمة العِرْق بالنسبة إلى الإنسان مرادفة لكلمة النُّوع » .

(٣) حضارة العرب ٧١٤ - ٧٢٢

أسباب انحطاط العرب :

إنَّ غرائز العرب في الحرب والخصام ، التي كانت نافعة في دور فتوحهم ، لم تلبث أن أصبحت ضارة بعد انقضائه وخلو الميدان من أعداء يحاربونهم ، فالعرب بعد أن تمت فتوحهم أخذ ميلهم إلى الانقسام يبدو ، وصارت دولتهم تتجزأ حتى سقطت ، كما حدث لهم في بلاد إسبانية وصقلية اللتين أضاعوها بفعل انقساماتهن الداخلية على الخصوص .

ويقول (لوبون) : إن العرب لم يقدرُوا على فتح العالم إلا حينما خضعوا للشريعة الجديدة التي جاء بها محمد ﷺ ، وجمعوا كلمتهم المتفرقة تحت لوائها ، وهي التي كان يمكنها وحدها أن تجمع القوى المبعثرة في بلاد العرب ، فبغير تلك الشريعة الحازم ظل طيباً ما ظلت نظم النبي ملائمة لاحتياجات أمته ، فلما أصبح تعديل تلك النظم ضربة لازب بسبب مبتكرات حضارة العرب ، كان نير التقاليد من الثقل بحيث لا يمكن زحزحته^(٤) .

وتمتع الولاة في ولاياتهم بمثل ما تمتع به الخلفاء من السلطات العسكرية والدينية والمدنية^(٥) ، فلم تلبث أهم ولايات الدولة أن تحولت إلى دويلات مستقلة ، وهذا أضعف سلطان العرب السياسي ، وإن مهد السبيل لتقدم الحضارة في مصر والأندلس مثلاً^(٦) .

ثم إنَّ الحضارة تهذب الطبائع ، وتثقف الذهن ، لاتنبي الصفات الحربية ، فتتهيء بذلك سقوط الدول الكبرى .

(٤) حضارة العرب ٧٢٣ ، ورددنا بعض أفكاره في هذا المقطع في الفقرة ٤٨ ، فصل (الأخطاء والمفقات) .

(٥) خصوصاً ولاية التفويض ، يقول الماوردي [الأحكام السلطانية ١٨ - ٢١] : فهو ينظر في كل ما ينظر فيه الخليفة .

(٦) يعني مصر أيام الفاطميين والماليك ، والأندلس أيام الأمويين في عهدي الإمارة ثم الخلافة .

ومن أسباب انخراط العرب ، اختلاف العروق التي خضعت لسلطانهم ، مما أسفر عن تنافس مختلف الأمم ، وتوالد الكثير من فساد دم الغالبين بسرعة .

كان اختلاف مختلف الأمم في دولة واحدة عامل انحلال قوي على الدوام ، وقد أثبت التاريخ أنه لا يمكن بقاء مختلف العروق تحت سلطان واحد ، إلا بمراعاة الشرطين الآتيين ، وهما : أن يكون الفاتح من القوة بحيث يعلم كل واحد أن كل مقاومة له لا تجدي نفعاً ، وألا يتوالد الغالب والمغلوب ، ومن ثمّ ألا يفنى الغالب فيه ، ولم يراعِ العرب الشرط الثاني قط^(٧) .

حَالُ الْإِسْلَامِ الْحَاضِرَةِ :

ولا يزال الإسلام جاذباً في تقدّمه ، والسّهولة العجيبة التي ينتشر بها القرآن في العالم شاملة للنظر تماماً ، فالمسلم أينما مرّ ترك خلفه دينه ، ويتّسع نطاق الإسلام في أي مكان في العالم^(٨) .



مِفْتَاحُ شَخْصِيَّةِ لُوبُون :

أعجب (لوبون) بترائنا وآثارنا ، وأحبّ العرب وساحتهم في فتوحهم ، ولمس إبداعهم في بناء حضارتهم ، التي كانت سبب صحوة أوربة الحديثة عندما احتكّت بها : « وقد يسأل القارئ : لماذا ينكر تأثير العرب علماء الوقت الحاضر ، الذين يضعون مبدأ حريّة الفكر فوق كل اعتبار ديني كما يلوح ؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأله نفسي أيضاً ، وهو : أن استقلالنا

(٧) حضارة العرب ٧٢٢ - ٧٣٢

(٨) حضارة العرب ٧٣٤ - ٧٣٦

الفكري لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة ، وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد »^(٩) .

ولسبب أو لآخر (استقلّ لوبون فكرياً) ، فتحرّر من أثر النصوص التوراتية ، أو المؤثرات التوراتية ، أو التطويع التوراتي إلى حد بعيد .

إن مفتاح شخصيّة الرّجل عدم أخذه بدراسات الاستشراق الظّالمة ، مع كرهه لليهود ، فتحرّر من تأثير دراساتهم وأحكامهم ووجهات نظرهم حول تاريخنا وحضارتنا ، فجاءت آراؤه منصفة عادلة بشكل عام ، وعندما أخطأ أو كَبَا ، ما أخطأ عن تعصّب أو حقد ، وما كَبَا عن سوء قصد .

ويلس القارئ بغضّ (لوبون) لليهود ، من خلال خمسة نصوص في (حضارة العرب) هي :

١ - « زالت تقريباً القصور العجيبة التي كانت تشتمل كل مدينة عربيّة على عدد كبير منها ، أيام ازدهار حضارة العرب ، نعم ، يُقِمُّ مُرابّو اليهود بيوتاً من نوعها في دمشق ، ولكن ما فطر عليه الشّعب اليهودي من الذّوق الفاسد ، والتّرف المزيّف ، يدفع المرء إلى الأسف على ما ينفقونه من المال في سبيل تقليد تلك القصور العربيّة التي هي في طريق الأفول تقليداً سيئاً ، فالمرء يرى في تلك البيوت اليهوديّة خلطاً كريهاً بين أخسّ ما صنعه شرقي ، وأقبح ما أنتجه أوربي ، ويشاهد فيها نقوشاً من أخطّ ما صنعه الرّسامون ، وتلك البيوت اليهوديّة وحدها هي التي يستطيع الأجانب أن يدخلوها ، وهي التي لا يزورون غيرها ، فيخطئون في عدّها من أمثلة فنّ العمارة العربي ، وقد أنعمت في بيت يهودي ، الذي نشر رسمه المؤلّفان الفاضلان مسيولوته ، ومسيو غيران ، والذي هو أشهر تلك البيوت اليهوديّة ، فلم أجد فيه سوى فساد في ذوق صانعيه الذين حاولوا أن

(٩) حضارة العرب ٦٨٨

يوقفوا في شيدده بين مختلف فنون البناء فضلاً عما رأيت فيه من الأمتعة الأوربيّة المبتذلة ، والشّماعد التي لا يساوي بدل الواحد منها سوى بضعة دوانق ، والتّماثيل الصّغيرة لنابليون ، والرّسوم التي تعد بجانبها أحطّ رسوم إپينال الملونة آية في الإبداع « (١٠) .

٢ - « وينتظر التّاجر أمام دكانه متّزناً صابراً المشتري فلا يُزعج أحداً من المارّين ، مالم يكن التّاجر يهودياً ، فإذا كان التّاجر يهودياً ألحقت على المشتري بدناءة ، فلم يسطيع أن يتخلّص منه إلّا بعد عناء كبير » (١١) .

٣ - « وما علمناه من أشعار العرب قيل بعد المسيح ، وقيل ظهور محمّد ، ولم تكن هذه الأشعار في غير الغزل وتمجيد الملاحم ، فالعرب كانوا ، كالإغريق في عصر البطولة ، يحبّون أن يسمعوا شعراءهم يُشيدون بمفاخرهم .

وتبدأ تلك الأشعار في الغالب ، بالتّصوير والتّشبيه ، شأن شعر الأمم الفطريّة التي تحسّ كثيراً وتفكر قليلاً ، وتختلف تلك الأشعار عن الشعر الإسرائيلي في خلوّها من التّكهنّ والدّجون والتّغنيّ بسفك الدّماء ، ولا تجد فيها ذكراً لمثل المجاز والوحشيّة والمذابح والإبادات ولّعنات الرّب الدائمة التي ملئت بها التّوراة » (١٢) .

٤ - « فالحقّ أنّ أتباع محمّد ظلّوا أشدّ من عرفته أوربة من الأعداء إرهاباً عدّة قرون ، فهم عندما كانوا لا يُرعدوننا بأسلحتهم ، كما في زمن شارل مارتل والحروب الصليبيّة ، أو يهدّدون أوربة بعد فتح القسطنطينيّة ، كانوا يُذِلّوننا بأفضليّة حضارتهم السّاحقة ، فلم نتحرّر من نفوذهم إلّا بالأمس .

لقد تراكت أوهامنا الموروثة ضدّ الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة ،

(١٠) حضارة العرب ٤٤٥

(١١) حضارة العرب ٤٤٩

(١٢) حضارة العرب ٥٢٩

فصارت جزءاً من مزاجنا ، فأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصلَ حَقْدَ اليهود على النصارى الخفيّ أحياناً ، والعميق دُوماً ^(١٣) .

٥ - « يصعب بيان ما امتصّته رجال المال الأوربيون ، ولا سيما اليهود ، من فلاحى مصر في بضع سنوات ، وإنّا نعلم من الأرقام التي نشرها مسيو فاندنبرغ في سنة ١٨٧٨ م أن رجال المال أخذوا من مبلغ الـ ١٣٩٧١٧٥٠٠٠ فرنك ، الذي هو مجموع القروض الخمسة ٥٢٢ مليون فرنك إكراميةً أو عمالة إلخ ، فلم يكن نصيب الخزينة المصريّة منه سوى ٨٧٥ مليون فرنك ، فدفعت هذه الخزينة من الفوائد ، منذ زمن طويل ، ما يعدل رأس المال » ^(١٤) .

لقد تحرّر (لوبون) فكرياً من مؤثرات الاستشراق الحاقدة الموجهة ، والتي حرصت على إدانة الإسلام وأهله ، ونبد التفسيرات التوراتيّة ، وكره حقّد اليهود الخفي أحياناً ، والعميق دُوماً ، فكتب ما كتب .

ورأى (لوبون) محمّداً ﷺ رجلاً عظيماً ، وشخصيّة عالميّة ، ولكن لم ير فيه نبوءة ووحياً :

« أمّا الفريق الثاني من القوادر ، وهم ذوو الإرادة الثابتة ، فإنّ تأثيرهم أعظم بكثير ، وإن كانوا أقلّ ظهوراً في الشّكل ؛ وهم الذين نبغ من بينهم أصحاب الأعمال الكبيرة كالقديس بولص ^(١٥) ، ومحمّد - ﷺ - ، وكريستوف كولومبس ^(١٦) ، ودولسبس ^(١٧) .. » .

(١٣) حضارة العرب ٦٨٨

(١٤) حضارة العرب ٧٠٣

(١٥) شارل بولص : اضطهد المسيحيين بعنف ، واهتدى فجأة على طريق دمشق نحو سنة ٢٣ م ، أعدم في رومة سنة ٦٧ م .

(١٦) كولومبس [ت ١٥٠٦ م] بحار ولد في جنوى (إيطالية) ، وتوفي في إسبانية ، مكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢ م .

(١٧) مهندس فرنسي ، صاحب مشروع السويس ، الذي بدأ بحفرها سنة ١٨٥٩ م ، وافتتحت سنة ١٨٦٩ م .

« إنَّ أكثر من نشعر بنفوذه فينا هم من الذين ارتحلوا عن هذه الدار ، ولم نعد نخاف منهم مثل الاسكندر^(١٨) ، وقيصر^(١٩) ، ومحمد - ﷺ - ، وبوذا^(٢٠) .. » .

« لقد كان تيبير^(٢١) وجنكيزخان^(٢٢) ونابليون^(٢٣) جبارين مستبدّين ، ولكن استنثار موسى وبوذا وعيسى ومحمد ولوثر^(٢٤) ، وهم في قبورهم أشدَّ وأبقى ، إنَّ مكيدة قد تبيد سطوة الجبار ، ولكن ماذا ينفع الكيد في عقيدة استقرّت في النفوس^(٢٥) » .

« يعتبر المرء الثورات الدنيئة أمراً سيئاً إذا ظنَّ أنَّ تاريخها يشبه تاريخ ثورة الإصلاح الديني ، والواقع أنَّ شأنها كلّها ليس كذلك ، فقد كان تأثير الكثير منها في تهذيب الناس ، وتقويم نفوسهم عظيماً جداً ، إذ هي بمنحها الشعب وحدة أدبيّة تزيد في قوّته المادّيّة كثيراً ، وقد شوهذ ذلك لما حوّل محمد - ﷺ - بما أتى به من الإيمان ، قبائل العرب الضّعيفة إلى أمةٍ مخيفة » .

(١٨) الاسكندر بن فيليب المكدوني .

(١٩) يوليوس قيصر Cesar : [١٠١ - ٤٤ ق . م] ، امبراطور رومة ، تزوّج ملكة مصر كليوباترة .

(٢٠) بوذا (بدها غوتما) Buddha Gautama : [٥٦٦ - ٤٨٦ ق . م] ، مؤسس الديانة البوذيّة ، كان اسمه سدهارتا ، واسم عائلته غوتما ، ولُقّب ببوذا أي المنوّر .

(٢١) تيبير : Tiberius ، اسم ثلاثة من أباطرة رومة وبيزنطة ، أشهرهم تيبيريوس الأول : [٤٢ ق . م - ٣٧ م] .

(٢٢) جنكيز خان (ابن يشوكي) : [١١٦٧ - ١٢٢٧] منشئ الامبراطوريّة المغوليّة .

(٢٣) نابليون Napolion : [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] ، امبراطور فرنسة : [١٨٠٤ - ١٨١٥ م] نفى إلى جزيرة القديسة هيلانة - في المحيط الأطلسي ، بعيداً عن سواحل إفريقيا الجنوبيّة الغربيّة - حيث توفي فيها ، ثم نقل رفاته إلى باريس .

(٢٤) مارتين لوثر Luther : [١٤٨٣ - ١٥٤٦ م] ، مؤسس البروتستانتية بحركة الإصلاح الديني في ألمانيا ، انفصل عن الكنيسة في شأن صكوك الففران وسلطة البابا .

(٢٥) روح الاجتماع ، على التوالي : ٨٨ و ٩١ و ١٠٦

« إنَّ حماسة مؤسَّسي الثَّورة الفرنسيَّة تعادل حماسة ناشري دين
مُحمَّد - ﷺ - » [روح الثَّورات ٨٥] .

« لقد أثبتَ التَّاريخ ما للمعتقد القوي من القوَّة الَّتِي لا تقاوم ، فخضعت
دولة الرُّومان المنيعَة لجيوش من رعاة البدو ، الَّذِينَ أضاء قلوبهم ماجاء به
مُحمَّد - ﷺ - من الإيمان »^(٢٦) .

☆ ☆ ☆

وأخيراً ، لقد صدر من هذه السَّلسلة (في الميزان) حتَّى نهاية سنة ١٩٨٩ م
أربعة كتب هي :

- ١ - جرجي زيدان ، من خلال دراسة : (روايات تاريخ الإسلام) .
- ٢ - فيليب حِتِّي ، من خلال دراسة كتابه : (تاريخ العرب المطوَّل) .
- ٣ - كارل بروكلمان ، من خلال دراسة كتابه : (تاريخ الشُّعوب
الإسلاميَّة) .
- ٤ - غوستاف لوبون ، من خلال دراسة كتابه : (حضارة العرب) .

وبعد إبعاد ما أورده جرجي زيدان في رواياته الغرامِيَّة الخياليَّة ، الَّتِي فيها
كلُّ شيء إلا التَّاريخ ، ومقارنة ماقدَّمه حِتِّي وبروكلمان ولوبون ، نجد عوامل ،
أو قواسم مشتركة فيما قدَّموه في كتبهم المذكورة ، وهم يتقاربون جدًّا في الخطوط
العامة ، وإن تخلص لوبون من الكثير ، الَّذِي سبَّبه الحقد والصَّليبيَّة ، أو الطَّعن
والتَّأثيرات التَّوراتيَّة ، فمن نقاط التَّقاطع بين حِتِّي وبروكلمان ولوبون ، النُّقاط
التَّالية :

(٢٦) روح الثَّورات على التَّوالي : ٤٧ و ٢٠

١ - إقحام (اليهود) في الهجرات العربيّة التي انطلقت من الجزيرة العربيّة :

قال حتّي : « فإنّها - أي الجزيرة العربيّة - قد أنشأت الشعوب التي نزلت فيها بعد إلى الهلال الخصيب ، هذه الشعوب التي أصبحت مع تعاقب الأجيال أمم البابليين والآشوريين والفينيقيين والعبرانيين ، وفي تربة هذه الجزيرة الرملية نشأت العناصر الأصلية للديانة اليهودية » ، [تاريخ العرب المطول : ١] .

وقال بروكلمان : « وابتداء من الألف الثالث قبل الميلاد ، شرعت جماعات من شعوب الجزيرة العربيّة ، تندفع نحو الشمال في فترات من القحط بالغة الخطورة ، فإذا بالبابليين يغشون العراق ، ويقتبسون فيه ثقافة السومريين ، وإذا بالكنعانيين واليهود والآراميين يهبطون سورية وفلسطين ، ويستعرون مع الفينيقيين ثقافة الجنس المعروف بجنس الشرق الأدنى .. » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ١٥] .

وقال لوبون : « عدّ العرب واليهود والفينيقيون والعبريون والسومريون والبابليون والآشوريون ، الذين استوطنوا جزيرة العرب وآسية الصغرى إلى الفرات من أصل واحد ، ويدعى ذلك الأصل بالأرومة السامية » ، [حضارة العرب ٨٣] .

٢ - القول بتقدّيس الحجارة عند الوثنيين أيام الجاهليّة ، ومنها (الحجر الأسود) :

قال حتّي : « تقدّيس الحجارة والغدران في العصور التي سبقت عصر الحجر الأسود ، وبئر زمزم في الجزيرة ، وعصر بيت إيل في فلسطين » ، « وفي وسطها - وسط الكعبة - قام نصب هو عبارة عن قطعة من الحجر البركاني الأسود يعبدونه » ، « وأقرّ - ﷺ - الحجّ إلى الكعبة ولثم الحجر الأسود فيها ، وهما من فروض الدين المرعية في الجاهليّة » ، [تاريخ العرب المطول ٣٢ و ١٣٩ و ١٦٣] .

وقال بروكلمان : « ومن هنا قدّس العرب القدماء ضروباً من الحجارة في سُلْع وغيرها من بلاد العرب ، كما يقدّس المسلمون الحجر الأسود القائم في زاوية من الكعبة في مكّة » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٢٤ و ٢٥] .

وقال لوبون : « ولا نعلم نُصباً كَرَّمه النَّاسُ زمناً طويلاً كالحجر الأسود ، فقد كان موضع احترامٍ وتبجيلٍ قبل ظهور محمد بقرون كثيرة » ، [حضارة العرب ٧١] .

٣ - صِلَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالرَّاهِبِ بَحِيرَى خلال رحلته إلى الشَّام :
قال حَتِّي : « ولما بلغ مُحَمَّدُ الثَّانِيَةَ عشرة من عمره فيما يروى ، رافق عَمَّهُ أبا طالب في رحلة إلى الشَّام ، زعموا أَنَّهُ قابل في أَثنائها راهباً مسيحياً يعرف بالرَّاهِبِ بَحِيرَى » ، [تاريخ العرب المطوّل ١٥٦] .

وقال بروكلمان : « وتذهب الرّوايات إلى أَنَّهُ اتَّصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٤] .

وقال لوبون : « وتقول القِصَّةُ إِنَّ مُحَمَّدًا سافر مرّةً مع عَمِّه إلى سورِيَّة ، فتعرّف في بُصْرَى براهب نسطوري في دَيْرِ نصراني ، فتلقّى منه علم التَّوراة » ، [حضارة العرب ١٣٠] .

٤ - الأَخْذُ مِنَ التَّوراة والاقْتِباسُ مِنْهَا وَمِنَ الْإِنْجِيلِ :
قال حَتِّي : « وقد ظهرت ديانة العرب بعد اليهوديّة والمسيحيّة ، فأصبحت ثالثة الديانات التَّوْحِيدِيَّة وخاتمتها ، وهي من النَّاحِيَةِ التَّارِيخِيَّة تَمَّتْ بأوثق الصَّلَاتِ إلى هاتين الديانتين ، فكانت أَقرب الديانات إليهما على الإِطلاق ، وهكذا فإن هذه الديانات الثلاثة ليست إلّا نتاجاً لحياة رُوحِيَّة واحدة هي الحياة السَّامِيَّة ، ومن هنا هان على المسلم المؤمن - إذا استثنينا بعض الأحوال - أَنْ يُسَلِّمَ معظم ما تنطوي عليه العقائد المسيحيّة » ، [تاريخ العرب المطوّل ٢] .

« لقد نسج الإسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس ، إلاَّ أنَّه تأثر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النَّصارى في البَيْع » ، [تاريخ العرب المطوَّل ١٨١] .

وقال بروكلمان : « اقتبس النَّبيُّ عن التَّوراة فكرة الخطيئة الأصليَّة » ، [تاريخ الشعوب الإسلاميَّة ٧٠] .

« وإنَّما ترجع معتقداته فيما يتعلَّق بالعالم الآخر إلى مصادر يهوديَّة ، وهكذا تتَّصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسيَّة وبابليَّة قديمة » ، [تاريخ الشعوب الإسلاميَّة ٧١] .

وقال لوبون : « وما جاء في القرآن من نصٍّ على خَلْق السَّمَاوَات والأَرْض في سِتَّة أَيَّام ، وَخَلْقِ آدَمَ وَالْجَنَّةِ وهبوطِ آدَمَ مِنْهَا ، ويوم الحساب مقتبسٌ من التَّوراة » ، [حضارة العرب ١٥٣] .

« وإذا أَرَجَعْنَا القرآنَ إلى أصوله أمكننا عَدُّ الإسلام صورةً مختصرة من النَّصرانيَّة ، والإسلامُ يختلف عن النَّصرانيَّة ، مع ذلك ، في كثير من الأصول ، ولا سيما في التَّوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي » ، [حضارة العرب ١٥٨] .

٥ - الاستيلاء والفتح :

استعمل جِثِّي في كتابه كلمة (استولى) في كتابه (تاريخ العرب المطوَّل) ، بحق الفتوحات العربيَّة الإسلاميَّة : « الاستيلاء على مصر وطرابلس وبرقة » ، [صفحة ٢١٥] ، « وهكذا تمَّ استيلاء المسلمين للمرَّة الثانية على الاسكندريَّة » ، [صفحة ٢٢٢] ، « واستولى معاوية على قبرص » ، [صفحة ٦٤٩] ، « الاستيلاء على إسبانية » ، [صفحة ٢٧٠] ، وهكذا خصَّ جِثِّي العرب المسلمين بعبارات الاستيلاء والاعتصاب والاكْتِصاح والغزو والقهر ، كما في الصَّفحات : ٢٦٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٨ ، ٥٤٢ ، ٥٥٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٥ ، ٥٩٨ ،

٦٠٣ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٧١٤ ، ٨٣٦ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٧٠ ، وخصّ قومه بالفتح والتحرير ، خصّهم بكلمة حضاريّة إنسانيّة هي « الفتح » .

« ولما فتح الفرنجة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م » ، [صفحة ٥٧٥] ، « الفتح النورماني » ، [صفحة ٧١٩] ، « تمّ للصليبيين فتح بيروت وصيدا في عام ١١١٠ م » ، [صفحة ٧٥٨] ، « تحرير الرّها » ، [صفحة ٧٦٣] قالها بحقّ قومه الصليبيين ، وقال عن نور الدّين زنكي : « أمّ احتلال كونتيّة الرّها » ، « فتح الفرنسيين لمراكش » ، [صفحة ٨٤٦] .

وقال بروكلمان : « كان الغزاة العرب يجوسون خلال الديار غانين مخربين » ، [صفحة ١٠٠] ، ووصف المجاهدين في البحر المتوسط ضدّ الغزو الأوربي ، والإسباني خصوصاً ، بالقراصنة ، وجهادهم : قرصنة ، كما في الصّفحات : ٤٥٣ و ٤٧١ و ٦٢٠ ، ووصف جهاد الجزائريين ضدّ الفرنسيين المستعمرين « بالتعصّب الديني » ، [صفحة ٦٢٥] ، « نيران العصبية الدّينية بين القبائل ، فتابعت حرب العصابات ضدّ الفرنسيين » ، [صفحة ٦٢٦] ، وجعل بروكلمان احتلال بريطانية لمصر « لرفع مستوى المصريين من الوجهتين الماديّة والفكريّة أيضاً » ، [صفحة ٧١١] .

ولوبون وصف فتوحاتنا بالاستيلاء : « استولى عليه العرب » ، [صفحة ١٦٦] ، « استولت على بلاد مصر والنوبة » ، [صفحة ١٧٦] ، « استيلاء العرب على سوريّة » ، [صفحة ١٨٧] ، « استيلاء العرب على مصر » ، [صفحة ٢٥٥] ... وقال : « فتح النورمان لصيقليّة » ، [صفحة ٣٧٦] ، « بعد الفتح النصراني » ، [صفحة ٣٨١] .

٦ - القرآن من تأليف محمد - ﷺ ، فهو « صاحب الشريعة المحمدية ، أو الإسلامية » :

قال حِتي : « ويمكن أن نعتبر النثر المسجّع الذي ابتكره الكُهَّان والعرفَّاون خطوة أولى في سبيل ابتداع الفنِّ الشعري ، وفي القرآن نماذج لهذا الأسلوب » ، [تاريخ العرب المطوّل ١٢٥] .

وقال بروكلمان : « وكان على أبي لهب أن يحلَّ محل أخيه أبي طالب في حماية النبيِّ ، على الرِّغم من خصومته له ، وعلى الرِّغم من أنَّ النبيِّ لعنه في إحدى السُّور » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٤١] .

ولقد كان يُعلن أحكامه السياسيّة في المدينة بوصفها جزءاً من القرآن ، أي جزءاً من الوحي الإلهي » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٦٨] .

وقال لوبون : « ويقال إنَّ محمداً كان قليل التَّعليم ونُزَّجَّح ذلك ، وإلَّا لوجدت في تأليف القرآن ترتيباً أكثر مما فيه » ، [حضارة العرب ١٤١] ، ثم قال في الصِّفحات : ١٥١ و ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥ : « فاسمع تعريف النبيِّ ، فيإليك وصف محمَّد » ، « فاسمع قوله - قول محمَّد - عنهم » ، ويذكر آيات من القرآن الكريم .

٧ - أسباب غزوة خيبر : خيراتها وخصبها ، وفشل النبيِّ ﷺ في صلح الحديبية :

قال حِتي : « أمّا يهود خيبر فأخرجهم من واحتهم الخصيبة في الشَّمال من المدينة سنة ٦٢٩ م » ، [تاريخ العرب المطوّل ١٦٢] .

وقال بروكلمان : « وفي نوَّار من سنة ٦٢٨ حاول النبيُّ أن يعوِّض من فشله الظَّاهري في الحديبية ، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنيّة في خيبر » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٥٦] .

وقال لوبون : « رأى محمد بعد ذلك الإخفاق - في صلح الجديبية - أن يروح أصحابه فخف بهم إلى مدينة خيبر المحصنة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي ، والبعيدة منها مسيرة خمسة أيام ، والتي كان يقطن فيها قبائل يهودية ، والتي كانت مقر تجارة اليهود ففتحها عنوة » ، [حضارة العرب ١٣٦] .

٨ - كان بناء الصخرة أيام عبد الملك ، لصرف المسلمين عن الحج إلى الكعبة المشرفة :

قال جتي في الصفحة ٣٣٢ [تاريخ العرب المطول] عن بناء عبد الملك لقبة الصخرة : « وقد دعاه إلى بنائها عزمه على صرف الحجاج عن مسجد مكة » .

وقال بروكلمان في الصفحة ١٤٠ [تاريخ الشعوب الإسلامية] : « وفي عهد عبد الملك تعذر على أتباعه الحج إلى الكعبة ، بسبب استيلاء منافسه في الخلافة ، عبد الله بن الزبير على مكة ، فحاول أن ينشئ في القدس بدلاً من البيت الحرام ، وهناك على الصخرة المقدسة التي استن عمر نفسه الصلاة عندها ، يوم دخل بيت المقدس ، شيّد عبد الملك ما يدعى قبة الصخرة » .

وقال لوبون في الصفحة ٣٣٨ [حضارة العرب] عن عبد الرحمن بن الحكم الخطأ نفسه : « ولم يكد عبد الرحمن يقبض على زمام الحكم في إسبانية حتى أخذ يسعى في حمل العرب على اتخاذ إسبانية وطناً لهم ، فأنشأ جامع قرطبة الشهير ، الذي هو من عجائب الدنيا لتحويل أنظار العرب عن مكة » .

٩ - يوسف بن تاشفين ، أفقد ملوك الطوائف عروشهم حباً بالتوسع : قال جتي : « وأراد المعتمد اتقاء الخطر الذي تهدده به ألفونسو السادس والسيّد ، فارتكب أكبر خطأ ، إذ طلب النجدة من يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في مراكش ، ورغبه في الجهاد ونصرة الإسلام .. غير أنه لم تمض فترة طويلة حتى عاد زعيم المرابطين هذا هو وأتباعه ، وكان هؤلاء قد سُموا البادية

وقحطها ، وتاقت أنفسهم لأطبايب المدينة الأندلسية التي تذوّقوها من قبل ،
فنزّلوا الأندلس مرّة ثانية ، ولكنهم نزلوها هذه المرّة فاتحين لأمّجدين « ،
[تاريخ العرب المطوّل ٦٤٢ و ٦٤٣] .

وقال بروكلمان : « والواقع أنّه دفع - المعتمد بن عبّاد - وزملاؤه ثمن هذه
المساعدة غالياً ، فما أن نزلت الهزيمة بالعدو حتّى فقدوا عروشهم جميعاً ، واحداً
بعد واحد ، أمّا المعتمد فاختيد إلى إفريقية حيث مات في سجن أغمات مرّاكش
سنة ١٠٩٥ م » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٠٨] .

وقال لوبون : « واستغاثت عرب إسبانية ببربر مرّاكش في سنة ١٠٨٥ م
ليحوّلوا دون توالي انتصارات ملك قشتالة وليون والأذفونش السادس ، فلم يلبث
هؤلاء البربر الذين جاؤوا إلى إسبانية حلفاء للعرب أن ظهروا لهم بمظهر السيّد
الأمّر النّاهي » ، [حضارة العرب ٣٣٣] .

١٠ - العِلْمُ عند المسلم لم يكن يعني اكتساب معرفة جديدة :
قال حتّي : « وقاموا مقام الوسيط في أن نقلوا إلى أوربة خلال العصور
الوسطى كثيراً من هؤلاء المؤثرات الفكرية التي أنتجت بالتالي يقظة أوربة
الغربية ، ومهدّت لها سبيل نهضتها الحديثة » ، [تاريخ العرب المطوّل ٢] .

وقال بروكلمان : « إنّ العِلْمَ لم يكن يعني عند المسلم اكتساب معرفة
جديدة ، بل التّمكّن إلى أقصى حدّ مستطاع من المادّة التي أنتجتها الأجيال
السّالفة » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٤٨٢] .

وقال لوبون : « ولم يكن للقرآن تأثير في جميع مذاهب العرب العلميّة
والفلسفيّة التي نشرها في العالم في خمسة قرون » ، [حضارة العرب ٦٨٠] .

١١ - إن سبب يسر الفتح العربي الإسلامي وهن الفرس والرّوم وضعفها :
قال حتّي : « ولقد يَسَّرَ الفتح للعرب أسباب منها أنّ فارس وبيزنطة كانتا

قد وهنتا بسبب الحرب فيها أجيالاً طويلاً ، فاضطرتها هذه الحرب إلى إرهاب
رعاياها بضرائب قاسية أدت إلى نفورهم » ، [تاريخ العرب المطول ١٩٤] .

وقال بروكلمان : « لم يحالفه التوفيق - يعني أبا بكر الصديق رضي الله
عنه - في الحكم على الحالة الدولية ، وبخاصة فيما يتعلق ببيزنطة ، تطلع أول الأمر
إلى المشرق ، نحو الامبراطورية الفارسية ، بعد أن رأى إلى ضعفها البين منذ عهد
غير قصير » ، [تاريخ الشعوب الإسلامية ٩٠] .

وقال لوبون : « وكانت دولة الروم ، التي نهكتها محارباتها لدولة الفرس ،
والتي كانت تعاني عوامل الانحلال الكثيرة ، في دور الانحطاط ، فلم تكن غير
هيكلي نخر يكفي لتداعيه أقل صدمة » ، « .. كانت أركان العالم متداعية كالدولة
الإغريقية الرومانية والدولة الفارسية في زمن ظهور محمد - ﷺ - » ، « ولِدَ محمد
في أحسن الأوقات ، فقد رأينا أن العالم المُنسَّ كان متصدعاً فيه من كل جانب ،
فلم يتوجَّب على أتباع محمد إلا أن يَهْزُوهُ ليتساقط » ، [حضارة العرب ١٦٦ و ١٦٨
٧١٥] .

١٢ - الطعن في مصادرنا العربية ، مع روايات التَّوْهين والتَّمرِيز
والتَّضعيف :

استعمل فيليب حِتِّي في كتابه [تاريخ العرب المطول] العبارات التالية :
« إن صحَّ » ، « أساطير » ، « كما يُحكى » ، « زعموا » ، « فيما يُقال » ، « على
قول الروايات » ، « نسبتها الرواة » ، « رُوِيَ وَيُرَوَّى » ..

ناهيك عن اعتماده على كتاب (ابن العبري) : [تاريخ مختصر الدول] ،
المعروف بتعصبه وبعده عن البحث العلمي ، وكتاب « ألف ليلة وليلة » ،
وكتاب « الأغاني » الذي هو ليس كتاب تاريخ يُحتجَّ به .

واستعملَ كارل بروكلمان في كتابه [تاريخ الشعوب الإسلامية] العبارات التالية : « ولسنا نملك بينة موثوقاً بها » ، « وتذهب الروايات » ، « وقد يكون » ، « ولسنا نعرف على اليقين » ، « وليس من الميسور أن نقرر على وجه الدقة » ، « الروايات الأسطورية » ، « وتعزو الروايات » ، « أمّا مصادره ، فهي كتب المستشرقين » ، « مع أننا وإياه نعلم : إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ ، هذه قاعدة لا موضع للجدال فيها ، وذلك أن التاريخ لا يقوم إلا على الآثار التي خلّفتها عقول السلف أو أيديهم » .

واستعمل غوستاف لوبون في كتابه [حضارة العرب] العبارات التالية : « ويُقال » ، « من الأقوال الشائعة » ، « ويروي مؤرّخو العرب » ، « كما روى العرب » ، « على زعم كتب السيرة » ، « مارواه مؤرّخو العرب » ..

ورغم هذا كله ، تبقى لكتاب « حضارة العرب » قيمته العلمية الرفيعة ، ويكفي غوستاف لوبون تحرّره من المؤثرات التوراتية ، وبُعده عن التعصّب والشتائم والحقّد ، ويكفيه حُبّه للعرب وحضارتهم الخالدة .

ونحن في هذه السلسلة (في الميزان) نقف موقف الدّفاع عن ديننا وحضارتنا ، لأنّ الدّفاع عنها دفاع عن حياتنا ووجودنا ، سائلين الله عزّ وجلّ أن يجعلنا من ينطبق عليهم قوله : ﴿ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ ، [الفتح ٢٦/٤٨] ، والحمد لله ربّ العالمين .



المُحتَوَى

الصفحة	
٥	مقدمة :
٥	- تمهيد (بوكأي واستيفنس)
١٠	- كتاب (حضارة العرب)
١٢	- مؤلف (حضارة العرب)
١٤	- مترجم (حضارة العرب)
١٥	- خطة هذه الدراسة
١٧	من روائع لوبون
٤٩	كتاب حضارة العرب (وَصَفٌ وَعَرَضٌ)
٦١	الأخطاء والهفوات
١٧٤	خاتمة :
١٧٤	- أسباب عظمة العرب
١٧٦	- أسباب انحطاط العرب
١٧٧	- حال الإسلام الحاضرة
١٧٧	- مفتاح شخصية لوبون

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٩٩٠/٤/١ م
عدد النسخ (١٥٠٠)

١٤٠

(حضارة العرب) كتابٌ لاشك فريد في نوعه ، وكتابه مُحبٌّ للعرب وحضارتهم ، إلا أنَّ الأخطاء والمفوات والمطاعن فيه كثيرة ، فمع حُسن نيَّة (لوبون) ، نلمس أنَّه لم يرهق نفسه ليحيط بدقائق العقيدة الإسلاميَّة ، فجاءت معظم هفواته وأخطائه في هذا المجال ، فهو لم يتصوَّر أو يدرك ظاهرة الوحي ، أو أدركها ، لكنه لم يقرِّ بها محمد بن عبد الله ، ولم يستوعب بعض الأمور المتعلقة بالنبوة والقرآن والشرعة .

لقد وصَّف (لوبون) آثار حضارتنا فأجاد ، ودافع عن فتوحاتنا فأنصف ، كلُّ ذلك بروح علميَّة عالية المستوى قويَّة الحجَّة ، ولكن بعد هذا الإنصاف يُضدِّم الدَّارسُ (لحضارة العرب) بأقواله في القرآن ، وفي الرُّسول الكريم ﷺ ، وفي الإسلام عقيدة .